



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمّة لخضر الوادي
كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين



مطبوعة بيداغوجية :

الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر

موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر عقيدة وفق المقرر الوزاري

إعداد الدكتور:

علي خضرة

السنة الجامعية: 1443 / 1444 هـ

2023 / 2022

المقرر الوزاري

عنوان الماستر: العقيدة الإسلامية

السداسي: الأول.

اسم الوحدة: استكشافية.

اسم المادة: الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر (شخصيات ومشاريع)

الرصيد: 01.

المعامل: 01.

أهداف التعليم :

اطلاع الطالب على المشاريع الفكرية والنهضوية في العصر الحديث والمعاصر.

تعريف الطالب برواد الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر.

تنمية ثقافة الطالب بالتحديات الراهنة.

محتوى المادة :

مدخل مفاهيمي للفكر الإسلامي واتجاهاته

شخصية جمال الدين الأفغاني ومشروعه.

شخصية محمد عبده ومشروعه.

شخصية محمد إقبال ومشروعه

شخصية مالك بن نبي ومشروعه

شخصية عبد الوهاب المسيري ومشروعه.

شخصية طه عبد الرحمن ومشروعه.

شخصية رفاعة الطهطاوي ومشروعه

شخصية خليفة التونسي ومشروعه

طريقة التقييم: امتحان .

المراجع:

1- رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث - محمد عمارة.

2- جمال الدين الأفغاني - رائد حركة الإصلاح في العصر الحديث - محمد زكريا

توفيق.

3- عبقرى الإصلاح محمد عبده - عباس محمود العقاد.

4- روائع إقبال - الندوي.

5- محمد إقبال - عثمان أمين.

6- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - عبد الوهاب المسيري.

7- تجديد المنهج في تقويم التراث - طه عبد الرحمن.

روح الحداثة - طه عبد الرحمن.

مقدمة

كان للرسالة الإسلامية الدور الرئيس في يقظة وانبعاث أمة العرب من التخلف ، فبفضل الدين الجديد توحدت ونشطت وتطورت وازدهرت أمة العرب . ولم يتوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا وأمة العرب قد أخذت حقها من العلم والمعرفة والفهم والقابلية للنهضة والتقدم والتحضر ، وذلك بما أدارته بينها من حوارات ومناقشات ومجادلات ومباحثات حول مرجعية الوحي المقدس (القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة)¹ ، وحول أبعادهما النظرية وتطبيقاتهما العملية في واقع الحياة والناس . وخرجت بتجارب عملية تطبيقية صحيحة عن المسالك والطرق القويمة للدين الجديد ، الذي وجد في سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي إخبارات وخضوع صحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين خير متقبل ومدرك ومتعامل ومجرب ومفعل وناقل لتعاليم الله في الأرض ، مجسدة فيها ومجددة بها عهد الاستخلاف الأزلي الذي أمضاه أبو البشرية آدم عليه الصلاة والسلام مع ربه حين أخبرنا الله تعالى عنه فقال : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْتَلُونَ } (الأعراف : 172 و 173) .

وبفضل ذلك التفاعل النشط الذي شهدته جزيرة وأمة العرب بدأت تتحرك لدى المسلمين الأوائل القدرات العلمية والمعرفية والمنهجية الكامنة فيهم منذ قرون ، وانتقلوا من طور السماع والتلقي للتعاليم إلى طور المستفسر والمطبق والمسترشد ، فالمفسر والشارح والموضح لها ، فالداعي إلى تطبيقها وامثالها ، وذلك مع بداية حركة الفتوح الإسلامية ، متممة بالبساطة والفطرية والتلقائية والسماحة واليسر² .

¹ . صفى الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، دار الشهاب ، بانتة الجزائر ، دون طبعة وتاريخ . وغيره من مراجع ومصادر السيرة

² امحمد زيان عمر ، البحث العلمي مناهجه وتقنياته ، دار الشروق ، جدة ، الطبعة الخامسة ، 1407 هـ 1987 م ، ص 87 .

المحور الأول: مدخل مفاهيمي للفكر الإسلامي

توطئة:

يُعتبر هذا الاطلاق مركبا من صفة وموصوف ،فهو حديث عن الفكر المنبثق من الإسلام،أو الفكر الذي يتغذى من أصول الإسلام ومصادره التشريعية ،ويجدر بنا ابتداء أن نعرف بالصفة وموصوفها (الفكر+الإسلامي)، ثم نعرف المصطلح (الفكر الإسلامي)، فما المراد بكل منها؟

مفهوم الفكر:

جاء في لسان العرب الفكر إعمال خاطر في الشيء.والمعنى اللغوي ينصرف إلى حضور الفكرة في القلب وال خاطر فتشغل بال صاحبها .

وجاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا الفكر في الفرنسية pensee ،وفي الانجليزية thought نوفي اللاتينية cogitatio ،ويطلق الفكر على إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها ،ويطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية،وهو مرادف للنظر العقلي. وعلى هذا المعنى ينصرف الفكر إلى التدبّر والتأمل والنظر في الأشياء ومحاولة تفسير ما يربطها أو الوصول إلى العلاقة بينها ،فالفكر جهد عقلي وخصيصة للإنسان العاقل. وفي التعريفات للجرجاني هو ترتيب أمور معلومة لتؤدي إلى مجهول.

وعلى هذا المعنى ينصرف الفكر إلى العملية الذهنية في توظيف المعلوم للوصول به إلى مجهول وفي الإشارات والتنبهات لابن سينا الفكر هو أن ينتقل الإنسان عن أمور حاضرة في ذهنه متصورة أو مصدق بها تصديقا علميا أو ظنيا أو وضعا وتسليما إلى أمور غير حاضرة فيه وهذا الانتقال لا يخلو من ترتيب.

وعلى هذا المعنى ينصرف الفكر إلى استثمار المقدمات والبديهيات والمعارف المسبقة إلى طلب ما هو مجهول.

ويرى ديكارت في كتابه التأملات أن الفكر هو الشيء الذي يشك ويفهم ويدرك ويثبت ويريد أولا يريد ويتخيل ويحسّ.وعليه فالفكر عند ديكارت ملكة في النفس وجوهر يتحقق به الفهم والإرادة. ويرى أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين أن الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة.،وتعريف أبي حامد الغزالي هنا منصرف إلى أحد وظائف العقل الذهنية وهي

التحليل والاستنتاج من خلال المقارنة بين قضيتين ،والمعرفة الثالثة هي ما نستنتجه.

مفهوم الإسلام :

-الإسلام لغة: هو لخضوع والاستسلام والانقياد ،كقولنا أسلمت أمري له أي خضعت وانقدت له.

-اصطلاحاً: هو الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ويُطلق أيضا على مجموع ما أخبر به النبي (صلى الله عليه وسلم) في رسالته من عقائد وشرائع وأخلاق،وهو ما جاء في حديث جبريل (عيه السلام) عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وهذه المنظومات الثلاث (منظومة الشرائع والأحكام كالصلاة يُطلق عليها الإسلام ،ومنظومة العقائد كالإيمان بالله يُطلق عليها الإيمان ،ومنظومة القيم والأخلاق كإخلاص الأعمال لله عزوجل ،وهي المُعبّر عنها بالإحسان،وهذه الثلاث متكاملة فيما بينها ولا فصل بينها بأي حال من الأحوال ،تُشكّل في مجملها مُسمى الدين الإسلامي ،المُعبّر عنه في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:19) .

وعلى هذا الأساس يستمد الفكر الإسلامي صفته (الإسلامي) من المفهوم الاصطلاحي للإسلام ،أي أن الفكر يتغذى من المنظومات الثلاثة التي بينها سابقا في حديث جبريل،وهو ما سنوضحه في مفهوم الفكر الإسلامي؟

-مفهوم الفكر الإسلامي:

عُرّف الفكر الإسلامي بمجموعة من التعاريف نذكر منها:

1-**تعريف محمد البهي:** هو تلك المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الإسلام في مصادره الأصلية (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة)،إما تفقها واستنباطا لأحكام دينية،وإما توفيقا بين مبادئ الدين وتعاليمه وبين الأفكار الأجنبية ،وإما دفاعا عن العقائد الصحيحة أو ردّ العقائد المنحرفة.

2-**محسن عبد الحميد:** هو كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان،والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني في تفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشرعية وسلوكا.

3- **عبد الإله بلقزيز:** الفكر الإسلامي هو الفكر الذي يسعى إلى إنتاج معرفة بالنص الديني وبالواقع الاجتماعي على قاعدة الارتباط بالمنظومة المرجعية الإسلامية الكلية³.

4- **أحمد حسن فرحات:** الفكر الإسلامي هو نتاج التكامل العقلي المنبثق عن نظرة الإسلام العامة للوجود والمتوافق مع قيم الإسلام ومعاييره ومقاصده.

خلاصة التعاريف:

يتضح مما سبق ذكره من تعاريف ما يلي :

أ- أن أصحابها حاولوا ربط الفكر الإسلامي بمرجعية معرفية قائمة على أصول الكتاب والسنة ، باعتبار الوحي هو المنطلق.

ب- انصراف الفكر الإسلامي إلى العملية الاجتهادية للعقل المسلم ، فهو نتاج تفاعل العقل مع النص (الوحي) ، مما يجعل هذه الاجتهادات فهوما بشرية للنص تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهو ما يؤكد القيد الزمني (بعد انتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى جوار ربّه ، وهو تأكيد على كون الاجتهادات فهوما للوحي .

ج- الفكر الإسلامي مُستوعب لكل ما أنتجه العقل المسلم في المعارف المختلفة (العمران-الكون-العلوم الإنسانية والاجتماعية-العلوم الطبيعية-العلوم الشرعية ...) أي كل ما يجمع بين عالمي الغيب والشهادة ، وعلى هذا الأساس فالفكر الإسلامي استحضار لمختلف الجهود لعلماء الإسلام (الفقهاء الأربعة-المحدثون-المفسرون-الأطباء-المؤرخون-فلاسفة الإسلام-المتكلمون-الصوفية-الأصوليون-الفلكيون-الأدباء والشعراء...).

د- الفكر الإسلامي هو التعامل مع القضايا والنوازل والمستجدات ومحاولة أهله (العلماء) البحث عن أجوبة لكل المسائل المستجدة والإسهام في مختلف القضايا التي تهم الإنسان المسلم وتسعى لتحقيق سعادته وبنائه روحيا ونفسيا ومعرفيا.

يقول الأستاذ الدكتور أحمد محمد الجلي: ((من سمات الفكر الإسلامي أنه فكر إنساني خلا من تلك النزعة العنصرية والأناثية ، التي تحتكر المعرفة والعلم ، ذلك أن الفكر الإسلامي مرتبط بقيم الإسلام ومبادئه التي تؤكد على المساواة بين الناس ، وأن معيار التفاضل هو مقدار ما يحمل كل إنسان من قيم إنسانية أو تقوى ، كما عبر القرآن ، وكما أن الفكر الإسلامي شارك في صياغة علماء من كل الأجناس

³ الطيب برغوث ، النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة و المحافظة علي منجزاتها خلال الفترة المكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،

والشعوب الإسلامية وغير الإسلامية، لم يحتكر علماء المسلمين ما توصلوا إليه من علوم ومعارف ، ولم يضمنوا بها على الآخرين ، وأباحوا الانتفاع بها لغير المسلمين ، بل لم يبخلوا حتى على أعدائهم بعلم ، أو يضمنوا عليهم بمعرفة . فالمسلمون في الأندلس قدموا منجزاتهم العلمية للمسيحيين ، ولم يصددهم شأن القوم ومحاربتهم للمسلمين من أن يبذلوا لهم العلم . بل فتحوا صدورهم ومعاهدهم لكل طالب علم أيًا كانت الجهة التي قدم منها، ووضعوا كشوفهم ومعطياتهم أمام الجميع . وكان للتسامح الذي تحلى به خلفاء المسلمين في الأندلس أثره في إقبال العلماء النصارى من أبعد الأقطار على تلقي العلوم من المدن الإسلامية المزدهرة آنذاك ..))⁴ .

الفرق بين الفكر الإسلامي والإسلام:

يُمكن أن نستلهم مما سبق بيانه الفروق الجوهرية بين الفكر الإسلامي والإسلام والمتمثلة فيما يلي:

1. الفكر الإسلامي مُتغير والإسلام ثابت (أصوله ومصادره وقواعده الكُبرى)
2. الفكر الإسلامي اجتهاد بشري والإسلام وحي إلهي وتعاليم ربّانية (حديث جبريل نموذجاً)
3. الإسلام نصّ والفكر الإسلامي محاولة لفهم هذا النصّ بآلية الاجتهاد والاستنباط.

المحور الثاني: مصادر الفكر الإسلامي

سنحاول أن نُجيب على تساؤل مركزي ، ما هي المصادر التي يستمد منها العقل المسلم لأداء حقّ العبودية لله باعتباره مُكلفاً وتدبير معاشه ومعاده وتحقيق سعادته في الدارين؟

1. **القرآن الكريم:** جاء في تعريف عبد الوهاب خلاف القرآن هو كلام الله الذي نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بألفاظه العربية ومعانيه الحقة، ليكون حجة للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، على أنه رسول الله ، ودستورا للناس يهتدون بهداه، وقُرْبَةً يتعبدون بتلاوته، وهو المدون بين دفتي المصحف، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، المنقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلا عن جيل، محفوظا من أي تغيير أو تبديل، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ، فيه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:09)

⁴ الفكر الإسلامي المسيرة التاريخية وآفاق المستقبل ، مجلة آفاق التراث والثقافة، دبي ، عدد 45 ، السنة 13 ، صفر

يُعتبر القرآن الكريم المصدر الرئيس والأول من عدة اعتبارات :

أ./ كونه متضمن للشرائع والأحكام وأصول الاعتقاد ومكارم الأخلاق ، كما بينا من قبل (المنظومات الثلاثة) ، وهذه المضامين تهدف إلى مقصد عظيم وهو تحقيق الإنسان المكلف وتحقيق كل ما يحقق سعادته في الدنيا والآخرة .

ب./ تضمن القرآن الكريم الدعوة إلى بناء الإنسان نفسيا وروحيا وذهنيا ، ففي النص القرآن خطاب لكل ملكات الإنسان ومراعاة لأبعاده المختلفة (جسدا وروحا- عقلا وقلبا- ونفسا وروحا).

ج./ دعوة القرآن الكريم إلى التأمل والتدبر والنظر في آفاق النفس والكون لاكتشاف القوانين والنواميس واستثمار ما في الكون من طاقات ونعم لعمارة الأرض وتحقيق العبودية والاستخلاف لله عزوجل.

د./ دعوة القرآن الكريم إلى الجمع بين عالم الغيب والشهادة.

هـ. القرآن الكريم دستور الأخلاق: تضمن القرآن الكريم مشروعا قيميا وأخلاقيا شاملا ، يجمع بين بناء النفوس والأسر والمجتمعات والدول ، فهو يدعو إلى بناء الأفراد بإرساء قيم الصبر والمحبة والعفو والتواضع. ، ويدعو إلى بناء الأسر بإرساء قيم المودة والرحمة والمعاشرة بالمعروف ، ويدعو إلى بناء المجتمعات بإرساء قيم التعاون والتضامن والتكافل والدعوة إلى التحلي بالمسؤولية ، ودعا إلى بناء الدول بإرساء قيم العدل والنهي عن الاستبداد والدعوة إلى مبدأ الشورى والطاعة، فالقرآن الكريم ليس آية تتلى لأداء عبادة فحسب بل هو منظومة تشريعية وعقدية وأخلاقية وسياسية ، هو الفرد والأسرة والمجتمع والدولة.⁵

2. السنة النبوية :

يقول عبد الوهاب خالاف : السنة هي: كل ما صدر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قول، أو فعل، أو تقرير.

- فالسنن القولية : هي أحاديثه (صلى الله عليه وسلم) التي قالها في مختلف الأغراض والمناسبات، مثل قوله (صلى الله عليه وسلم): «لا ضرر ولا ضرار.» (حديث حسن)

- والسنن الفعلية: هي أفعاله (صلى الله عليه وسلم) مثل أدائه الصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها، وأدائه مناسك الحج.

⁵ محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1403 هـ 1983 م ، ص 27 .

-والسنن التقريرية: هي ما أقره الرسول (صلى الله عليه وسلم) مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال وأفعال بسكوته وعدم إنكاره، أو بموافقته وإظهار استحسانه فيعتبر هذا الإقرار والموافقة عليه صادرا عن الرسول نفسه، مثل ما روي أن صحابييين خرجا في سفر فحضرتهما الصلاة ولم يجدا ماء فتيما وصليا، ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر، فلما قصا أمرهما على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أقر كلا منهما

وتعتبر السنة النبوية المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، فهي مُفَصَّلَةٌ وشارحة لما جاء مُجَمَلًا في القرآن الكريم كبيانها كيفية الصلاة ومواقيتها وأركان الزواج وغيرها من الأحكام الشرعية . فلا يُمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها بل هي مفتاح لفهم القرآن الكريم واستنباط أحكامه وحكمه باعتبار النبي (صلى الله عليه وسلم) هو المجتهد والمبلغ عن ربه ، والسنة من الوحي أيضا ، لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه المُقَدِّمُ بْنُ مَعْدِي كَرِبَ «أَلَا إِنِّي أُوتِيْتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ»⁶

3. العلوم المنبثقة عن الوحي: أشرنا في التعاريف الاصطلاحية للفكر الإسلامي أنه كل ما أنتجه العقل المسلم في مختلف المعارف ، وهذه المعارف ثمرة من ثمار إعمال العقل في النص (الوحي قرآنا وسنة) الداعي للنظر والتأمل ، وعليه أفرز المصدران الرئيسان (القرآن والسنة) نشأة علوم مختلفة كانت فهوما واجتهادات في ضوء الوحي ومنها :

-علوم شرعية مثل: التفسير وعلوم القرآن وعلم الكلام والعقيدة والتصوف(التركيبية) والفقه وأصوله وعلوم الحديث.

-علوم إنسانية واجتماعية: علم التاريخ-علم النفس-الأدب-الفنون-

-علوم كونية طبيعية :كالفلك والطب والصيدلة والفلاحة .

-علوم اللسان:كالنحو والبلاغة -

-العلوم الرياضية :كالفيزياء والكيمياء والجبر والمقابلة .

وهذه العلوم جميعا أنتجها العقل المسلم وتُعتبر ثمرة من ثمار دعوة الوحي إلى النظر والتدبر والجمع بين عالمي الغيب والشهادة ، وكلها تُعتبر فروضا وواجبات على العقل المسلم وأي تقصير فيها تقصير في عالم الشهادة الذي تعبدنا الله ودعانا إلى عمارة الكون وتسخير ما فيه إعلاء لكلمة الله وتحقيقا للعبودية المطلقة له ، عبودية لا يمكنها أن تتحقق إلا بالتحرر من مختلف التبعية

⁶ رواه أبو داود في سننه

الغربية في ميادين الحياة كلها. وقد أسهم علماء الإسلام (في عهده الذهبية) بنصيب وافر فيها تأليفاً ومُدرسة: (الفقهاء الأربعة- البخاري ومسلم- الطبري- سيبويه- جابر بن حيان- المسعودي- ابن النفيس- عباس بن فرناس- الشاطبي- أبو بكر الرازي- ابن رشد- مُحي الدين بن عربي.....).

المحور الثالث: خصائص الفكر الإسلامي

سنحاول في هذا المحور أن نجيب على تساؤل مركزي مفاده : ما هي أبرز الخصائص التي تُميّز الفكر الإسلامي؟ وما هي السمات العامة له والتي على ضوءها يملك الإنسان تفسيراً شاملاً للوجود بروية توحيدية تجعله يدرك موقعه في الكون باعتباره خليفة ومُكرماً ساعياً إلى عمارة الكون واستغلال ما فيه من نعم وخيرات ليُحقق الغاية من وجوده وأداء لوظيفة العبودية التي خُلق من أجلها وعلى ضوء وظيفته تتحدد علاقاته مع ربّه ونفسه ومجتمعه وكذا علاقاته مع غيره باعتبار الرحم الإنسانية الواحدة، وفي هذا كله خدمة لحقيقة واحدة وهي التحقق بميثاق الربوبية الأول ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ سَهِدْنَا﴾ (الأعراف: 172).

فما هي أبرز خصائص الفكر الإسلامي التي تُسهم في إرساء الرؤية التوحيدية الشاملة للفكر والحياة؟ في ظل التفسير المادي للحياة وانتصار الحاجات على حساب القيم وشيوع النفعية والفردانية والصراع والتدابير والحروب النووية والبيولوجية (كوفيد19 نموذجاً) ؟. مع التنبيه على استقالة العقل المسلم من الفعل الحضاري وتخلفه عن دوره .

سنحاول أن نقف مع أبرز الخصائص كما تناولها سيد قطب- رحمه الله- في كتابه [خصائص التصور الإسلامي]

1. الربانيّة: كلمة الربانية في اللغة نسبة، وهي نسبة إلى الربّ، أي أن مصدر مختلف التعاليم الإسلامية رباني المصدر، تلقاه الإنسان بكل خصائصه ومقوماته ليقوم بتطبيقه في إطار التكليف الإلهي، وهو تصور غير متطور في ذاته وإنما تتطور البشرية وتنمو وتتقدم في إطاره، فالله الحكيم جعل في مختلف التعاليم آلية وخاصة استيعاب الزمان والمكان، فالله جعل التصور الإسلامي متاغماً (أي متوافقاً) مع الكينونة البشرية ومُشبعاً لحاجاتها ومراعياً لأبعادها النفسية والبيولوجية والاجتماعية ومطالبها الروحية، فهو صبغة الله

قال تعالى : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة: 138) ،

فالتصور الإسلامي وحي من عند الله بخلاف التصورات والفلسفات والنظريات الأخرى التي وضعها البشر ، لذا كان الإسلام هو خاتمة الرسالات السماوية لأنه جاء بمفاهيم ختمية للإنسان والكون والحياة. مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (الأحزاب:40) .

2. الثبات: الثبات ضد الحركة ،وما كان ثابتا فهو أصل ،أي الثبات في مقومات الإسلام وقيمه الذاتية(أصول الإسلام وأصول الإيمان والقيم والأخلاق) فهي لا تتغير ولا تتطور بتغير الحياة وتطور الأوضاع الاجتماعية ،وهذا لا يعني الجمود ،إنما دعا الإسلام إلى النظر والاجتهاد والتعامل مع النوازل والمستجدات فالمتغير هنا هو حركة العقل كآلية للاستنباط ،لكن الأصول ثابتة ،فالحركة هنا حركة المتغير (العقل) داخل الثابت (النص) ،وهو ما أشرنا إليه من قبل في الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي (الثبات والتغير) ،ومثال ذلك:

أ. إنسانية الإنسان حقيقة ثابتة لا تتغير رغم التغير والحركة التي تطرأ على الإنسان في أطوار خلقه =نطفة-علقة-مضغة-عظام-لحم-صبي-طفل-شاب-كهل-شيخ) فهذه الأطوار المتغيرة جميعا تدور حول محور واحد ثابت وهو الإنسان .

ب.مثال آخر عن الثبات والتغير ،الحقيقة الثابتة كون الإنسان خليفة وعايته هي تحقيق العبودية لله عزوجل ،والتغير هو لونه وجنسه ولسانه وبيئته ،تقدمه وتخلفه ...لكن هذه الصفات لا تلغي الأصل⁷ .

3. الشمول: الشمولية في أبسط معانيها هي كون التصور الإسلامي مُستغرق لعالمي الغيب والشهادة ،فهو يقدم الحقائق الإيمانية للإنسان المكلف ويعرضها بأسلوب يؤكد على ثبوتها ومعقوليتها وأكبر هذه الحقائق الإيمان بالله عزوجل وقيوميته على كونه ومُباينته لخلقته وكونه ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:164) ويرسم للإنسان مساره ويحدد له وظيفته المتمثلة في العبودية لله عزوجل ويدعوه إلى العيش وفق طبيعته (جسد وروح) ويضع له الشرائع والأحكام التي تعينه على تدبير حياته في المعاش (الأسرة-المجتمع-الدولة) ويضع له منظومة أخلاقية يضبط بها علاقاته مع أفراد مجتمعه ومع أبناء جنسه في إطار الرحم الإنسانية ،ويجمع له بين معاشه(الدنيا) ومعاده (الآخرة) ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص:76).

⁷ محمد أبو الفتح البيانوني ، المدخل إلى علم الدعوة ،مؤسسة الرسالة ، ط15،1415هـ/3،1995م،ص45

ويدعوه إلى استثمار وتسخير ما في الكون والتمتع بنعم الله ووجوب المحافظة على الكون إحياء وإعماراً وتجنباً للتخريب والتدمير ،وفي الحديث «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها» (رواه البزار عن أنس ورجاله أثبات ثقات) .

وعلى هذا فخاصية الشمولية في الفكر الإسلامي كونه شامل لأبرز لأكبر الحقائق (الألوهية- الإنسان-الحياة-الكون).

4.التوازن: التوازن يُوحى بوجود طرفين يُسيطر أحدهما على الآخر وثنائيتين تتأرجح إحداهما على حساب الأخرى ،فالتوازن يعني التناغم والجمع بين مختلف الثنائيات دون إفراط أو تفريط أو غلبة طرف على حساب طرف آخر.

ومثاله: الإنسان (طين +روح) والتوازن هو رفض الغلو والانتصار لطرف على حساب الآخر لأنه خروج عن صبغة الله وفطرته والإنسان كل وليس جزء جسد وروح سماء وأرض نور وظلمة وتحقيق متطلبات الجسد يدخل ضمن الحاجيات التي لا غنى عنها ،والانتصار للروح والتمرد على الجسد رهبانية يرفضها الإسلام ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد:27) ،وفي الحديث في خبر الفتيان الثلاث الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»⁸

إن التوازن في الفكر الإسلامي منع للشطط والغلو والتطرف والانحراف ومنع للأمراض النفسية والبدنية وسدّ لأبواب الشذوذ الجنسي والجنوح والتطرف الفكري إنه سعي لخلق شخصية سوية معتدلة تعمل للعالم وتقوم بعمارتها بقصد النجاة في الآخرة وتحقيق السعادة في الدارين.

5.الإيجابية: الإسلام دين الإيجابية والفاعلية وتعاليمه كلها رفض للدونية والسلبية والتراجع والذل والهوان ،وتتجلى هذه الإيجابية في الإنسان ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:21)،فإنه خلق الإنسان وألهمه وعلمه ووهبه إرادة وحرية واختياراً لكي يتعرف على ذاته فيعرف خالقه ويؤدي حق العبودية له ،وليست العبودية قيلاً للإنسان إنها حرية وانعتاق من كل الأصنام والآلهة ،لذا عاب القرآن الكريم على الإنسان التقليد للآباء والأجداد ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:23)

⁸ البخاري عن أنس،كتاب النكاح ،باب الترغيب في النكاح ،رقم:5063)

ودعاه إلى النظر والتأمل والتدبر والاختيار بين البدائل حتى في اعتقاده ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:256) ،وفي الحديث عن النبي ﷺ « لَا تَكُونُوا إِمْعَةً، تَقُولُونَ: إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنَاءَ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا » (الترمذي عن حذيفة ؓ، رقم:2008) والإيجابية .

6. الواقعية: ومعناها أن الإسلام ليس نظريات وفلسفات أو تصور مثالي لا مقابل له في الواقع ،فالإيمان بالغيبيات ليس إيمانا بالوهم بل هي حقائق ثابتة تؤكدها طبيعة خلق الإنسان وإلا كانت نفخة الله فيه عبثا (تعالى الله عن ذلك)،والإيمان بالله ليس إيمانا بخيال يرسمه الإنسان إنه إيمان بحقيقة لها وجودها في عالمنا وتجليها في كل ذرة من ذرات الكون ،فهذا النظام الدقيق والإتقان دليل على وجود صانع قادر ليس كمثله شيء ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: من 17 إلى 20)،وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:16) .

7. التوحيد: التوحيد من أبرز خصائص الفكر الإسلامي وهو مضمون يسري على الكون و الحياة كلها ،فكل حركة يقوم بها الإنسان في نفسه أو أسرته أو مجتمعه أو على مستوى ممارساته السياسية هدفها إعلاء كلمة الله الحق وتحقيق العدالة ونشر المحبة والسلام والتخلق بالأخلاق الإلهية والاتصاف بالأسماء الحسنى وإثبات الألوهية لله وحده ورفض كل أشكال الصنمية والوثنية الدينية والسياسية والفكرية الصنمية التي تجعل الإنسان عبدا وأسييرا لغيره ،فلا عبودية إلا لله وحده «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته»⁹

⁹ البخاري عن عبد الله بن عمر ،كتاب الجمعة،باب الجمعة في القرى والمدن،رقم:893

المحور الرابع: مراحل الفكر الإسلامي

مر الفكر الإسلامي بعدة مراحل أبرزها:

-**المرحلة 01:مرحلة التأسيس والتكوين:**وفيها تكونت مختلف المدارس والمذاهب فتكونت مذاهب العقيدة (السنة والخوارج والشيعة) وتكونت مذاهب الفقهاء (المذاهب الأربعة) وتكونت مدارس الصوفية (مدرسة بغداد ومدرسة خراسان) وتكونت مدارس الفلسفة ومذاهب التفسير للقرآن الكريم
-**عوامل التأسيس:** أسهمت مجموعة من العوامل في مرحلة التأسيس والبناء ومنها:

1-العامل السياسي فكانت مسألة الإمامة أهم العوامل التي شغلت حيزا كبيرا من الجدل والمناظرات وكانت سببا في ظهور الآراء والفرق والجماعات والأحزاب خصوصا بعد الفتنة الكبرى ومقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه (35هـ) وموقعة صفين (37هـ) بين سيدنا علي وسيدنا معاوية -رضي الله عنهما- وظهر مسألة مرتكب الكبيرة .وهو ما أدى إلى نشأة الفرق الإسلامية كالخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية وكفروا الطرفين ،والمعتزلة التي اعتزلت الصراع السياسي ،والشيعة التي ناصرت الإمام علي ورأت أحقيته بالخلافة .

2-تسرب الفكر الأجنبي إلى الحضارة الإسلامية (المسيحي-البوذي-اليوناني-اليهودي-الشرقي القديم)،وهو ما أدى إلى ظهور أعلام في الفكر الفلسفي كابن مسكويه وابن رشد وابن سينا والسهروردي ،كما أدى إلى ظهور المدارس الصوفية كالحلاج وابن عربي والغزالي وابن سبعين .
3-تطور المجتمع الإسلامي من مجتمع بسيط إلى مجتمع مركب (المسلمون وغير المسلمين في إطار التعايش) وتحول المجتمع الإسلامي من مجتمع محلي إلى مجتمع عالمي (بغداد-الأندلس)،وتعدد وتنوع التركيبة الاجتماعية كان عاملا مسهما في تطور الفقه وظهر مدارس واختلاف القضايا والنوازل الفقهية .

-**المرحلة 02:مرحلة إعادة بناء المجتمع الإسلامي:**وتبدأ مع سقوط بغداد وتستمر إلى مطلع القرن 18م (أي ما يقرب من 06 قرون من الزمن) ومن أبرز ما ميّز هذه المرحلة :

-الضعف والاضمحلال للوحدة الإسلامية خصوصا بعد سقوط بغداد(656هـ) وغزو المغول والتتار للعالم الإسلامي

-شيوخ التعصب للمذاهب والآراء

-غلق باب الاجتهاد وانتشار الشروح والحواشي والتعليقات وجمود العقل المسلم والاكتفاء بترييد الآراء السابقة.

-**المرحلة 03:مرحلة الاستعمار الغربي:** تبدأ هذه المحلة مع مطلع القرن 18م وتستمر إلى منتصف القرن 20م،ومن أبرز ما ميّز هذه المرحلة :

-الغارة على العالم الإسلامي واستعمار أغلب الدول الإسلامية (الاستعمار الفرنسي-الاستعمار البريطاني-الاستعمار الإيطالي).

-الغزو الثقافي والفكري وسيطرة المناهج الغربية .

-انتشار البعثات العلمية في البلدان الإسلامية إلى الجامعات الغربية (رفاعة الطهطاوي-طه حسين نموذجاً)

-انتشار المدارس الاستشراقية التي اهتمت بالشرق وعلومه وعاداته وتقاليده وجغرافيته وتركيبته الاجتماعية .

-النهضة العلمية في أوروبا والتقدم العلمي المذهل في مختلف العلوم الكونية والطبيعية في ظل سبات عميق للعقل المسلم.

-انتشار الصناعات المختلفة في أوروبا

-ظهور الحركات التحررية في العالم الإسلامي والدعوة إلى الجامعة الإسلامية (السلطان عبد الحميد الثاني -جمال الدين الأفغاني-محمد عبده-رشيد رضا-عبد الحميد بن باديس-البشير الإبراهيمي)

-**المرحلة 04:مرحلة الفكر الإسلامي المعاصر:** وهناك من يؤرخ لهذه المرحلة بنجاح الثورة الإسلامية في إيران 1975م،وتستمر إلى مطلع القرن 21م ،وأبرز ما ميز هذه المرحلة -الدعوة إلى الإحياء والتجديد(تجديد الفكر الإسلامي) وأغلب المؤلفات التي ظهرت في هذه الفترة ركزت على إشكالية تجديد الفكر الإسلامي لمسايرة الأحداث والتغيرات والتطورات . -الاهتمام بالدرس المقاصدي¹⁰.

-**المرحلة 05: مرحلة تقديم البديل الحضاري:** وهي اللحظة الراهنة التي يمر بها الفكر الإسلامي مع مطلع القرن 21م ،وهي ضرورة تقديم البديل الحضاري لكل ما وصل إليه الغرب في السياسة والاجتماع والتربية والمعرفة الكونية والعلوم الإنسانية والاجتماعية باعتبار أن الحضارة الغربية اليوم هي التي تقود الإنسانية وهي الحضارة المسيطرة على المشهد اليوم ،لذا فالفكر الإسلامي (بمختلف مدارس واتجاهاته وأعلامه) مُطالب بتقديم البديل الحضاري للإنسانية

¹⁰ المقاصد الشرعية لعمارة الأرض ، قطرون ضحية ، رسالة ماستر ، جامعة الوادي ، 2016/2015

جمعاء في ظل سيطرة حضارة المنفعة والفردانية والآنية والحاجة ،مما جعل الإنسانية اليوم تعيش مأزقا أخلاقيا حقيقيا (الصراعات-الحروب-الأوبئة -العنصرية-الطائفية ...) فلا بد من وجود منظومة كونية توحيدية تُعيد للإنسانية رشدها وصوابها في ظل الخصائص العامة التي تكلمنا عنها سابقا.

المحور الخامس: اتجاهات الفكر الإسلامي

سنحاول في هذه المحاضرة أن نُجيب على تساؤل مركزي مفاده:

ما هي أبرز الاتجاهات والمدارس التي شكلت الفكر الإسلامي في مختلف مراحلها ؟

ومن هم أبرز الأعلام الذين حملوا لواء هذه المدارس والاتجاهات.؟

واقع العالم الإسلامي: تجدر الإشارة إلى أبرز المعالم التي ميّزت العالم الإسلامي وشكّلت روافد

لمختلف الاتجاهات والمدارس ،ومن أبرز هذه المعالم:

-انتقال العرب من الانفتاح في العصر الذهبي إلى الانغلاق والتفوق والعزلة لأسباب سياسية

واقتصادية ومعرفية، واستمرت حتى نهاية الحكم العثماني مع النصف الأول من القرن 19م.

-التجاوز الغربي للعالم الإسلامي وعكوف العقل المسلم على الاجترار والتقليد في الوقت الذي

خطأ فيه الغرب خطوات عملاقة في ميادين الحياة كلها ،مما جعل العرب يقفون مذهولين أمام هذا

التقدم المذهل ،ووجدوا أنفسهم أمام حضارة استيقظت من سباتها وأبدعت في ميادين الفكر والحياة

وفي المقابل نظر العقل المسلم إلى ذاته فوجد نفسه في نوم عميق منذ قرون، خصوصا مع

اتصال العرب بالفكر الغربي مع حملة نابليون بونابرت على مصر 1798م ،وهو ما أثار السؤال

لدى العقل المسلم (سؤال النهضة) مفاده :ما هو السبيل لليقظة والبناء والنهضة وللحاق بالركب

الحضاري ،وظهرت ثلاث طروحات كإجابة عن هذا التساؤل وهي:

أ-تبني كل ما في الفكر الغربي من مُنجزات علمية ونظريات فلسفية ومذاهب أدبية وفنية.

ب-فريق أنكر هذه المُنجزات ولم ير فيها شيئا جديدا فوقف موقف الرفض المُستنكر .

ج-فريق وقف موقف الحذر المتردد مُحاولا التوفيق والملائمة بين المُنتج الغربي والتراث العربي

الإسلامي.

النتيجة :أسهمت هذه المواقف المُتباينة إلى صياغة اتجاهات فكرية وإصلاحية،وهي رؤى حاول

أصحابها التعامل مع مأزق التخلف ومسلك للتعامل مع الحضارة الوافدة ومشروعا لإعادة بناء

إنسان الخلافة والشهادة ،والسؤال المركزي الذي حاولت اتجاهات الفكر الإسلامي الإجابة عليه

مفاده : ما هو السبيل للنهضة والعودة إلى الذات ؟وما هي الركيزة الأساسية التي تُسهم في استعادة الذات وإعادة البناء؟ وما هو المعيار المعتمد في التعامل مع الفكر الوافد؟ هذا ما سنجيب عليه في اتجاهات الفكر الإسلامي.

اتجاهات الفكر الإسلامي: ¹¹

أولا :الاتجاه السلفي : [الوهابية-السنوسية-المهدوية]

1 ./ الوهابية: تُنسب الوهابية إلى مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (1703-1793م)، ولد ونشأ في العيينة بنجد ورحل مرتين إلى الحجاز، ارتاح أمير العيينة عثمان بن حمد بن معمر إلى دعوته فناصره، ثم خذله، فقصد الدرعية سنة 1157 هـ فتلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام، وقبل دعوته وآزره كما آزره من بعده ابنه عبد العزيز ثم سعود بن عبد العزيز، شكلت كتب ابن تيمية وابن القيم وأحمد بن حنبل المرجعية المعرفية لأفكار محمد بن عبد الوهاب وظهرت دعوته في نجد بأرض الحجاز وتحديدا بالدرعية، وقد واكب ظهور هذه الحركة الإصلاحية تأسيس الدولة السعودية واكتشاف آبار النفط .

-مبادئ الدعوة الوهابية: تقوم الوهابية على مجموعة من المبادئ أبرزها:

-العودة إلى الإسلام في صفائه الأول، فضُعب المسلمون راجع إلى ضعف العقيدة.

-الدعوة للاكتفاء بالكتب والسنة واعتبر ما عداها وما خالفهما مصدرا للبدع.

-تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام (ألوهية-ربوبية-أسماء وصفات)، والقول بأن مُسمى الإيمان والتوحيد كل لا يقبل التجزيء (بالقلب واللسان والعمل بالجوارح) ،وهذا ما أورده في كتابه كشف الشبهات ،إذ يقول ما نصّه: [لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما.].

-إنكار زيارة الصالحين والأولياء والتوسّل بهم واعتبار ذلك شركا ،وهو ماجاء في كشف الشبهات [الفصل العاشر إثبات أن الالتجاء إلى الصالحين شرك] ،وبناء على هذه القاعدة كان غير المحتكم إلى قوله مُشركا،وهو ما نجده في مؤلفاته في كتابه أصول الدين الإسلامي مع قواعده الأربع [القاعدة الرابعة مشركو زماننا أغلظ شركا من الأولين].

-فتح باب الاجتهاد بعد أن كان مُغلقا.

¹¹ دروس في الفكر الاسلامي ، معمر قول ، مطبوعة مقدمة للسنة الثانية أصول الدين ، معهد العلوم الاسلامية ، جامعة الوادي ، 2022م

2 / **الحركة السنوسية:** تُنسب الحركة السنوسية إلى مؤسسها محمد بن علي السنوسي (1787م-1859م)، ولد بمستغانم وتعلم بها ثم انتقل إلى مازونة، ومنها انتقل إلى فاس وبها درس الطرق الصوفية (القادرية-الشاذلية)، ثم توجه إلى الأغواط ثم إلى قابس وبنغازي وليبيا ثم القاهرة ثم الحجاز ثم مكة وأسس زاوية بجبل أبي قبيس سنة 1837م وأنشأ زاوية أخرى في الطائف والمدينة المنورة، ثم رجع إلى ليبيا ووصل بنغازي سنة 1841م وأنشأ الزاوية البيضاء سنة 1843م بالجبل الأخضر وكانت أول زاوية سنوسية بشمال إفريقيا، ثم انتقل إلى منطقة جغبوب وأنشأ بها مدرسة دينية كبيرة وبقي بها معلما إلى أن توفي سنة 1859م.

-**مبادئ الحركة السنوسية:** السنوسية حركة إصلاحية سلفية وطريقة صوفية جمعت بين النظرة الوهابية والإصلاح الديني ومحاسن الطرق الصوفية، لذا نجد لهاقبولا كبيرا عند أتباع الحركة الوهابية، بل سمحوا بوجودها في أرض الحجاز، وتقوم السنوسية على مجموعة من المبادئ أبرزها:

-العودة بالإسلام إلى نقائه الأول

اعتبار الكتاب والسنة مصدرا للأحكام وهو في هذا متأثر بابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب.

-فتح باب الاجتهاد في الإسلام واعتبار غلقه سببا لتحجر الفكر

-تنقية الدين مما علق به من بدع وضلالات

- الإيمان بما تؤمن به الصوفية من الرؤيا والاتصال والكشف

-حصر الإمامة في قريش.

3 / **حركة المهدي في السودان :** تُنسب المهديوية إلى محمد بن أحمد السوداني (1844م-1885م) من أب امتهن بناء المراكب الشراعية ويدّعي النسب إلى الأشراف، درس الفقه في الخرطوم ثم مال إلى التصوف، ودرس على يد شيخ الطريقة السمانية الصوفية محمد شريف نور الدايم حتى حصل على المشيخة ومنحه الإذن بالدعوة ورجع إلى الخرطوم وبنى مدرسة وتفرغ للدعوة، وبدأ يجوب أقطار السودان (وكان تحت الحكم الانجليزي) واستطاع تجنيد الآلاف من السودانيين لمواجهة الحكم المصري والانجليزي، وأعلن الثورة في 05 يناير 1885م إلى أن وافته المنية.

- مبادئ الحركة المهدوية: تقوم المهدوية على مجموعة من المبادئ أبرزها:
- العودة إلى الإسلام لما كان عليه في عهده الأولى واعتماد الكتاب والسنة فقط دون
غيرهما، واتخذ قاعدة أساسها: [طريقنا لا إله إلا الله محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب]
- التوحيد بين المذاهب الأربعة السنية والانفراد بمذهب اجتهادي خاص ،وقال أن الأئمة الأربعة
اجتهدوا لكن [هم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لاتبعونا]،وقوله أيضا :[ومذهبنا الكتاب والسنة
والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ]
- حصر الطرق الموصلة إلى الله في 06 أمور [صلاة الجماعة-الجهاد في سبيل الله ضدّ
الأعداء-امتنال أوامر الله-الإكثار من كلمة التوحيد-تلاوة القرآن الكريم-تلاوة الرواتب (نكر
متكون من آيات وأحاديث]
-تحريم زيارة القبور وتحريم الرقص والغناء.
-القضاء على الفساد السياسي في السودان وبقية الأقطار الإسلامية .
ثانيا :الاتجاه التحري : [الأفغاني-محمد عبده-الكواكبي-ابن باديس]
ثانيا : أعلام الاتجاه التحري:

1..الأفغاني: جمال الدين محمد بن صفدر الحسين جمال الدين، فيلسوف الإسلام في عصره،
وأحد الرجال الأفاضل ولد في أسعد أباد بأفغانستان سنة 1838م، نشأ بكابل، تلقى العلوم العقلية
والنقلية، وبرع في الرياضيات، سافر إلى الهند وحج سنة 1273 هـ ثم عاد إلى وطنه، زار
الآستانة سنة 1285هـ ، وجعل فيها من أعضاء مجلس المعارف، نفي منها سنة 1288هـ ، قصد
مصر، وكان محمد عبده من أنبغ تلاميذه، نفي مرة أخرى من مصر سنة 1296 هـ، رحل بعدها
إلى حيدر أباد ثم إلى باريس، توفي بالآستانة ونقلت رفاته إلى الأفغان سنة 1363 هـ، كان عارفا
باللغات العربية والأفغانية والفارسية والسنسكريتية والتركية¹²

¹² تاريخ الأفغان " ط "رسالة الرد على الدهريين" ط، أسس " العروة الوثقى.

2. **محمد عبده:** محمد بن حسن خير الله، من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ولد في شنرا، إحدى قرى مصر سنة 1849م، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم بالأزهر، اشتغل بالتعليم، كتب في الصحف، أصدر مع جمال الدين الأفغاني جريدة "العروة الوثقى" في باريس ثم عاد إلى بيروت، فاشتغل بالتدريس والتأليف إلى أن توفي سنة 1905م، دفن بالقرة من مؤلفاته تفسير القرآن الكريم لم يكمله، وأتمه تلميذه رشيد رضا، وهو المشهور بالمنار. "رسالة التوحيد-شرح نهج البلاغة.

3. **الكواكبي:** عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، ويلقب بالسيد الفراتي: ولد 1849م رحالة، من الكتاب الأدباء، ومن رجال الإصلاح الإسلامي. ولد وتعلم في حلب، وأنشأ فيها جريدة (الشهباء) فأقفلتها الحكومة، وجريدة (الاعتدال) فعطلت، وأسندت إليه مناصب عديدة. ثم حنق عليه أعداء الإصلاح، فسعوا به، فسجن وخسر جميع ماله، فرحل إلى مصر. وساح سياحتين عظيمتين إلى بلاد العرب وشرقي إفريقيا وبعض بلاد الهند. واستقر في القاهرة إلى أن توفي. له من الكتب (أمّ القرى - ط) و (طبائع الاستبداد - ط) وكان لهما عند صدورهما دوي. وكان كبيراً في عقله وهنئه وعلمه، من كبار رجال النهضة الحديثة. توفي 1902م.

4. **عبد الحميد بن باديس:** عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكي بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين من بدء قيامها سنة 1931م، ولد سنة 1887م وتوفي سنة 1941م بقسنطينة، أتم دراسته بالزيتونة بتونس وأصدر مجلة "الشهاب" دينية علمية أدبية، صدر منها في حياته نحو 15 مجلداً، كان شديد الحملات على الاستعمار، عرضت عليه رئاسة الأمور الدينية لكنه امتنع فأوذي، توفي في قسنطينة في حياة والده، له " تفسير القرآن "، اشتغل به تدريساً زهاء 14 عاماً وجمع في " مجالس التذكير " ط، ونشرت في الجزائر آثاره.

ثالثاً. أسس الاتجاه التحرري: تجمع بين أعلام هذا الاتجاه مجموعة من الأفكار شكّلت مُرتكزا لمشروعهم الإصلاحى، ومن أبرزها:

-الدعوة إلى الجامعة الإسلامية: وتعني ذلك التيار الفكري والسياسي الذي أبصر قاداته وأنصاره أن هناك عدداً من التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي والشعوب والأمم الإسلامية، سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الإسلامية كالتخلف الفكري والروحي والانحدار الحضاري والسياسي، أو آتية من الخارج في شكل المد الاستعماري الإمبريالي، فتيار الجامعة الإسلامية هو الذي أبصر أصحابه هذه التحديات وآمنوا أن هناك طريقاً واحداً هو التغلب على هذه التحديات

والعودة بالأمم والشعوب الإسلامية إلى العطاء الحضاري، وعليه فالجامعة الإسلامية هي إيمان وشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي، وهي قديمة في منشئها وأصلها، ترجع إلى صاحب الرسالة محمد- (صلى الله عليه وسلم) - .
-الدعوة إلى تحرير الأوطان .

-الردّ على الفلسفة المادية الطبيعية (كما هو الشأن في كتاب الأفغاني: رسالة في الردّ على الدهريين).

-الدعوة إلى حفظ ثروات الأمة واستغلال خيراتها من طرف أبنائها.

-تحرير العقل من الخرافة والأوهام ودعم العقائد الدينية بالأدلة والبراهين (الأفغاني +محمد عبده نموذجاً).

رابعاً : اتجاه الإحياء الإيماني الشامل:

وقد تمثلت أطراف هذا الاتجاه في : جماعة الإخوان المسلمين - جماعة النور فروعها وعلى رأسها بديع الزمان سعيد النورسي (وكذا أنصار الجماعة الإسلامية ومنهم أبو الأعلى المودودي. أ / .أعلام هذا الاتجاه: مثل اتجاه الإحياء الإيماني الشامل أعلام أبرزهم :

1. جماعة الإخوان (حسن البناء): حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا: مؤسس جمعية (الإخوان المسلمين) بمصر، وصاحب دعوتهم، ومنضم جماعتهم. ولد في المحمودية (قرب الإسكندرية) سنة 1906، وتخرج بمدرسة دار العلوم بالقاهرة، واشتغل بالتعليم، فتنقل في بعض البلدان متعرفاً إلى أهلها، مختبراً طباعهم وعاداتهم. من أبرز ما طرحه كون الإسلام (عقيدة وعبادة ووطن وجنسية وسماحة وقوة وخلق ومادة وثقافة وقانون) وأنشأ بالقاهرة جريدة (الإخوان المسلمين) يومية، فكانت منبره الكت أبي إلى جانب منابره الخطابية. وحدثت كارثة فلسطين، فكانت (كتيبة) الإخوان المسلمين فيها، من مؤلفاته مذكرات نشرت بعد وفاته باسم (مذكرات الدعوة والداعية)، توفي سنة 1949م. بعد حادثة الاغتيال في : 12/02/1949م بالقاهرة .

2..بديع الزمان النورسي:بديع الزمان سعيد النورسي ،ولد بقرية نورس التابعة لناحية اسباريت بقضاء خيزان من أعمال ولاية بتليس في شرقي الأناضول سنة1293هـ الموافق لـ سنة 1876م من أبوين كرديين. بتوجيهات أخيه الكبير الملا عبد الله، فكان أول ما أقبل على طلبه هو حفظ القرآن الكريم. تلقى تعليمه الأول بمدرسة الملا محمد أفندي في كتاب قرية "طاغ" ذات الطابع الديني على الطريقة النقشبندية.ثم توجه إلى قرية "برمس" التي كان يدرس بها الشيخ "سيد نور

محمد"، وفي سنة 1907م توجه إلى استنبول والتقى بالشيخ بخيت المطيعي وتنبأ قائلاً: إن أوروبا حاملة بالإسلام وستلده يوماً"، فقال له: ما تقول في الدولة العثمانية؟ فقال: إنها حاملة بدولة أوربائية وستلدها يوماً، وفي أواخر سنة 1910م سافر سعيد القديم إلى الشام ألقى خطبة بالجامع الأموي عُرفت بالخطبة الشامية، لخصّ النورسيفيها أمراض الأمة في ست نقاط، بعدها أسس جامعة الزهراء للوقوف ضد المؤامرة على القرآن الكريم، كما وقف النورسي ضدّ علمانية أتاتورك التي كانت مشروعاً غريباً لزعزعة الثوابت والقيم والأصول، بعدها ترك النورسي السياسة وتوجّه كلياً للتأليف والاشتغال على مشروعه كليات رسائل النور، وهو ما جرّ عليه تهماً عديدة أدخلته السجن كل مرة، فقضى حياته بين السجون والمحاكم إلى غاية وفاته في 23 مارس سنة 1960.¹³

من أبرز ما خلفه كليات رسائل النور (09 مجلدات) ومضمونها بيان للحقائق الإيمانية ودفاع عن المعجزات الأحمدية ونقد للفلسفة الغربية والحضارة الماديّة. وقد ترجمت الرسائل إلى أغلب لغات العالم.

3. أبو الأعلى المودودي:

أبو الأعلى المودودي، ولد في رجب 1321 هـ في مدينة "جيلي بورة" القريبة من "أورنج أباد" في ولاية "حيدر أباد" في الهند، من أسرة مسلمة محافظة اشتهرت بالتدين والثقافة، أصر والده على أن لا يعلمه في المدارس الإنجليزية، واكتفى بتعليمه في البيت، فدرس على أبيه اللغة العربية والقرآن والحديث والفقهاء.

بدأ المودودي العمل في الصحافة عام 1337 هـ، وأصدر "مجلة ترجمان القرآن" عام 1351 هـ، والمجلة تصدر حتى يومنا هذا، أسس الجماعة الإسلامية في الهند عام 1360 هـ، وقادها ثلاثين عاماً ثم اعتزل الإمارة لأسباب صحية عام 1392 هـ وتفرغ للكتابة والتأليف. وهو صاحب فكرة ومشروع إنشاء الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وبعد إنشائها صار عضواً في مجلس الجامعة، وكان عضواً مؤسساً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي

أسس المودودي الجماعة الإسلامية في لاهور، بغية الإصلاح الشامل لحياة المسلمين على أساس الفهم الصحيح النقي للإسلام، وانتخب أميراً لها في أغسطس 1941م، ودعا وقتها الناس عبر مجلته "ترجمان القرآن" إلى الانضمام إليها، وسخرت الجماعة الإسلامية جهودها وقتذاك، إلى

¹³ بدیع الزمان سعید النورسی ، سيرة ذاتية ، دار سوزلر ، 1998

نصرة قضية فلسطين، بعد إعلان قيام دولة باكستان أغسطس 1947، انتقل المودودي مع زملائه إلى لاهور، حيث أسس مقر الجماعة الإسلامية في يناير 1948م. خلف المودودي مكتبة زاخرة بلغت (120) مصنفاً ما بين كتاب ورسالة، منها : من أبرز آثاره مبادئ الإسلام - المسألة القاديانية - دين الحق - الأخلاق الاجتماعية وفلسفته .

وكتاب الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة. ، كانت وفاته سنة 1979.

ب / أسس ومرتكزات اتجاه الإحياء الإيماني الشامل: يمكن أن نستنبط أسس هذا الاتجاه من رؤى ومشاريع أصحابه الإصلاحية من خلال ما خلفوه من آثار ، وهناك فكرة محورية يتفق عليها هؤلاء الأعلام وينطلقون منها وهي [المسألة الإيمانية] فهي المقصد ، إذ يتفق أعلام هذا الاتجاه على إمكانية إحداث التغيير وتحقيق النهضة عن طريق إحياء بذرة الإيمان في النفوس والقلوب . وأبرز الأسس الأخرى نذكر:

- سيادة النقل على العقل واعتبار القرآن الكريم والسنة النبوية بمثابة المرشد والموجه والقبلة.، وهو ما أكد عليه كل من حسن البنا-النورسي-أبو الأعلى المودودي.

-تثمين العمل الاجتماعي عن طريق أوامر الصداقة والقربة، وهو ما عبر عنه النورسي بالأخوة الإيمانية، إذ الفرقة تُعتبر من أكبر أمراض العصر التي تتخبط فيها الأمة - التأكيد على الهوية الدينية عن طريق التميز باللباس والعادات والأعراف التي تُغذي القيم الإسلامية وتنميها كالعفة والحياء والطهارة.

-المُساهمة في الدعوة إلى الله عن طريق الإسهام في العمل السياسي كما هو عند جماعة الإخوان المسلمين ، وذلك عن طريق تأسيس الأحزاب والجمعيات والنوادي التي تكون مهمتها نشر القيم والفضائل وتجفيف منابع الرذيلة . لكننا نجد للأستاذ النورسي رأياً آخر ، فهو يرى أن الدعوة إلى الإسلام وتقديم حقائق الإيمان والقرآن لا يكون بطريق السياسة فهي غير مجدية عنده ، لذا ردد النورسي عبارته الشهيرة [أعوذ بالله من الشيطان والسياسة].

-التركيز على المسألة الإيمانية واعتبارها محور هذا الاتجاه ، عن طريق التحقق بالحقائق الإيمانية ، وتقديم عرض الدرس العقدي بما يتوافق وروح العصر مع اعتماد منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة وتثبيتها في القلوب لكونه خطاب يجمع بين العقل والقلب ولاعتماده البساطة والبعد عن التعقيد .

خامسا :اتجاه التصحيح الفكري:

وقد تمثلت أطيافه في : (محمد إقبال-مالك بن نبي-إسماعيل راجي الفاروقي-بلقاسم حاج أحمد - طه جابر العلوني)

أعلام هذا الاتجاه:

1./ محمد إقبال: محمد إقبال (1877 - 1938) هو شاعر الشرق وفيلسوف الانسانية، ولد في سيالكوت في البنجاب في الثالث من ذي القعدة 1294 هـ الموافق 9 من تشرين أول نوفمبر 1877م في من أسرة برهمية كشميرية الاصل، في السنة الرابعة أخذه والده إلى الشيخ مير حسن قائلاً: أريد أن تُعلِّمه الدين بدل ما يتعلمه في المدرسة. فأجاب الشيخ مبتسماً: هذا الصبيُّ ليس لتعليم المساجد وسيكون ذا شأن في المدرسة. وما هي إلا سنوات حتى صدّقت فراسة هذا الأستاذ وأصبح اسم محمد إقبال هو الأكثر رواجاً في شبه القارة الهندية وبلغ المشرق والمغرب.

نشأ محمد إقبال في الهند، وتخرج في جامعة "سيالكوت" بالهند، ثم أتم دراسته للفلسفة في لاهور. وفي الجامعة تعرف إقبال على المستشرق البريطاني الشهير "السير توماس أرنولد" وقد كان أرنولد أستاذاً مباشراً لإقبال، وهو أول من تعلم منه من الأوروبيين.

واصل إقبال تعليمه حتى حصل على درجة الماجستير بدرجة الامتياز، ثم عُيِّن أستاذاً للتاريخ والفلسفة السياسية في الجامعة ذاتها. انتقل بعدها كباحث في جامعة كامبريدج ببريطانيا ونال شهادة الماجستير في القانون والاقتصاد، وخلف أستاذه قسم اللغة العربية فيها، لتدريس آداب العربية لمدة ثلاثة أشهر. رحل إقبال بعد كامبريدج إلى رائدة الفلسفة في القرن الماضي؛ إلى ألمانيا، وحصل منها على درجة الدكتوراه في جامعة ميونخ وكان عنوان رسالته: "ازدهار ما وراء الطبيعة في الحضارة الفارسية."

وحين عاد إقبال إلى موطنه لم يتوقف عن التعليم والتعلم، فقد عمل بالمحاماة، وعمل مُدرّساً للفلسفة، ومُدرّساً للأدب العربي والفارسي في الجامعة ذاتها التي تخرج فيها حتى استقال من التدريس وتفرغ للمحاماة والشعر. وفي الوقت ذاته، كان دائم الصلّة بالكلية الإسلامية في لاهور، وقد دُعي إقبال إلى عدد من مؤتمرات إصلاح التعليم في الهند، ونشط في زيارات متتالية للجامعات والمؤسسات التعليمية في القارة الهندية والوطن العربي جنباً إلى جنب مع محاضراته في البلدان الأوروبية.

وكان وثيق الصلة بأحداث المجتمع الهندي حتى أصبح رئيساً لحزب العصبة الإسلامية في الهند ثم العضو البارز في مؤتمر الله أباد التاريخي حيث نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس ورأى تأسيس دولة إسلامية اقترح لها اسم باكستان ، توفي اقبال 1938 بعد ان ملأ الآفاق بشعره البليغ وفلسفته العالية ، غنت له أم كلثوم احدى قصائده و هي "حديث الروح" ،توفيت سنة 1938م.مُخلفا آثارا جمة ،منها :الديوان الشعري(مجموعة قصائده ضمّنها رؤاه وفلسفته وفكره في التربية والتعليم وقضايا الإنسان)-تجديد الفكر الديني.

2.. مالك بن نبي:

ولد مالك بن نبي في كانون الثاني من عام 1905م ،تلقى مراحل التعليم بين الكُتاب في تبسة والدخول إلى المدرسة في قسنطينة؛ وبها كان يحضر دروس الفقه للشيخ ابن العابد ودروس النحو العربي والصرف على يد الشيخ عبد المجيد الذي أثر في تكوينه الفكري وغرس فيه حاسة النقد الاجتماعي.

كما اطلع مالك بن نبي على المعارف والأفكار المختلفة، فقرأ للأديب والشاعر الفرنسي جول فيرن وتذوق العبقرية الشعرية الجاهلية وشعر العصر الأموي والعباسي، وحتى مدارس الشعر الحديثة، مما أكسبه طابعاً أدبياً ملموساً في مؤلفاته فيما بعد. ثم ما لبث أن جذبته الحركة الإصلاحية لابن باديس .

في عام 1925م سافر إلى مرسيليا وليون وباريس بحثاً عن عمل ولكن دون جدوى، ليعود سريعاً إلى الجزائر حيث عمل في تبسة كمساعد كاتب في المحكمة. وأتاح له عمله هذا الاحتكاك بمختلف شرائح المجتمع أيام الاستعمار مما ساعده على تفسير ظواهر مختلفة فيما بعد.

وفي عام 1930م، سافر مالك بن نبي إلى فرنسا مرة أخرى وحاول الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية، لكن وجهه القدر لدراسة اللاسلكي وتخرج كمساعد مهندس. وهو ما مكن له الإلمام بالرياضيات التي أحدثت له تغييراً عميقاً في النظر والتفكير لديه فكانت فترة دراسته بالرياضيات نقطة تغيير جذري في اتجاهه الفكري .

ارتحل عام 1954م للقاهرة من أجل المشاركة في الثورة الجزائرية من هناك. وفيها بدأت رحلته مع التأليف وإتقان اللغة العربية وعقد الحلقات العلمية المفتوحة لجميع الطلبة في منزله بالقاهرة، حيث تتم مناقشة مؤلفاته وشرح أفكاره، ليتأثر بها عدد كبير من الطلبة العرب والمسلمين الذين كانوا يتلقون تعليمهم في القاهرة ،فكانت فترة إقامته في مصر من أغنى مراحل عطائه الفكري الذي ألف

فيها العديد من الكتب بالإضافة إلى ترجمة البعض الآخر من كتبه عن الفرنسية إلى اللغة العربية. كما زار كلا من سوريا ولبنان السعودية والكويت وليبيا، بعدها قرر العودة إلى الجزائر عام 1963م، ليتم تعيينه مديراً عاماً للتعليم العالي، ولم تمض أعوام أربعة إلا وكانت استقالته تفسح له الطريق للعمل الفكري؛ حتى وافته المنية في أواخر أكتوبر عام 1973م. ترك آثاراً جمة، منها: [الظاهرة القرآنية - شروط النهضة - وجهة العالم الإسلامي - الفكرة الإفريقية الآسيوية - فكرة كومونولث إسلامي - الصراع الفكري في البلاد المستعمرة - تأملات]، وغيرها من عشرات الكتب.

3. إسماعيل راجي الفاروقي: باحث ومفكر فلسطيني تخصص في مقارنة الأديان، ولد في مدينة يافا الفلسطينية عمل والده قاضياً شرعياً ورغم ذلك فقد فضل أن يتلقى ابنه تعليماً مدنياً حديثاً على عادة بعض الأسر الفلسطينية الثرية؛ فألحقه بمدرسة الفرير الدومينيكان الفرنسية (سان جوزيف) التي حصل منها على الشهادة الثانوية عام 1936م، التحق بعدها بكلية الآداب والعلوم بالجامعة الأميركية في بيروت حيث حصل على بكالوريوس الفلسفة عام 1941م، شارك في الحرب الفلسطينية ضد الصهاينة سنة 1948م، ثم سافر إلى الولايات المتحدة وتابع تحصيله العلمي حيث حصل على درجتي ماجستير في الفلسفة عامي (1949، 1951م)، ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة إنديانا عام 1952م .

ثم عكف على الدراسات الإسلامية استكمالاً لتكوينه العلمي؛ فتوجه إلى القاهرة وأمضى بها نحو الأربعة أعوام تفرغ خلالها لدراسة العلوم الشرعية من مصادرها الأصلية في الأزهر الشريف، وقد برهن على عميق فهمه وتمثله للتراث المعرفي الإسلامي .

مع اكتمال التكوين المعرفي ارتحل الدكتور إسماعيل الفاروقي مجدداً إلى الولايات المتحدة حيث اشتغل منذ أواخر الخمسينيات أستاذاً لفلسفة الأديان في عدد من الجامعات الأمريكية والغربية، كانت للدكتور الفاروقي نشاطات واسعة خلال إقامته في الولايات المتحدة عبر من خلالها عن تواصله مع قضايا العالم الإسلامي وبخاصة المعرفية منها، وبرهن على أن الارتحال عن الوطن لا يعني انفصلاً وانقطاعاً عن متابعة قضاياها والعمل لأجلها، وفي هذا الصدد نذكر أنه قد أسس مع مجموعة من أعضاء اتحاد الطلاب المسلمين "جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين" عام 1972م وتولى رئاستها منذ تأسيسها وحتى عام 1978م، ومن خلال الجمعية ونقاشاتها تبلورت لديه رؤية محددة حول "إسلامية المعرفة" وهي الفكرة الأم التي تأسس حولها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة عام (1981م). وقد ترأس إسماعيل راجي الفاروقي المعهد العالمي

للفكر الإسلامي منذ التأسيس حتى وفاته عام 1986م ، وكان يرى أن الأزمة التي تُعاني منها الأمة هي أزمة فكرية، وأن الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما هي إلا تجليات لهذه الأزمة الأم. من مؤلفاته: أطلس الحضارة الإسلامية-التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة-إسلامية المعرفة.

4..محمد أبو القاسم حاج حمد: باحث ومفكر وسياسي سوداني ،ولد في جزيرة مقرات 1941م التحق بقيادة حزب الشعب الديمقراطي عام 1965 حيث تولى مسؤولية بعض الدوائر الانتخابية والحركة العمالية إلى استقالته في 23 مايو 1966. أثناء ذلك انتمى للثورة الإريتيرية منذ عام 1963 ثم تفرغ لها. وبعد استقلال إريتريا في عام 1993، حظي بالجنسية الإرتيرية و السمة الدبلوماسية كتقدير "أدبي" وعمل كمستشار للدولة الإرتيرية. وقد عمل لفترة سابقة (1990-1995) أيضا كمستشار علمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في حيث يقوم المعهد بإعداد دورات تخصصية عالية في مناهج الفكر الإسلامي. و يدير نشاطه من خلال مكتب خاص به للدراسات يتولى إعداد البحوث المتعلقة بالجوانب الجيوسياسية والاستراتيجية الخاصة بالقرن الأفريقي بما فيه السودان و البحر الأحمر و شبه الجزيرة العربية بجانب الدراسات الفلسفية الأخرى. أسس الحركة السودانية المركزية للبناء والوحدة "حسم" عام 1999م .انتقل إلى الإقامة في بيروت منذ العام 1981م، وانقطع عن السودان منذ العام 1986م وحتى العام 1997م .أسس في قبرص مركز للدراسات الاستراتيجية تحت اسم دار الدينونة.توفي سنة 2004م. من مؤلفاته: [العالمية الإسلامية الثانية-منهجية القرآن المعرفية- أبستمولوجية المعرفة الكونية-] وغيرها من المؤلفات.

5..طه جابر العلواني و مشروع الجمع بين القراءتين:

.ترجمته:

طه جابر العلواني (1935- 2016) هو مفكر وفقه إسلامي عراقي .كان رئيس المجلس الفقهي بأمريكا، ورئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية (SISS) بهرندن، فرجينا، الولايات المتحدة الأمريكية .حصل على الدكتوراة في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر في القاهرة، مصر، عام 1973 .كان أستاذاً في أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، المملكة العربية السعودية منذ عام 1975 حتى 1985 .في عام 1981 شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة، كما كان عضو المجلس التأسيسي

لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة. هاجر إلى الولايات المتحدة في عام 1983. وكان رئيس جامعة قرطبة الإسلامية في الولايات المتحدة. له عدة أعمال ومشاركات ومؤلفات، منها كتابه الجمع بين القراءتين.

مشروع الجمع بين القراءتين:

هو رؤية فكرية أطلقها العلواني رحمه الله في كتابه (الجمع بين القراءتين) ،والمراد بها الجمع بين قراءة الكون المسطور (القرآن الكريم) والكون المنظور (ما خلقه الله عزوجل) وهي متضمنة في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَفَرَأَى الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: من 01 إلى 05)، أي هي دعوة للجمع بين عالمي الغيب والشهادة ،فالعبيبات أخبر بها القرآن الكريم ،والإيمان بها إيمان بالله وتصديق برسالة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ،أما عالم الشهادة فهو منصرف إلى عمارة الكون واختراق آفاق السموات والأرض لاكتشاف ما بثه الله والاستفادة من النعم والخيرات عن طريق بناء المدارس والجامعات ونشر المدارس والمخابر والمصانع لامتلاك القوة التي أمرنا الله عزوجل بتهيئة أسبابها حتى نكون شاهدين على غيرنا ولا نمدّ يدنا تسولا لأحد بناء للدول وتحقيقا للعدل وإحياء للإنسان وصون كرامته.

-مشروع الجمع بين القراءتين بين عالمين:

أ./العالم الغربي :بالتأمل في عالم اليوم نجد حضارة غربية مُسيطرَة على المشهد وتقود مركب الإنسانية في مختلف مناحي الحياة ،وسبب هذه القوة في هذه الحضارة كونها حققت شطرا من مشروع القراءة (قراءة الكون المنظور) فاستطاع العقل الغربي أن يكتشف قوانين الكون ويستفيد من الخيرات والنعم التي بثها الله عزوجل وخصص لهذا الغرض ميزانية ضخمة لتشجيع البحث العلمي وبناء المخابر والمصانع والجامعات وتشجيع البحث العلمي ،وما الحرب البيولوجية اليوم (فيروس كوفيد 19) إلا مظهر من مظاهر القوة البيولوجية التي تمتلكها هذه الدول ،لكن ما موقع القراءة الثانية (الكون المقروء =الوحي) في الحضارة الغربية ؟.

قامت الحضارة الغربية على فكرة أحادية وهي الجانب المادي (عالم الأشياء) وقامت على فكرة النفعية والبراجماتية،وهو ما أفرز إنسان الحاجة والمنفعة على حساب القيمة وتمت زحزحة المنظومة الغيبية (ما وراء المادة) ،فكان هذا عاملا كبيرا في انتشار الإلحاد والأمراض النفسية

والخواء الروحي ،وهو ما أدى بدوره إلى الإباحية المطلقة التي أدت إلى انتشار الأمراض المستعصية .

ب./العالم الإسلامي: لا يختلف اثنان في اعتبار القرآن الكريم مصدرا رئيسيا جامعا لكل ما يحقق للإنسان سعادته في المعاش والمعاد ،لكن المتأمل في واقع العالم الإسلامي يجده تابعا لا متبوعا ومتخلفا لا متحضرا ومغلوبا لا غالبا ومتسولا ولا يأكل من عمل يده فأين الخلل؟.

يكن الخلل في تغييب مشروع الجمع بين القراءتين (قراءة الوحي+قراءة الكون)،أو ما يُمكن أن نسميه الجمع بين عالمي الغيب والشهادة ،فلا يُمكن الفصل بينهما بأي حال من الأحوال ،لكن العقل المسلم (بفعل السياقات النفسية والاجتماعية والسياسية والتاريخية) فصل بين القراءتين ،ورأى في القراءة الثانية أمرا ثانويا يُمكن الاستغناء عنه وعكف على ترديد ما وصل إليه السابقون ،فكانت النتيجة تخلفا مُنكرا في مختلف المجالات المعرفية والنفسية والاجتماعية والطبيعية ،وهو ما أدى إلى تبعية مُطلقة للغرب كان من نتائجها التعرض للاستعمار الغربي ونهب خيرات الأمة الإسلامية وهجرة عقولها المفكرة إلى الغرب،وهذا ما أدى إلى انهيار العمران وتخلف الدول .

ب ./أسس اتجاه التصحيح الفكري:

يتجلى من خلال مُسمى هذا الاتجاه (التصحيح الفكري) ، الأسس التي يقوم عليها هذا الاتجاه ويُمكن إجمالها فيما يلي :

- تجديد النظر في الإسلام بالإسلام نفسه وطرح الرؤى الغربية المرسومة عن الفكر الإسلامي (قراءة الإسلام من الداخل)

-استئناف جهود التأسيس التي اضمحلت في العصور المتأخرة ،وهي محاولة املاها التكليف الشرعي .

-العودة على الأصول والثوابت خصوصا مع الإكراهات الفلسفية والفكرية (الحضارة المادية)

-تصحيح الصورة المقدمة عن الإسلام من خلال بعض ما قدمته بعض الدراسات الاستشراقية والغربية في ظل زهول العقل المسلم عن عودته إلى ينابيعه الفكرية .

-استلهام الرؤية الكونية من الإسلام نفسه من خلال ما قدمه من تفسير للكون والحياة والتفاعل الإيجابي معها لإنشاء الحضارة وتفسير الاجتماع البشري وصياغة إنسان الخلافة والشهادة

-التأكيد على إمكانية العقل المسلم الإبداع والجدة والابتكار في ميادين الحياة كلها ،وهو ما تؤكد الحضارة الإسلامية في عهدها الذهبية ،وهو ما حاول بيانه إسماعيل راجي الفاروقي في كتابه

-مضامين فكرة التوحيد على الفكر والحياة والمجتمع، فليست اعتقادا قلبيا أو تصورا ذهنيا فهي حركة في الكون والحياة وشهادة وشهود.

المحور السادس : نماذج مختارة من رموز الفكر الإسلامي المعاصر

أولا : المجدد جمال الدين الأفغاني [1253-1315هـ / 1839-1897م]

تجمع الدراسات التاريخية التي تناولت حال وأوضاع العالم العربي والإسلامي على تدهوره وانهاره ، فقد وصفه الكاتب والمؤرخ الأمريكي (لوثرود ستودارد) في كتابه الشهير (حاضر العالم الإسلامي) بقوله : ((.. كان العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر قد بلغ من التضعف أعظم مبلغ ، ومن التذني والانحطاط أعظم دركة ، فإريد وجهه ، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه .. وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربي ، واستغرقت الأمة الإسلامية في ابتاع الأهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة في الناس ، وساد الجهل ، وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال . فليس يرى في العالم الإسلامي - في ذلك العهد - سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركيا ، وأواخر ملوك المغول في الهند ، يحكمون حكما واهنا .

وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التي هم في حكمها ، وينشؤون حكومات مستقلة ، ولكن مستبدة كحكومة الدولة التي خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من في حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثرت السلب والنهب ، وفقد الأمن ، وصارت السماء تمطر ظلما وجورا .

وجاء فوق جميع ذلك - رجال الدين المستبدون - يزيدون الرعايا إرهاقا فوق إرهاق ، فقلت الأيدي وقعدت عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى في نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بورا شديدا ، وأهملت الزراعة أيما إهمال .

وأما الدين فقد غشيته حاشية سوداء ، فألبست الوجدانية - التي علمها صاحب الرسالة - سجفا

من الخرافات ، وقشور الصوفية .. وكثر عديد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان إلى مكان ، يحملون في أعناقهم التمايم والتعاويد والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يشرب الخمر ، ويتعاطى الأفيون في كل مكان ، وانتشرت الرذائل ، وهتكت ستر المحرمات على غير خشية ولا استحياء ، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام .

وعلى الجملة فقد بدا المسلمون غير المسلمين ، وهبطوا مهبطا بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ، ورأى ما كان يدعى الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان .. ((. (1)

يفيض هذا النص التاريخي الوصفي الواقعي الذي قدمه كاتب أمريكي معاصر لوضع العالم العربي والإسلامي بعد رحلة طاف خلالها بلاد العرب والمسلمين بالكثير من الدلالات والمعاني ، لعل أهمها :

- 1 - حالة الضعف السياسي والعسكري والأمني التي كان عليها حال العرب والمسلمين ، وانتشار الظلم والاستبداد وجور السلاطين والولاة .
 - 2 - تراجع هيبة الحكام العرب والمسلمين أمام سطوة القوى الصليبية الصاعدة .
 - 3 - حالة الضعف الاقتصادي والصناعي والزراعي والتجاري .
 - 4 - تدهور الوضع المعيشي والأخلاقي والتربوي والتعليمي .
 - 5 - فساد العقيدة والدين ، وانتشار الأوهام والخرافات والبدع والانحرافات الصوفية ..
- وفي ظل هذه الأوضاع المزرية جاء السيد جمال الدين الأفغاني إلى الحجاز ومصر وتركيا وبث دعوته الإصلاحية في شعوبها النائمة . (2)

لمحة عن حياة الشيخ جمال الدين الأفغاني :

ثار جدل كبير بين المفكرين والمتقنين العرب والمسلمين حول هوية وأهداف ونشاط السيد جمال الدين (3) ، بحيث كثرت الآراء والأقوال المتناقضة حول دوره الذي قام به في الشرق النائم ، وقد انقسمت حياة السيد جمال الدين إلى مرحلتين رئيسيتين ، أولاهما تنتهي نفيه من بلاد الأفغان سنة 1869م ، والثانية تبدأ من نفيه إلى وفاته سنة 1315هـ 1897م .

1 - المولد والنشأة :

ولد السيد جمال الدين الأفغاني الحسيني بن السيد صفتر من بيت عظيم من بلاد الأفغان يرتقي نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما ، بقرية أسعد آباد من أعمال مدينة كندر من ضواحي كابل ، سنة 1254هـ الموافق 1839م ، وكان لأسرته مكانة عظيمة في قلوب الأفغان لنسبها الشريف برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعلمها ودينها وجاهها ومكانتها . (4)

وقد أخذ في صغره علوم اللغة العربية والفارسية والتركية معا ، فضلا عن أخذه العلوم الدينية والعقلية والفلسفية والرياضية ، وأتم دراسته وهو في سن الثامنة عشرة (5) ، وبعدها سافر إلى الهند لاستكمال تعلم بعض العلوم العقلية والرياضية والمنطقية والفلكية ، ثم ساح متجولا في الكثير من الأقطار الإسلامية والعربية إلى أن وصل بلاد الحجاز ، وأدى فريضة الحج سنة 1273هـ 1856م ، وجاور شهورا عدة في بلاد الحجاز ، ثم طاف مجددا في البلاد ، وقد اكتسبه رحلاته تلك علما وأدبا وفهما ومعرفة واسعة بحال العرب والمسلمين وحصل على تجربة ثرية ، ثم عاد لبلاده لينتظم في سلك الأمير دوست محمد خان ثم مع الأمير محمد أعظم ، الذي ظل ملازما له إلى أن هُزم سنة 1868م . (6)

نشاطاته وممارساته السياسية :

انضم بعد عودته إلى قيادة الأمير دوست محمد خان ، وبعد وفاته عظمت الفتنة في بلاد الأفغان فانضم إلى جماعة الأمير محمد أعظم ، الذي كانت له سجالات حربية مع إخوته وأبناء عمومته إلى أن حلت به الهزيمة على يد الأمير شير علي ، فلجأ إلى إيران سنة 1285هـ 1869م ، ومكث السيد جمال الدين ثلاثة أشهر مقيما بكابل لا يمسه أحد بسوء نظرا لسمعة أسرته ومكانتها ، ثم استأذن للحج فأذن له وغادر بلاد الأفغان عن طريق الهند ، لا عن طريق إيران حتى لا يلتقي بالأمير المهزوم محمد أعظم . (7)

والمتتبع لنشاطات الشيخ جمال الدين السياسية يلحظ ما يلي :

- 1 - تفرد ونبوغ شخصية الشيخ جمال الدين وتميزها وتنوع جوانبها .
- 2 - ممارسته للعمل الإصلاحي عن طريق العمل السياسي والعسكري المحلي قبل التحول للعمل الخارجي .
- 3 - عدم يأسه من فشل تجربته الأولى ، وتفعيل آليات العمل الإصلاحي .
- 4 - قدرته على تبديل موقعه ومنهجه وأدائه الإصلاحي .

جمال الدين الأفغاني في المنفى :

خرج السيد جمال الدين من بلاد الأفغان بعد فشل تجربته الإصلاحية في جانبها السياسي قاصدا حج البيت الحرام سنة 1285هـ 1869م ، وأقام بالهند شهرا لأن الحكومة لم تسمح له بالإقامة فيها أكثر من شهر ، وخلال وجوده فيها ظل تحت مراقبتها ، ومنعته من الاتصال بأعيان الهند وعلمائها ، إلى أن سيرته مرغما إلى مصر على إحدى مراكبها العسكرية ، التي وصلها سنة 1287هـ 1870م ، ومكث فيها أربعين يوما غادرها إلى الآستانة . (8)

وأثناء وجوده بمصر تردد أثناءها على جامع الأزهر ومراكز العلم والثقافة ، واتصل ببعض السوريين واللبنانيين المقيمين فيها ، ثم سافر إلى الآستانة وقابل فيها الصدر الأعظم عالي باشا ، الذي أكرمه وعرف مكانته ، وجلب أثناء وجوده في الآستانة بزيه الأفغاني أنظار الكثيرين حتى رغب إليه تحسين أفندي مدير دار الفنون - الجامعة - لإلقاء محاضرة على فائدة الصناعات فاعتذر لضعف لغته التركية ، ولكنه قبل وقدم محاضرة قيمة لم تُعجب عقل شيخ الإسلام والعلماء الجامدين من حوله ، فشنوا عليه حملة شعواء ، اضطرتته إلى مغادرة الآستانة والعودة إلى مصر ، التي حل بها عام 1288هـ 1871م ، والتي أقام بها مدة عشر سنين ، وشكلت أخصب سنين حياته . (9)

رحلاته المختلفة :

1 - من مصر إلى الهند إلى باريس :

حل السيد جمال الدين الأفغاني بمصر قادما إليها من الآستانة أول محرم 1288هـ 23/مارس/1871م ، وبقي فيها إلى غاية شهر أوت 1879م 1297هـ ، وكانت إقامته بمصر أخصب سني حياته وعطاءاته الفكرية والإصلاحية ، وعلى الرغم من وضع مصر الاقتصادي والمالي المتعسر ، إلا أن رئيس الوزارة فيها رياض باشا أجرى عليه أجرا شهريا مقداره عشر جنيهاً . (10)

وفي مصر فرّع نشاطه وخطابه الإصلاحي باتجاهين ، الأول باتجاه الأعيان والنخبة من السياسيين والشيوخ وطلبة العلم ، والثاني لعامة الناس ، من زواره وجلسائه في المقاهي والحدائق العامة . (11)

وفي مصر تعرف عليه محمد عبدة وإبراهيم اللقاني وسعد زغلول وعلي مظهر وسليم النقاش وسليم العنحوري وأديب إسحاق وعبد السلام وإبراهيم المويلحي ومحمود سامي البارودي والشيخ حسن

الطويل المدرّس بالجامع الأزهر وعبد القادر المغربي وعبد الله النديم ومحمد عرابي باشا .. وهم نواة النهضة الفكرية والأدبية والسياسة الحديثة في مصر . (12)

ولما شهدت مصر قيام ثورة عرابي باشا وما سبقها من الأحداث منذ سنة 1878م إثر انقلاب توفيق باشا على أبيه إسماعيل باشا وإسقاطه من الحكم ، أمر الخديوي توفيق بإخراج السيد جمال الدين من مصر بتهمة تزعمه لعصابة وجمعية سرية مشبوهة هدفها زعزعة استقرار البلاد ، فخرج هو وتابعه أبو تراب من مصر شهر رمضان 1296هـ سبتمبر 1879م . (13)

وأقام في حيدر آباد الدكن بالهند ، ولما قامت ثورة عرابي باشا بمصر سنة 1882م ألزمته الحكومة البريطانية الإقامة بمدينة كلكتا مدة ثلاث سنين إلى أن سمحت له بالهجرة إلى باريس التي وصلها عائداً من لندن سنة 1883م . (14)

2 - من باريس إلى لندن إلى طهران :

بقي السيد جمال الدين في فرنسا ثلاث سنين وأسس هناك مع الشيخ محمد عبده وميرزا محمد باقر جمعية العروة الوثقى ، ومجلة العروة الوثقى التي صدر منها ثمانية عشر عددا . ظهر العدد الأول منها يوم 15/جمادى الأولى /1301هـ الموافق 13/مارس/1884م، والأخير منها يوم 26/ذي الحجة /1301هـ الموافق 17/أكتوبر /1884م . ولما وقفت في وجهه الكثير من العوائق عاد إلى إيران . (15)

3 - من إيران إلى موسكو إلى لندن وباريس وميونخ :

بعد أن أرسل في طلبه الشاه ناصر شاه نزل عنده ضيفا عزيزا مكرما ، وولاه نظارة الحربية على أن يرفعه إلى منصب الصدر الأعظم ، ولكن الشاه خشي من اتساع نفوذه وسلطانه فتغيّر تجاهه ، فأحس جمال الدين ذلك فاستأذنه لزيارة روسيا فأذن له ، فأقام متنقلا في الأقطار الروسية مدافعا عن المسلمين بمقالاته وكتاباته ومناظراته .. إلى أن قابل القيصر الذي لم يعجبه كلامه عن الرعية ، ولم يعجبه تفكير جمال الدين التحرري الطليعي ، فغادره وذهب متجولا في الأقطار الأوروبية بعد أن أقام في روسيا ثلاث سنوات . (16)

وصادف أثناء تواجده في مدينة ميونخ الألمانية وهو عائد من لندن وباريس أن التقى الشاه ، الذي اعتذر منه ، ودعاه ثانية إلى إيران فلبى دعوته وعاد إلى طهران أواخر سنة 1890م ، وهناك قام بنشاط دعوي كبير ، حمل الشاه على طرده مخفورا في فصل الشتاء البارد تحت حراسة كتيبة من الجند ألفت به عند مدينة البصرة ، فخرج مريضا إلى أوربا ثانية وظل ينتقل فيها ،

وبينما هو في لندن يباحث الساسة الإنجليز وضع العالم الإسلامي ورد عليه كتاب السلطان عبد الحميد الثاني يرغبه بالقدوم عليه إلى عاصمة الخلافة العثمانية الآستانة التي دخلها سنة 1892م علّه يجد ضالته في بث فكره الإصلاحى . (17)

الوداع الأخير فى الآستانة :

ظل الشيخ جمال الدين الأفغانى مقيما فى عاصمة الخلافة العثمانية ممضيا بقية حياته إلى أن توفي بسرطان الفم يوم 09/مارس/1897م الموافق 06/شوال/1315هـ . (18)

وفى الآستانة حاول جاهدا نشر أفكار الإصلاحية ، ودعا فيها إلى الجامعة الإسلامية والوحدة بين المسلمين ، وتفاوتت علاقته بالسلطان وبرجال دولته بين العلاقات الطيبة والمشوبة بالريبة والشكوك حتى لاقى العنت من دهاء ومكر شيخ الإسلام أبى الهدى الصيادى، الذى سبب له العديد من المشكلات بسبب جموده وتخلفه ، إلى أن توفاه الله . (19)

والمتتبع لحياة لنشاطات الشيخ جمال الدين الأفغانى يتبين المعالم التالية :

- 1 - وضوح خطه ومنهجه ومقصده الدعوى والإصلاحى وإدراكه لغاياته .
- 2 - عدم ثقته فى الحكام والسلطين المسلمين .
- 3 - دقة تشخيصه لأمرض العالم الإسلامى .
- 4 - إدراكه المبكر لأبعاد روح الاستكبار الصليبي العالمى .
- 5 - زهده - رحمه الله - عن متع الحياة وتسخير حياته فى سبيل نهضة وعزة أمتة .
- 6 - تنوع وسائله وأساليبه الدعوية والإصلاحية .
- 7 - اعتماده أسلوب الزخ الدعوى وخلق بؤر الوعى لدى النخب المثقفة فى العالم الإسلامى .

* منهج الشيخ جمال الدين الإصلاحى :

خط السيد جمال الدين لنفسه منهجا إصلاحيا منذ أن تقلد منصب الوزارة فى عهد الأمير محمد أعظم إلى سنة نفيه 1285هـ 1869م ، فى تلك المرحلة كثف من نشاطاته السياسية والجهادية الواقعية بما يتناسب وطبيعة المرحلة والاستعداد والفهم والتكوين . وبعد خروجه من بلاده منفيا طور وسائله وأساليبه ، وجعلها تصب فى اتجاهين ، هما :

- 1 - بث روح النهضة واليقظة فى الشرق المتخلف ، والعمل على استعادة دوره ومكانته الحضارية ، بإصلاح الحكام والمحكومين .

2 - مناهضة كل أشكال الهيمنة والاستكبار الصليبي العالمي المهيمن على الشرق الإسلامي وموارده ، والعمل على استقلاله وتحريره وعزته . (20)

وقد بيّن هذا الخط الإصلاحي الاستقلالي الباحث والمفكر الأمريكي تشارلز آدمز بقوله (21) : ((كانت الغاية التي يرمي إليها جمال الدين، والغرض الأول في جميع جهوده التي لا تعرف الكلل، ومن إثارة للنفوس ، وتهيج المتواصل للناس، وتوحيد كلمة الإسلام، وجمع شمل المسلمين في سائر أقطار العالم ، كما كانت الحال أيام الإسلام المجيدة وعصره الذهبي ، وقبل أن توهن منه الفرقة والانقسام . وقد باتت أقطار المسلمين غارقة في وهدة الجهل واليأس ، فأصبحت فريسة للاعتداء الأوربي ، وقد آلمه أشد الألم أن يرى الأمم الإسلامية يضعف أمرها ، وترت قواها ، وكان يعتقد أن الأمم الإسلامية لو نفضت عن نفسها كابوس الاحتلال الأجنبي وتحررت من تدخل الدول الأجنبية في شؤونها ، وصلح حال الإسلام وتوافق مع مقتضيات الحياة في العصر الحاضر ، لأصبح المسلمون قادرين على تدبير أمورهم تديبيرا حسنا ، دون أن يعتمدوا على الأمم الأوربية ، ويصطنعوا وسائلها . وكان يرى أن الإسلام في جميع مسائله الجوهرية دين عام للعالم أجمع قادر بما فيه من قوة روحية على ملاءمة الظروف المتغيرة في كل كل جيل ..)) . (22)

والمحل لقول تشارلز آدمز يلاحظ التالي :

- 1 - وضوح المنهج والخط والمقصد الإصلاحي للسيد جمال الدين .
- 2 - دعوته الصريحة لمفهوم الوحدة الإسلامية عن طريق الدعوة لشعار الجامعة الإسلامية الذي لاقى هوى في قلب السلطان العثماني عبد الحميد الثاني .
- 3 - الكشف عن روح الإسلام الحقيقية باعتباره عامل يقظة وإحياء لروح النهضة والتقدم .
- 4 - نغمته على الاستكبار الصليبي العالمي المسيطر على الشرق الإسلامي المتخلف والناهب لثرواته وموارده ،
- 5 - تبرمه من وضع الأمة الإسلامية المزري .
- 6 - صلاحية الإسلام كدين وكنظام عالمي يلائم الإنسانية كافة ، وهو غير خاص بالأمة الإسلامية .

* منهجه في الإصلاح السياسي :

المنتبغ لنشاطات الشيخ جمال الدين يتبين انحيازها للنشاط الإصلاحي السياسي ، فقد وهب جُل جهوده فيها وأفنى عمره في يقظة الشرق ، وقد تركز نشاطه الإصلاحي السياسي على المعالم

التالية :

1 - مناهضة قوى الاستكبار الصليبية العالمية المهيمنة على ثروات وموارد الشرق الإسلامي المتخلف .

2 - مقاومة كل أشكال الهيمنة الاستعبادية القمعية الداخلية التي كان يمارسها الملوك والحكام والسلاطين ضد شعوبهم .

3 - تحريض شعوب الشرق على التمرد والعصيان والثورة في وجه قوى الاستكبار العالمي الخارجية ، وقوى الاستعباد الداخلية .

4 - المطالبة بسيادة القانون ، وحكم الناس عن طريق الحكم النيابي الشوري .

5 - الدعوة إلى الوحدة الإسلامية تحت شعار الجامعة الإسلامية .

ولتحقيق منهجه ونشره بين الناس اتصل بالحكام والملوك والسلاطين المسلمين وغير المسلمين كما تبينا ذلك آنفا ، فقد اتصل بالقيصر الروسي طالبا منه أن يخفف قبضته القمعية على المسلمين الذين تحت حكمه ، ونشر في ذلك مقالات مطولة في الصحف الروسية ، وخاطب القيصر بقوله الجريء الذي لم يرق القيصر ، لما يتضمنه من روح الثورة والتمرد والعصيان ، وتحقيق العدالة والمساواة بين الرعية فقال له في حوار الصريح والشيق معه : ((* القيصر : ما رأيك يا سيد جمال الدين في سبب الخلاف بينك وبين شاه إيران ؟

* جمال الدين : سبب الخلاف الحكومة الشورية وضرورة اتباعها والعمل بها ، والشاه لا يحب الحكومة الشورية النيابية ، وينفر منها ولا يحب الاعتراف بها .

* القيصر : إنني أرى الحق مع الشاه ، إذ كيف يرى ويرضى ملك من ملوك الأرض أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟

* جمال الدين - في درأة وصراحة - : أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء له خيرا من أن يكونوا أعداء له ، يتزقون الفرص ويكتمون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام ..)) . (23)

كما كانت له أيضا اتصالات بالسلطان عبد العزيز سنة 1870م ومن بعده بالسلطان عبد الحميد الثاني الذي أمضى بقية حياته عنده ، وكثيرا ما كان يعرض نصائحه وتوجيهاته ، ولكن السلطان كان يستمع إليه ولا يفعل شيئا مما يدعوه إليه . (24)

كما كانت له اتصالات بالخدوي إسماعيل وتوفيق في مصر وبعض الساسة الفرنسيين والإنجليز ،

وكتب الكثير من المقالات يرد فيها على ادعاءاتهم الاستعمارية . (25)
وبالفعل فقد كان لصيحات السيد جمال الدين الأثر الكبير في يقظة الشرق الإسلامي ، وانتقلت
تأثيراته تلك لتعم سائر أقطار العالم الإسلامي . (26)

منهجه في الإصلاح الاجتماعي :

أدرك السيد جمال الدين حقيقة تخلف الشرق في حياته الاجتماعية ، حيث السيطرة المطلقة للجهل
والأسطورة والجبر والتواكل والوهم .. وضعف الإرادة ، وهيمنة روح الأمية والتخاذل واليأس
والانهزام والفقر .. إذ صار الناس في مرتبة البهائم ، وقد وصف الشيخ محمد عبدة حال مصر
قبيل مجيء الشيخ جمال الدين إليها فقال: ((..إن أهالي مصر قبل سنة 1293هـ كانوا يرون
شؤونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنبيه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف
فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيانتهم وظلمه
، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبيده في إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من
الأعمال يرى فيه صلاحا لأمتهم ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون
فيما تكلفهم به الحكومة وتضربه عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى
سواء أكانت إسلامية أو أوربية ..)) . (27)

ولأجل رفع سجب الجهالة والتخلف عن حياة الناس عمل جمال الدين على تحريك همم
النخب خاصة وجماهير الشعب عامة ، وذلك عن طريق الوسائل التربوية والتعليمية والدعوية
والإصلاحية التالية :

- 1 - الدروس العلمية المتخصصة للطلبة العلم من الأزهريين وغيرهم .
 - 2 - الدروس العلمية للطلبة المغتربين من السوريين واللبنانيين ولالأعيان والوجهاء ، لاسيما من
يعقد في بيته صالونا أدبا خاصا به .
 - 3 - الدروس التوعوية العامة لزواره في البيت وجلسائه في المقاهي عامة ، وفي مقهى ماتاتيا
خاصة .
 - 4 - الكتابات والدروس والمحاضرات والحوارات والمناظرات والشروحات ..
- * معالم شخصيته :

وصف تلامذة وأصدقاء الشيخ جمال الدين بأنه رجل سامي الأخلاق ، عظيم النفس ، حسن السمات صادقا واضحا في أقواله وأفعاله ومقاصده ونواياه ، ولك أن ترى رده على صديقه عبد الله النديم عندما أشار عليه في مراسلة بالإيقاع بمفتي السلطنة أبي الهدى الصيادي بالتدخل لدى السلطان والإيقاع به وكبح جماح شره بهدية ونيشان وكسوة ومال . (28)

فقد كان زاهدا ورعا عفيفا ، غير آبه بمتع الحياة (29) ، ذا أفق فكري واسع ، وعقل تأملي وتجديدي شاسع ، يكره التقليد ، ويجب الاجتهاد والتجديد (30) ، عاش لأمتة ، واهتم لحالها الأسيف ، وسعى طيلة حياته لإنقاذها من تخلفها . ولقد لخص الإمام الشهيد مرتضى مطهري شخصية السيد جمال الدين فقال : ((.. تتميز شخصية السيد جمال الدين بأربع نقاط هي :

- 1 - ثقافته الإسلامية الواسعة والمستنيرة والواعية .
- 2 - ثقافته السياحية الواسعة ومعرفته الشاملة بأغلب أمم الأرض وبجه أخص العرب والمسلمين .
- 3 - وعيه السياسي والرسالي والحضاري بدور الإسلام والمسلمين في العالم . (31)

*** الأفغاني الحكيم الفيلسوف :**

ناقش الدكتور ماجد فخري في كتابه الفلسفي القيم (32) فلسفة جمال الدين التجديدية الإصلاحية الحديثة ، وعدّه بطروحاته الفكرية والفلسفية فيلسوفا عقلانيا إسلاميا حديثا ، ولاسيما طروحاته ضد الإلحاديين والطبيعيين والاشتراكيين الغربيين من دعاة الإلحاد (33) ، ومن دعوته لإحلال العقل مكانته الحقيقية في المنظومة الفكرية الإسلامية .

فيما ذهب كل من أحمد أمين والشيخ مرتضى مطهري ومحمد عبدة وعلي المحافظة وجرجي زيدان ومحمود أبورية ومحمد سلام مذكور وغيرهم على اعتباره معلما ومصلحا وحكيما خبيرا بأمراض وعلل الشرق الإسلامي . (34)

والحق أن الدارس لفكره وطروحاته الفلسفية العقلية ، والصوفية الوجدانية والإشراقية، ولأفكاره وطروحاته الدعوية والإصلاحية واللغوية والأدبية في سائر علوم الدين : من تفسير وحديث وسيرة ومنطق وفقه وأصول .. والمنتبع لسائر نشاطاته الفكرية والدعوية والإصلاحية والسياسية يتبين آفاقته وشساعة شخصيته . (35)

*** مطاعن خصومه :**

لم تسلم أي شخصية من مطاعن الخصوم حتى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والصحابة والتابعون رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وقد اتهم الشيخ محمد عبدة والأمير عبد

القادر الجزائري وعبد العزيز الثعالبي والفضيل الورتيلاني وغيرهم الكثير .. وقد توجه خصوم السيد جمال نحوه بالتهمة التالية :

- 1 - شيعيته التي كان يتخفى منها .
- 2 - صوفيته الفلسفية الغنوصية التي أوصلته لتهمة الإلحاد والحلول .
- 3 - ماسونيته ، بحيث انتمى لمحفل الشرق الماسوني وتأسيسه لمحفل ماسوني ، ولجمعية العروة الوثقى السرية .
- 4 - سلوكاته الشخصية الغربية : (التدخين للسيجارة والشيشة ، عزوبيته ، عدم عنايته بهندامه وزيه الشخصي ، عدم احتفاله بشؤون الناس الحياتية من اتخاذ مسكن واقتناء أثاث وعربة ..) .
- 5 - غموض شخصيته وعلاقاته السياسية المشبوهة مع : (قيصر روسيا ، ساسة فرنسا وإنجلترا ، السلطان العثماني ، شاه إيران ، الخديوي إسماعيل وتوفيق ورياض باشا ..) .
- 6 - اتهامه بالعمالة والجوسسة .

وقد أثار خصومه المعاصرين له هذه المطاعن في شخصيته ، كما فعل معه المسيحي سليم بك العنحوري متهما إياه بالإلحاد ، نظير تجلياته الصوفية الإشراقية والبرهانية ، والحملة التي وجهها ضده الفقيه المالكي التلمساني (محمد عليش ت 1882م) الذي اتهمه بالغنوصية والصوفية (36) . وذلك بعد المحاضرة التي قدمها في الآستانة سنة 1870م عن الصناعات واعتبار النبوة صناعة فريدة ..

ولازالت تثور تثور ضده بعض المطاعن إلى يوم الناس هذا ، فقد شن عليه في تسعينيات القرن الماضي كل من الكاتب المسيحي لويس عوض والكاتب في الأهرام القاهرية الصحفي أحمد بهجت حملات تشويه تحط من قدره ومن تأثيراته الحضارية في الشرق (37) ، كم شنت ضده حملات أخرى في الصحف المسيحية المصرية كصحيفة التضامن المسيحية العلمانية وغيرها .

والحق أن رد الشيخ محمود عبد الحلیم ، ورد شيخنا العلامة محمد الغزالي عليها أسكت وأفحم حجج الخصوم ، ولعل أطرف رد على تلك المطاعن ما كتبه شيخنا المرحوم محمد الغزالي في كتابه القيم (علل وأدوية) في معرض رده على المفترين حين خصص فصلا كاملا لردع الوالغين في أعراض علماء الأمة بدءا من إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه وصولا إلى الشيخين جمال الدين ومحمد عبدة رحمهما الله ، اللذين كان لهما الفضل في إنقاذ الشرق وإيقاظه من سباته ، فهو يمضي - حسب تعبير شيخنا - في ثقة وتفاؤل يوقظ العالم النائم على قرون

التخلف والجمود ، دافعا كل التهم المرصودة إليه ، بدءا من شيعيته وانتهاءا بـمأسونيته . (38)
فيما ذهب الشيخ محمود عبد الحليم وهو من كبار قادة جماعة الإخوان المسلمين ومن مؤسسي
الجماعة مع الشيخ المرحوم حسن البنا إلى اعتبار جماعة الإخوان المسلمين سليمة لمنهج الشيخ
جمال الدين . (39)

* جوانب من فكره :

ذهب الشيخ جمال الدين إلى اعتبار الإسلام أساس وقاعدة كل يقظة ونهضة وإصلاح.
وأنه لا سبيل إلى النهضة والإصلاح من دون الإسلام كمنطلق ومرجعية لنهضة الشعوب
الإسلامية ، مطالباً أن يتجاوز علماءه العقبات التالية :

1 - التعصب الفروقي والفروعي المذهبي الضيق .

2 - التوفيق بين العلم والدين ، وبين الدين والعقل ، إذ لا تعارض بين صريح المنقول وصريح
المعقول : ((.. فالدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ، فإن كان ظاهره المخالفة، وجب
تأويله . فحقائق العلم لا بد أن تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب أن يُجل عن مخالفته للعلم
الحقيقي وخصوصا الكليات ، مع الدعوة إلى تأويل الدين وتفسيره بما يطابق ضرورات العصر
الحديث وروح المدنية الحديثة ..)) . (40)

3 - الدعوة إلى الاجتهاد ، ونبذ التقليد والجمود الأعمى لكل ما ورد عن الأقدمين ، أو محاول
التمسك الحرفي بما قاله المفسرون القدامى ، دون تصحيح وإعمال نظر أو تصحيف ، مع رفضه
للضعيف من الأقوال والآثار والأخبار مهما كان سندها صحيحا وقويا .

وفي معرض دعوته التجديدية الاجتهادية أنه اعترض مرة في مجلس على القاضي عياض في
قول ساقه أحدهم ، واشتد في التمسك به ، فقال السيد جمال الدين معلقا : ((.. يا سبحان الله :
إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناولوه فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا
يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب إلى الحق وأوجه ، وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من
الأئمة . وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس ، هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من
تقدمهم . فقد أطلقوا لعقولهم سراحها ، فاستتبطوا وقالوا ، وأدلو دلوهم في الدلاء في ذلك البحر
المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم ، وتقارب مع عقول جيلهم، وتتبدل الأحكام بتبدل
الأزمان ..)) . (41)

ولما قيل له : إن الذي ذهبت إليه أنفا في حق القاضي عياض وجيله يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب

الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه . تنفس الصعداء وقال : ((.. ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أي إمام قال : لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ؟ أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث ؟ أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منها ؟ والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه، ولا ينافي جوهر النص. إن الله بعث محمدا رسولا بلسان قومه العربي ليفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم: [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه] (يوسف : 2) وقال : [إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلمك تعقلون] (الزخرف : 3) ، فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم ، ولكي يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه ، وفهم أحكامه والمراد منها . فمن كان عالما باللسان العربي وعاقلا غير مجنون ، وعارفا بسيرة السلف وما كان من طرق الإجماع ، وما كان من الأحكام مطبقا على النص مباشرة ، أو على وجه القياس ، وصحيح الحديث جاز له النظر في أحكام القرآن وتمعننها ، والتدقيق فيها ، واستنباط الأحكام منها ، ومن صحيح الحديث والقياس . ولا أرتاب في أنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وعاشوا اليوم لداوموا في الدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث والقياس ، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهما وتدقيقا .

نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا جزاهم الله عن الأمة خيرا ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم . والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم والحديث الصحيح من السنن والتوضيح إلا كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ..)) . (42)

* اجتهاده في الاشتقاق والاستعمار اللغوي :

وقد عرف السيد جمال الدين باجتهاده في ميدان اللغة ، وتجويزه استعمال الدخيل على اللغة العربية من اللفظ الأعجمي ، فقال: ((.. إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم إلا أن تلبسوها كوفية وعقالا فتصبح عربية .. فهذا رجل من نسل البقروت - فعابوا عليه استعمال ما لا يجوز في لغة العرب - فأجابهم فقال : ألا تقولون : جبروت ورهبوت وملكوت .. فهذه سياسة بقرونية في مملكة فرعونية .. هكذا يصح عندي بقروت ..)) . (43)

* ضرر المقلدين :

وفي معرض الحديث عن ضرر الجامدين المقلدين ، قال : ((.. علمتنا التجارب ، ونطقنا مواضي الحوادث بأن المقلدين في كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها ، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤما على أبناء ملتهم يذلونهم ويحتقرون أمرهم ، ويستهيئون بجميع أعمالهم وإن حلت . وإن بقي في بعض رجال الأمة شيء من الشمم ، أو نزوع إلى معالي الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتى يمحي أثر الشهامة ، وتخدم حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرياب الغارات ، يمهدون لهم السبل ويفتحون لهم الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنوه سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم ..)) . (44)

4 - ضرورة الدين في بناء المجتمعات :

أكد الشيخ جمال الدين على ضرورة الدين في بناء المجتمعات ، وأهميته في النهضات والمشاريع التقدمية للأمم عامة وللأمة الإسلامية خاصة ، ولا غنى للشرق عنه ، فيقول: ((.. إن الدين على العموم أكسب عقول البشر ثلاث عقائد وأودع في نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية :

1 - العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضي ، وأنه أشرف المخلوقات .

2 - العقيدة الثانية : يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

3 - العقيدة الثالثة : أن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من العالم الدنيوي .

وأما الخصال الثلاث فهي : الحياء والأمانة والصدق . هذه الأسس التي أتت بها الأديان هي علة العمران ، وعليها تتوقف سعادة الإنسان ، وأن الماديين تؤدي تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس فتنزل الإنسان منزلة الحيوان ، وتفقد الوازع على الخير ، وتعدده لحياة ضيقة جافة لا قلب لها ولا سمو فيها ..)) . (45)

5 - امتياز الإسلام عن سائر الأديان :

امتاز الإسلام عن سائر الأديان بالميزات والخصائص التالية :

1 - صقل العقل الإنساني بصقال التوحيد ، وتطهيرها من لوثات الأوهام .

2 - أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأُنفس كلها ، وأثبت لكل نفس الحق في الكرامة ، وألغى امتياز الأجناس ، وتمايز الألقاب والطبقات ، وقّم الناس بالكمال العقلي والنفسي والروحي ، فالناس يتفاضلون بالعقل والفضيلة .

3 - تفرد الإسلام بالتشدد على المعتقدين بلا دليل . والمتتبعين للشك والظنون ، فهو كلما خاطب يخاطب العقل ، وكلما احتكم احتكم للعقل .

4 - تفرد نصوصه بكون السعادة من نتاج العقل والبصيرة ، وأن الشفاء والضلالة من لواحق ولوازم إبعاد العقل وإطفاء نور البصيرة .

5 - قدسية العلم والتعلم والتعليم في الإسلام ، الذي أوجب تعليم سائر الأمة ، وتثوير عقولها بالعلم والمعرفة .

6 - تفرد الإسلام بالحفاظ على الرقيب الاجتماعي والساسي الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر

7 - ألغى هالة الإجلال والقداسة التي كانت تمنح لرجال الدين والعبادة . (46)

6 - بيان الواجبات الملقاة على الشرقيين بغية النهوض من السقوط الحضاري الذي وقعوا فيه، ومحاولة ترسم طريق اليقظة والنهضة والريادة الحضارية ، التي كانوا عليها من قبل ، والاستفادة من ينابيع النهضة والتقدم الإسلامي للسلف الصالح .

7 - بعث روح التفاؤل والأمل والتطلع في نفوس الشرقيين للطموح إلى الريادة والنجاح ، وإزالة ما حل بهم من روح اليأس والقنوط والتراجع .

8 - حث المسلمين على التمسك بالأصول والمبادئ والقيم والمثل التي تمسك بها الجيل الأول من المسلمين ، لأنها أساس كل نهضة وتقدم ، وهو ما فعلته الأمم المتقدمة اليوم في نهضتها عندما رجعت إلى أصولها ومبادئها الرومانية واليونانية المسيحية .

9 - تقوية الصلات والعلاقات بين سائر الأمم الإسلامية بغية تكوين جسد إسلامي واحد ، قادر على رد تحديات القوى الصليبية والمعادية ، وقادر على حماية وصيانة الوجود الإسلامي . (47)

10- محاربة أسباب وعوامل الضعف والتخلف في الأمة الإسلامية التي نشأت من هذه العوامل التالية :

1 - عقيدة الجبر ، والخطأ الفادح في فهم عقيدة القضاء والقدر ، حيث يقول : ((.. من ذلك عقدة القضاء والقدر التي تُعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقّة ، كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج ، وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلاّ وسلبتهم الهمة

والقوة ن وحكمت فيهم الضعف والضعفة ، ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطوارا ، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا : [إن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر أمم ، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق ، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم ، وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلية ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ، ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ..] ، هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار ، وزعموا أن لا منشأ له إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وتحويل جميع مهاتهم على القدرة الإلهية ، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن يناولا عزا ، ولن يعيدوا مجدا ، ولا يأخذون بحق ولا يدفعون تعديا ، ولا ينهضون بتقوية السلطان .. ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم حتى يؤدي بهم إلى الفناء والزوال - والعياذ بالله - يفني بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجنب. واعتقد الأجنب أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية ، القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله ، توهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء والقدر يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تشاء . ومتى رسخ في نفوسهم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة .. ولست أخشى أن أقول كذب الطان ، وأخطأ الواهم ، وأبطل الزاعم ، وافتروا على الله وعلى المسلمين كذبا ، ألا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وزيدي وإسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا في أعمالهم ، يسمى الكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عندهم جميعا ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية ن والنواهي الربانية الداعية إلى كل خير ، الهادية إلى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى الجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بفقفة البرد عند شدته ، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسة الفاسدة ، وقد انقرضت هذه الطائفة وانقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع الهجري ، ولم يبق لهم اثر .

وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون . الاعتقاد بالقضاء والقدر يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد إليه الفطرة .. الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر ، يتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة وبيعت على اقتحام الممالك التي ترجف لها قلوب الأسود ..

هذا الاعتقاد يطبع النفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال..الذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه ؟ وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه. وقد امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق [الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم] .سورة آل عمران :الآية 174

هذا الاعتقاد هو الذي سهّل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض ن وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة .. ((.(48)

2 - ما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فجعلوا المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وأضعفوا الدين بما أدخلوا إليه من تعاليم فاسدة .

3 - ما عمله كذبة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها السم القاتل لروح العمل والإباء ، وفيها ما يستوجب ضعفاً في الهمم ، وفتورا في العزائم .

4 - ضعف التربية ، والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ، ونشر العلم بينهم .

5 - تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط بين العلماء بعضهم ببعض ، ولا بين العلماء والأمراء .

6 - استهانة الأمة الإسلامية بفرضية الجهاد والقيود عن الإعداد له .

7 - مقاومة روح الإلحاد والكفر المادية المنتشرة في العالم عامة ، وبين المسلمين أيضاً ، والذين وجب فيهم أن لا تنتشر بينهم روح الإلحاد والكفر والفسوق والعصيان . (49)

8 - نبذ التعصب الديني والمذهبي ، وفيه يقول : ((.. قد يطرأ على التعصب الديني التغالي والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي ، فيفضي إلى ظلم وجور ، بل ربما يؤدي إلى قيام أه دين لإبادة مخالفيهم ، ومحو وجودهم ، كما قامت الأمم الغربية فاندفعت على بلاد المشرق

لمحض الفتح والإبادة ، لا للتفتح ولا للدعوة إلى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الإسبانيوليون بمسلمي الأندلس ، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ..)) . (50)

وفي معرض نقده للتعصب المذهبي قال: ((..أما أهل الدين الإسلامي فمنهم طوائف شطت في بعضها في الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم في دينهم ..)) . (51)

*** مفهومه للجنسية وللديانة الإسلامية :**

يحدد الشيخ جمال الدين موقفه من الجنسية الإسلامية فيقول: ((.. لم تكن أصول الدين الإسلامي قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق .. جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئيتها ، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود ، وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولا يناله بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيلة ، أو قوة بدنية ، أو ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة ، فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس وجنس .. وكل فخار تكسبه الأنساب ، وكل فخار تقيده الأحساب ، لم يجعل الشارع له أثراً في وقاية الحقوق ، وحماية الأرواح والأموال والأولاد ، قال **صلى الله عليه وسلم** : [ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية ..] ، والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى ، قال تعالى : [**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**] ، ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيلته ، ولا ورث المال عن آبائه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه ، وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه ..)) . (52)

*** فهمه للقرآن الكريم :**

أقام السيد جمال الدين منهجه وخطه الإصلاحية على نفس الأسس التي أقام عليها المصلحون من قبله ، وهو فهم خلاصة مقاصد القرآن ، والقرآن عنده هو مصدر النهضة والقوة للأمة ، فيقول : ((.. وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وإمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنفعة من كل سبيل ..

إن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقتته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه وحكموه في أحوالكم وطباعكم ، وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة ، فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زمنا قليلا ووعظوا الكافة لتبينت معاني القرآن الكريم وحيث في نفوس المؤمنين .. إن حركتنا الدينية بالدعوة إلى القرآن كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها ، مثل نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل . ومثل فهم بعضهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه ، مما يثبط همهم عن السعي وراء الإصلاح والنجاح ، مما لا عهد للسلف الصالح به.

فلا بد إذن من بعث القرآن ، وبعث تعاليمه الصحيحة بين جمهور الناس ، وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وآخرة .. والقرآن وحده هو سبب الهداية ، والعمدة في الدعاية ، وما تراكم عليه وما تجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم ، فينبغي ألا نعول عليه ، وإنما نستأنس به كرأي ، ولا نحمله على أكتافنا وأكفنا مع القرآن في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه ..)) . (53)

خلاصة :

وتبقى طروحات وصرخات السيد جمال الدين تفعل فعلها في الجسد والعقل الإسلامي الممزق ، فهو الرجل الذي ناهض الحكام ، وجادل الخاصة ، وأيقظ العامة ، وفتح أذهان الطلاب والمتقنين ورجال الإعلام والصحافة والأدباء والكتاب ، فهو بحق مصلح سياسي وديني واجتماعي . وهو بحق فيلسوف ومفكر ، ويبقى السيد جمال الدين الذي قال للصدر الأعظم في بلاط الخلافة عندما نصحه ألا يعبث بحبات مسبحة ثانية في حضرة السلطان : ((.. ألا يكفي أن يعبث السلطان بمصير الملايين من الناس ، فأين أنا منه عندما ألعب بحبات مسبحتي)) ، فأسرها الصدر الأعظم ، وتلفت من حوله لعل سامعا يوصلها إلى السلطان .

مسرد الإحالات

- (1) لوثرروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، تذييل الشيخ شكيب أرسلان ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1960م ، ج 1 ، ص 259 .
- (2) لييب عبد الساتر ، التاريخ المعاصر ، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1986م ، ص 7 .. ومحمود كامل المحامي ، الدولة العربية الكبرى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، دون تاريخ ، ص 244 . ومحمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، 1979م ، ج 8 ، ص 84 . وشكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دون طبعة وتاريخ ، ص 75
- (3) حسيب حسن السامرائي ، رشيد رضا المفسر ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة الأزهر ، كلية أصول الدين ، إشراف الدكتور عبد الغني عبد الخالق ، 1971م ، ص 99 . ومحمد عبدة ، جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين ، دار الشهاب، الجزائر ، دون طبعة وتاريخ ، ص 16 و 17 . وجرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، دار الهلال ، القاهرة ، دون طبعة وتاريخ ، ص 71 . ومحمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، دار الكتب ، الجزائر ، دون طبعة وتاريخ ، ص 24 ..
- (4) منهم من ينطقها أسعد آباد ومنهم من ينطقها أسد آباد .
- (5) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1971م ، ص 113 .
- (6) جرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 71 و 72 . ومحمد عبدة ، جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، ص 17 و 18 . ومحمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، ص 25 .
- (7) جرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 73 .
- (8) جرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 74 .
- (9) محمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، ص 20 . وجرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 74 و 75 .
- (10) محمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، ص 24 . وجرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 75 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 69 .
- (11) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 70 و 71 .
- (12) محمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، ص 25 و 26 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 73 .
- (13) محمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، ص 26 .
- (14) محمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، ص 27 .
- (15) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 88 .
- (16) جرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 77 و 78 .
- (17) جرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 78 .
- (18) انظر العروة الوثقى ، مقدمة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1403هـ 1983م ، ص 27 .
- (19) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 105 .. 109 .
- (20) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 114 و 115 .
- (21) تشالرز آدمز ، الإسلام والتجديد في مصر ، ترجمة عباس محمود العقاد ، نقلا عن محمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، ص 64 و 65 .
- (22) تشالرز آدمز ، المصدر السابق ، ص 45 و 46 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 102 .
- (23) محمود أبورية ، جمال الدين الأفغاني ، ص 45 و 46 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 102 .
- (24) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 108 .
- (25) جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة ، مجلة العروة الوثقى ، مقدمة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1403هـ 1984م ، ص 122 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 99 .

- (26) محمد طهاري ، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين ومحمد عبدة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، 1988م ، ص 121 . ومحمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، ص 42 .
- (27) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 74 .
- (28) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 70 و 126 .
- (29) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 71 و 125 . ومرتضى مطهري ، الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري ، ص 120 . ومحمد طهاري ، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين ومحمد عبدة ، ص 99 . وجرجي زيدان ، بناء النهضة ، ص 79 . ومحمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، ص 29 .
- (30) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص 83 . ومحمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، ص 120 . وعلي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1980م ، ص 73 .. 75 .
- (31) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 79 . ومحمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، ص 53 . وجرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 76 . و عبد الكريم سليمان ، الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري ، مرتضى مطهري ، مجلة التوحيد ، عدد 54 ، السنة 9 ، محرم وصفر 1402هـ آب وأيلول 1991م ، ص 117 ..
- (32) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 75 . وماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1974م ، ص 460 .. 465 .
- (33) علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1980م ، ص 74 .. وأحمد جاد عبد الرزاق ، فلسفة المشروع الحضاري ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، واشنطن ، الطبعة الأولى ، 1414هـ 1995م ، ج 1 ، ص 294 .. وماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 460 .. 465 .
- (34) راجع مصادر ومراجع البحث .
- (35) انظر مجلة العروة الوثقى ، وأحمد أمين ، ص 88 و 89 . ومحمد عبدة ، ص 34 و 43 ومابعدھا ..
- (36) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 118 و 119 .
- (37) انظر ردود الشيخ محمود عبد الحلیم ، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ، دار الدعوة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1406هـ 1986م ، ص 563 .. 583 .
- (38) محمد الغزالي ، علل وأدوية ، دار الشهاب ، الجزائر ، دون طبعة وتاريخ ، ص 83 .. 106 .
- (39) محمود عبد الحلیم ، الإخوان المسلمون ، ص 563 .. 582 . وعلي شلش ، من أوراق الأفغاني ، مجلة الدوحة ، عدد 103 ، شوال 1404هـ جوان 1984م ، ص 70 . وعدد 104 ، ذو القعدة 1404هـ أوت 1984م ، ص 68 .. وعدد 105 ، ذو الحجة 1404هـ سبتمبر 1984م ، ص 68 .
- (40) أنور الجندي ، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1971م ، ص 97 و 98 .
- (41) محمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، ص 122 .
- (42) محمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، ص 123 و 124 .
- (43) محمود أبو رية ، ص 124 .
- (44) محمود أبو رية ، ص 124 .
- (45) أنور الجندي ، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار ، ص 98 و 99 .
- (46) أنور الجندي ، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار ، ص 99 و 100 .
- (47) أنور الجندي ، يقظة الفكر العربي ، ص 100 و 101 .
- (48) جمال الدين الأفغاني ، رسالة في القضاء والقدر ، المطبعة المحمودية ، القاهرة ، دون طبعة وتاريخ ، ص 6 .. 12 ، بتصرف .
- (50) محمود أبو رية ، ص 92 .
- (51) محمود أبو رية ، ص 92 .
- (52) أبو رية ، ص 94 و 95 .
- (53) أنور الجندي ، يقظة الفكر العربي ، ص 104 و 105 .

ثانيا : الداعية المجدد الشيخ محمد عبدة

[1266-1323هـ / 1849-1905م]

تمهيد :

إنه ليس من باب المصادفات العلمية أن تعكف الأقسام العلمية والأكاديمية منذ أمد علمي متميز على دراسة وتحليل وتفكيك وتركيب منهج وشخصية الإمام المصلح والداعية المجدد الشيخ محمد عبدة المصري ، الذي يعتبر حلقة وصل بين الدعوة الأفغانية الهادئة الثائرة ، المناهضة للروح الاستبدادية المحلية ، وللروح الاستكبارية الاستعبادية الكامنة في الغرب الصليبي ، وبين دعوة ومنهج الشيخ السيد رشيد رضا ، العلمية والتنقيفية الراشدة ، ودعوة الشيخ حسن البنا الإحيائية البنائية كامتداد للفكر الأفغاني والعبدوي ، الذي انتقل إلينا بواسطة الشيخ السيد رشيد رضا ومدرسة المنار .

كما أنه ليس من باب المصادفات أن تصل الدراسات العلمية والأكاديمية والفكرية وغيرها إلى ما يقارب الألف دراسة وبحث ومقال وأطروحة جامعية بشتى اللغات العالمية ، ومن مختلف الجنسيات والقوميات ، التي اهتمت بنهضة الشرق الإسلامي ، بعد أن أطلق صيحتها الأولى حكيم الشرق الشيخ جمال الدين الأفغاني ، لدراسة مواطن القوة والضعف فيه على اختلاف وأهداف ونوايا الدارسين . (1)

كما أنه ليس من باب المصادفات العلمية والفكرية أن تعكف الأقسام على دراسة تجربة الإمام الشيخ محمد عبدة كحلقة ثانية واصلة للفكر الإصلاحى الأفغاني ، بما سيلحقه من التجارب والمشاريع النهضوية والإصلاحية ، لولا نجاعة ونجاح تلك التجارب نظريا وعمليا وواقعا . مقدمة بنتائج القيمة والعميقة تلك قراءة نقدية تحليلية لقيمة وأهمية ومكانة تلك المشاريع الإصلاحية .

ولعله من بين أهم الملاحظات على هذه الشخصيات كثرة الدارسين والدراسات حولها ، واتفاق معظم نتائج تلك الدراسات حولها ، مبدية ريادة الثلاثي الإصلاحى (جمال الدين الأفغاني ، محمد عبدة ، رشيد رضا) وأثرهم في نهضة الشرق الإسلامى ودفعهم له نحو النهضة والتقدم ، على إيقاع المواءمة بين مورثات الأصالة ، وثوابتها المرجعية المقدسة ، وبين متغيرات العصر ومنجزاته الحديثة ، لتكون مدرسة معتدلة وسطا بين تيارين مختلفين متطرفين متناقضين ، ووسطا بين مناهج الباطل ، ووسطا في المواءمة بين الأصالة والمعاصرة ،

ووسطا لوسطية الفهومات والقراءات والطروحات السوية ، البعيدة عن القراءات الظاهرية الشكلية ، المعطلة للسير نحو العصرية والتقدم . ووسطا بين تيار التحلل ، وتيار التحرر ، وتيار التزم . وهي تجربة حضارية بدأت مع الثورة ، وتأرجحت بعدها نحو التريبة ، ثم عادت من جديد للثورة ، ثم عادت للإصلاح التربوي والاجتماعي الشامل ، وتلخصت مسيرتها التاريخية في [الإصلاح] ، ثم [الثورة] ، ثم العودة إلى [الإصلاح] .

إنها تجربة حية لإصلاح العقل المسلم من إفسار وقيود التقليد والضعف . وهي تجربة ثرية في إصلاح الفكر المسلم من قيود الجمود والتقليد والذوبان في ظواهر النصوص . تجربة ناجعة في إصلاح الواقع التربوي والتعليمي والواقعي ، وذلك بإصلاح أكبر وأعلى المؤسسات التربوية والجامعية العريقة (الأزهر) . وهي تجربة إصلاح واقعي واجتماعي ، بالتوجه لإصلاح مؤسساته (القضاء والأوقاف) . كما هي تجربة نموذجية لإصلاح اللغة وأساليبها في الكتابة والتراسل والتخاطب ، واستبدالها بأساليب تتناسب العصر . تجربة إصلاحية متميزة في : المنطلق ، والممارسة ، والأسلوب ، والوسيلة ، والغاية .

تجربة إصلاحية محلية وإقليمية وعالمية ، تهدف لإصلاح حال مصر ، والعالم العربي ، والعالم الإسلامي ، والبشرية قاطبة ، المتمدنة ماديا ، والتائه روحيا . تجربة إعادة الإسلام ليحكم الحياة ويوجه مسيرة البشرية ، بدءا بتحريرها من كل أشكال العبودية ، ووصولاً إلى سيادة وقيادة نفسها ، وخضوعها لخالقها وحده . إنها تجربة قيمة ، لأنها خطت الخطوة العملية الأولى في مسيرة النهضة والإصلاح والتقدم في العصر الحديث ، بعد أن تركت آثارها التغييرية العميقة في مسيرة ومنهج التجارب الإصلاحية العملية في العالم العربي والإسلامي . وصارت مصدر إلهام وتأسيس ونظر لكل الحركات والمشاريع النهضوية والتطلعية القادمة .

تجربة لا غنى عنها ، لاستقاء قيمة المعرفة الإصلاحية ، وتدبر خطوطها النهضوية ، بالدراسة والتحليل والقراءة والاستلهاًم والافتقاء . تجربة حقيقية لاستسبار مواطن النجاح والفاعلية فيها ، ولمعرفة مواطن الخلل والغفلة فيها بين مجموع تجارب مشاريع النهضة والتغيير في العالمين العربي والإسلامي في العصر الحديث . إنها تجربة خاصة ، لها قراءتها وتصوراتها وتحليلاتها وفهوماتها وتعاملاتها الفكرية والنظرية حيال الأطر المرجعية المقدسة ، وحيال التراكم التراثي الموروث بغته وسمينه . وهي تجربة خاصة في منهج وأدوات وزاوية تعاملها مع المقدس والتراثي ، ودورهما في النهضة الحضارية القادمة .

وهي تجربة لها ممارساتها وتطبيقاتها الواقعية ، شغلت وأطرت العقل المسلم لفترة طويلة من الزمن الدعوي والإصلاحي الفاعل ، وتعرضت لسيول من التحديات والمعوقات الداخلية والخارجية ، أكثر مما تعرضت له أي حركة إصلاحية أخرى .

إنها تجربة ارتبطت بالإصلاح الديني والروحي ، والإصلاح الاجتماعي ، والإصلاح السياسي ، والإصلاح الفكري ، والمعرفي والمنهجي والعلمي العميق . وهي تجربة ارتبطت بأكبر أعلام الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث . إنه الشيخ محمد عبدة المصري .

معالم ومحطات في حياة الشيخ محمد عبدة

هذه البطاقة الفنية عن حياة الإمام محمد عبدة التي تقدمها في هذه الدراسة هي ثمرة جهد وعمل لرواد ودارسي الشيخ محمد عبدة ، بدءاً من تلميذه الشيخ رشيد رضا، وانتهاءً بأخر الدراسات والأبحاث المقدمة عنه . وعلى ضوءها يمكن تقديم ومضات عابرة من محطات حياة الشيخ محمد عبدة كالتالي :

1 - مرحلة النشأة والطفولة والصبى .

2 - مرحلة الشباب والحياة العلمية بالأزهر .

3 - قيادة وأبوة السيد جمال الدين الأفغاني .

4 - مرحلة الإصلاح الأولى قبيل الثورة العراقية .

5 - مرحلة المنفى والغربة .

6 - مرحلة العودة من المنفى وحركة الإصلاح الثانية . (3)

وسنبرق من خلال هذه المحطات بومضات عابرة على حياة الشيخ محمد عبدة بما يعود بالعمق على مسيرته الإصلاحية .

1 - مرحلة النشأة والطفولة:

ولد (محمد عبدة حسن خير الله) في قرية (محلة نصر) بمركز (شبراخيت) من أعمال مديرية (محافظة البحيرة) سنة 1266هـ 1849م ، في أسرة تعتز بكثرة رجالها ومقاومتهم لظلم الحكام ، وتحملهم في سبيل ذلك العديد من التضحيات : (الهجرة ، السجن ، التشريد ، النفي ، مصادرة الثروة ، القتل) ، وهو يحكي عن ملحمة رجالهم فيقول : ((.. إنه سعى واش بأهلي عند الحكام بحجة أنهم ممن يحملون السلاح ، ويقفون في وجوه الحكام وأعاونهم عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا جميعاً ، وزجوا في السجون واحداً بعد واحد ، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتاً . وكان جدي حسن شيخاً بالبلدة ، وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه ..)) . (4)

علمته تلك النشأة الاعتزاز بالمجد والأصالة ، والربط بين هذه الأصالة وبين الغنى والاعتزاز والثورة ، وقد لمس الأفغاني فيه هذا الخلق السامي فقال له : (قل لي بالله : أي أبناء الملوك أنت ؟) . وقال عنه الخديوي عباس : (إنه يدخل علي وكأنه فرعون) . (5)

ففي أسرة ذات جاه وعراقة وماض جهادي عريض ، وسعة في الغنى والسيادة ، ومكانة في البلدة نشأ الإمام محمد عبدة . ولمثل هذا الأصل والمحتد دوره ومكانته في صناعة شخصية الإمام .

2 - مرحلة الشباب والحياة العلمية بالأزهر :

تلقى الشيخ محمد عبدة تعليمه الأولي في قرينته (محلة نصر) في السابعة من عمره 1856م - 1273هـ ، فبدأ بحفظ القرآن الكريم، وتعلم فيها قواعد اللغة العربية وفن القراءة والكتابة ، ثم ذهب إلى الجامع الأحمدى بطنطا ليحضر دروس تجويد القرآن سنة 1862م - 1279هـ . (6)

وبعد أن حفظ القرآن الكريم وأحكام التجويد والتلاوة في الجامع الأحمدى بطنطا سنة 1864م - 1281هـ ، بدأ يتلقى دروسه العلمية على الطريقة الأزهرية التقليدية العقيمة ، التي كادت تصده عن متابعة دراسته ، فقرر

هجرانها بعد عام من شروعه فيها ، وعاد إلى القرية سنة 1865م-1282هـ ، فزوجه والده وسنه لم يتجاوز السادسة عشرة ، وعزم - يومها - على العمل بالزراعة مع أبيه وإخوته ، والانقطاع عن متابعة الدراسة بتلك الطريقة العقيمة ، ولكن والده رفض ذلك ، وقرر إعادته إلى الجامع الأحمدى بطنطا في العام نفسه . (7)

وفي الفترة التي انقطع فيها عن الدراسة التقى بالشيخ (درويش خضر) خال أبيه وكان صوفيا من أتباع الطريقة السنوسية المسيطرة على أواسط إفريقيا ، فغير تصوراته ، وحول مجرى حياته ، بما ألقى إليه من فصوص الحكمة الصوفية، وحببه إلى سلوك الصوفية، فعادت إليه الرغبة في طلب العلم، فعاد إلى الجامع الأحمدى سنة 1865م-1282هـ ، وبدأ يفكر في الذهاب إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر الشريف ، وتحت تأثير الحكم الصوفية التي زوده بها خال أبيه بدا له في يوم من الأيام وهو عازم على السفر أن رأى صوفيا متجولا فرغبه بحكمته الرمزية السفر والمغامرة إلى القاهرة ، وعن هذا المشهد الصوفي الرمزي قال الشيخ : ((.. في يوم من شهر رجب من تلك السنة - 1282هـ - كنت أطالع بين الطلبة ، وأقرر لهم في شرح الزرقاني ، فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب ، فلما رفعت رأسي إليه قال ما معناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء .. فقلت له : وأين الحلوى التي معك ؟ فقال : سبحان الله . من جد وجد .. ثم انصرف ، فعددت هذا القول إلهاما ساقه الله إلي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا ..)) . (8)

وفي منتصف شوال من سنة 1282هـ 1866م التحق الشيخ محمد عبدة بالأزهر ، وبقي فيه اثني عشرة عاما ، إلى أن تخرج منه يحمل شهادة العالمية سنة 1294هـ 1878م. والأزهر إذاك مجسد لأدبيات ومناهج التعليم التقليدية ، القائمة على دراسة وحفظ المتون والشروح ، والحواشي على الشروح وشرح الشروح ، والحواشي التي على الشروح والمتون، والتعليق عليها . فضلا عن وضعه الإداري والتربوي والتنظيمي والاجتماعي والواقعي المزري ، وانقسامه بين حزينين متصارعين من الأساتذة والشيخ ، وهما : حزب الشيخ التقليديين المحافظين السلفيين والمذهبيين ، وحزب الشيخ الصوفيين الأقل تقليدا ومحافظا . (9)

وقد حضر الشيخ محمد عبدة دروس كلا الحزينين ، فسمع من شيوخ الحزب الشرعي المحافظ ، أمثال الشيخ : (عيش ، والرفاعي ، والجيزاوي ، والطرابلسي ، والبحراوي ..) ، ولكنه أحب وانتمى إلى الحزب الصوفي ، الذي كان رائده الشيخ (حسن رضوان ت 1310هـ 1892م) صاحب المؤلفات الشهيرة في عصره ، ولاسيما منظومته الشهيرة (روض القلوب المستطاب) . وكان من أعلام هذا الحزب الشيخ (حسن الطويل) ، الذي حاز على اهتمامه قبل مجيء الشيخ جمال الدين الأفغاني . (10)

والحق أن الشيخ محمد عبدة مال إلى حزب المتصوفين لا للميولات الصوفية التي غرسها فيه خال أبيه الشيخ خضر فحسب ، بل لميولاته التحريرية الثائرة ، والناقمة على جمود وتقليد المدرسة التقليدية ، أولئك الذين كرسوا التخلف في مصر وفي العالم الإسلامي ، وأعاقوا سير الأزهر نحو الرقي لمستوى الجامعات العالمية . فوجد عند الصوفيين الحرية ، وروح التمرد والتحرر من إفسار القيود ، وضيق النصوص والأقوال وضوابط المذاهب ، والخلافات التي كانت تثقل علوم ومتعلمي ذلك العصر .

وقد سئم الشيخ محمد عبدة الأزهر ، وكل من فيه ، إدارة ، ونظاما ، وتسييرا ، وبرمجة ، وتدريسا ، وطلابا ،

وأخلاقاً . وظل متمملاً من ذلك الوضع إلى أن زار مصر للمرة الثانية السيد جمال الدين الأفغاني ، وطاب له المقام فيها سنة 1288هـ-1871م ، فاتصل به محمد عبدة ولازمه إلى حين خروجه من مصر منفياً سنة 1296هـ-1879م ، ومنذ شهر محرم الحرام من عام 1288هـ-1871م لازم الشيخ جمال الدين الأفغاني ، وودع حلقات الأزهر العقيمة بأرجوزة مطلعها :

لو كان هذا وصفهم ما شنعوا *** بل وقتهم في جاء زيد ضيعوا . (11)

لقاؤه بالسيد جمال الدين الأفغاني :

يروى الشيخ محمد عبدة في كتابه (جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين) عن لقائه الأولى بالسيد جمال الدين ، قائلاً: ((.. أخبرني ذات يوم أحد زملائي المجاورين في رواق الشوام بالأزهر أنه جاء مصر عالم أفغاني عظيم ، وهو يقيم في خان الخليلي ، فسرتت بهذا الخبر ، وأخبرت أستاذي الشيخ حسن الطويل ، وكان الشيخ ممتازاً في الأزهر بعلم المنطق ، وحضرته عليه ، ولكنه لم يكن يشفي نفسي ، وكنت أتشوق دائماً إلى العلوم العقلية ، فبحثت في خزائن الكتب الأزهرية عن طلبي فظفرت ببعض الكتب ، وعثرت على كتاب (شرح القطب على الشمسية) ناقصاً ، وقد قرأ لنا الشيخ حسن الطويل شيئاً من الفلسفة ، ولكنه لم يكن يجزم في قراءته وتدرسه بما يقرره من المعنى ، وكثيراً ما كان الدرس احتمالات وتخمين . فلما سمعت بمجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر ، دعوت الشيخ حسن الطويل لزيارته معي ، فذهبنا إليه في المساء ، فألفينا يتعشى ، فسلمنا عليه وسلم علينا ، ودعانا إلى الطعام ، فاعتذرنا وشكرنا ، وبعد تناول الطعام اتجه إلينا ، وسألنا عن معنى بعض آيات من القرآن الكريم ، وما قاله المفسرون والصوفية فيها ، فأثرنا أن نستمع إليه ، فأخذ يفسرها أمامنا تفسيراً ملاً قلبي إعجاباً ، وشغفني به حبا، لأن التصوف والتفسير هما قرة عيني ومفتاح السعادة)) .(12)

ثم يضيف الشيخ محمد عبدة قائلاً : [.. صاحبت السيد من ابتداء شهر المحرم سنة 1288هـ ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية ، وأدعو الناس إلى حضور دروسه ، والتلقي عنه . وقد قرأت عليه كتاب (الزوراء) للدواني في التصوف ، و(شرح القطب على الشمسية) و(المطالع) و(سلم العلوم) من كتب المنطق ، و (الهداية) و (الإشارات) و (حكمة العين) و(حكمة الإشراق) من كتب الفلسفة . وعقائد (الجلال الدواني) في التوحيد ، و (التوضيح مع التلويح) في الأصول ، و (تذكرة الطوسي) في الهيئة القديمة ، وغيره من كتب الهيئة الحديثة . وقد شجعتني على كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية . وحرصت على حضور مجالسه ودروسه ، ولكن مشايخ الأزهر وجمهور طلبته أخذوا يتقولون عليه وعلينا شتى الأقاويل ، ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة ، وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خير الدنيا والآخرة . فكنت إذا رجعت إلى بلدي عرضت ذلك على خال والدي الشيخ درويش فكان يقول لي : ((.. إن الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وأن أعدى أعداء العليم هو الجاهل ، وأعدى أعداء الحكيم هو السفیه ، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة . فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه ، إلا ما يسميه بعض الناس علماً ، وليس في الحقيقة بعلم كعلم السحر والشعوذة ونحوهما ، إذا قصد بتحصيلهما الإضرار بالناس .)) ..] . (13)

ثم يضيف الشيخ محمد عبدة قائلاً: ((.. ولم أهتم بتلك الأقاويل ، وكنت ألزم السيد ملازمة ظله ، وأحضر دروسه وناديه ومسامره ، وكانت مجالس علم وحكمة وأدب ودين وسياسة .. وكان السيد جمال الدين يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد ، وإن لم يكن من أهله ، وكنت أحسده على ذلك ، لأن حالة المجلس تؤثر في نفسي ، فلا تتوجه للكلام إلا إذا رأيت له محلاً قابلاً واستعداداً ظاهراً ، وهكذا الكتابة ..)) . (14)

انتقل به الأفغاني من التصوف والتسك إلى الفلسفة الصوفية العميقة ، وكان الأفغاني يقول له : ((.. الفيلسوف إن لبس الخشن ، وأطال المسبحة ، ولزم المسجد فهو صوفي . وإن جلس في قهوة - متاتيا - وشرب الشيشة فهو فيلسوف ..)) . (15)

كتب مقدمة لـ (رسالة الواردات) الفلسفية التي أملاها الأفغاني سنة 1290هـ/1872م ، وهذه المقدمة هي أول الآثار الفكرية التي حفظت لنا من تراثه ، وهي لم تنتشر إلا بعد وفاته . وأول ما نشر باسمه كان في جريدة الأهرام في عامها الثاني 1293هـ/1876م ، وكان لا يزال يلتزم السجع في أسلوبه ، وسنه يومئذ سبعا وعشرين عاماً . (16)

دخل امتحان العالمية يوم 13/جمادى الأولى/1294هـ الموافق لسنة 1877م ونالها من الدرجة الثانية ، لا لضعف فيه ، بل لتأمر شيوخ الأزهر المترمتين والحاقلين عليه ، وعلى شيخه الأستاذ جمال الدين الأفغاني ، وسنه ثمان وعشرين عاماً ، ولولا إصرار رئيس لجنة الامتحان الشيخ (محمد مهدي العباسي) شيخ الأزهر على نجاحه لرسب ، لأن بعض الأعضاء المترمتين كانوا قد تواصلوا بينهم على إسقاطه لآرائه ، وصحبته للسيد جمال الدين . (17)

3 - قيادة وأبوة السيد جمال الدين الأفغاني :

واصل الشيخ محمد عبدة بعد تخرجه من الأزهر تدريس كتب علم المنطق وعلم الكلام المشوب بالفلسفة في الأزهر ، فيما كان يعيد قبل تخرجه على الطلاب كتباً شرحها له أستاذه ، ولاسيما شروح السيد جمال الدين الأفغاني في بيته ، فقرأ لهم (إيساغوجي) في المنطق ، و (شرح العقائد النسفية) لسعد التفتازاني مع حواشيه و (مقولات السجاعي بحاشية العطار) ، وغيرها .. وعقد في بيته درسا شرح فيه لبعض الطلبة بعض المؤلفات الفكرية الحديثة والقديمة ، مثل : (التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية) للوزير الفرنسي (فرانسوا جيزو) الذي عربه الخواجة نعمت الله الخوري ، وقرظه في الأهرام هو وأستاذه الأفغاني ، وكتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه . (18)

وفي أواخر سنة 1295هـ/1878م عين مدرسا بمدرسة دار العلوم ، فقرأ على طلابها مقدمة ابن خلدون ، وألف لهم كتابا ضاعت أصوله ، وهو في علم الاجتماع وال عمران ، ثم عين مدرسا للعلوم العربية في مدرستي الألسن والإدارة . (19)

واشترك مع أستاذه الأفغاني في التنظيمات السرية التي أنشأها الأفغاني بمصر ، كما انضم مع أستاذه إلى تنظيم (الماسونية العالمية) ، وكانت منظمة عالمية ذات سمعة دولية شهيرة وصيت سياسي حسن ، يدخلها

الأعيان والأكابر ، على اختلاف مكاناتهم ودرجاتهم ومستوياتهم : العلمية والاقتصادية والاجتماعية .. ونشأت لها مثل تلك السمعة الحسنة بالنظر إلى الدور الكبير الذي قامت به في أوروبا في العصور الوسطى ضد استبداد الأباطرة وسلطة الباباوات والكنيسة ، وسعيها الدؤوب في سبيل التحرر والديمقراطية ، وإبعاد نفوذ الكنيسة الرجعي ، وتحرير عقول العلماء من إرهاب رجال الدين المحافظين ولرفعها شعارات الثورة الفرنسية : (الحرية . المساواة . الإخاء) ، ولسرية أسماء قادتها وعدم وضوح هوياتهم ونواياهم وأهدافهم وأطماعهم في الشرق الإسلامي عامة وفلسطين خاصة . (20)

ومع كل النشاط الذي بذله وأستاذه في الانخراط فيها ، فإن أملهما قد خاب فيها لما تحققا من مهادنتها للاستبداد الاستعماري العالمي والاستبداديين المحليين ، ومن علاقتها الوطيدة بالنفوذ الأجنبي المستعمر لبلاد العروبة والإسلام ، ولاسيما الاستعمار البريطاني. (21)

وانضم الإمام محمد عبدة مع أستاذه الأفغاني إلى (الحزب الوطني الحر) ، الذي كان شعاره (مصر للمصريين) ، وقد ضم الحزب الطلائع الوطنية المصرية المستنيرة . (22)

4 - مرحلة الإصلاح الأولى قبيل الثورة العربية:

بعد اشتغاله بالتدريس أنتج الإمام جملة من الأعمال الفكرية والثقافية والعلمية المختلفة، أهمها : مقالاته في جريدة الأهرام ، وصياغة آثار أستاذه الأفغاني ، مثل : (حاشية الأفغاني على شرح الدواني للعقائد النسفية) ، و(فلسفة التربية) و(فلسفة الصناعات) و(رسالة الواردات) .. وغيرها ، وصاغ أيضا الرسالة التي ترجمها (علي باشا مبارك ت 1311 هـ 1893 م) (23) ، ونشرها بالأهرام بعنوان : (المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني) . (24)

وما يتميز به الإمام محمد عبدة من حيث أسلوبه في الكتابة ابتعاده عن السجع والترسل والتنميق عندما يصوغ أفكار غيره ، وسجعه وترسله عندما ينشئ لنفسه .

محنته وأستاذه:

في شهر يوليو من سنة 1296 هـ 1879 م نفي الأفغاني من مصر ، وعزل الإمام من مناصب التدريس في مدرستي دار العلوم والألسن ، وحددت إقامته بقريته (محلة نصر) . وفي سنة 1297 هـ 1880 م استصدر رياض باشا ناظر النظار عفوا من الخديوي توفيق عن الإمام واستدعاه من قريته ، وعينه محررا ثالثا في جريدة (الوقائع المصرية) ، فاستهل فيها الكتابة من يوم 19/ يوليو/ 1880 م ، وفي 09/ أكتوبر/ 1880 م عين رئيسا لتحريرها برتبة محرر أول للصحيفة العربية الرسمية . كما تولى مسؤولية الرقابة على المطبوعات . وفي شهر مارس 1881 م ربيع الثاني 1298 هـ أنشئ (المجلس الأعلى للمعارف) وعين الشيخ عضوا فيه . (25)

وفي هذه الفترة أبعده عن الاشتغال بالتدريس ، وعمل بالصحافة والسياسة ، وصار مقربا من السلطة ، ولذلك فقد برز الخلاف في منهجه ونشاطه عن أستاذه الأفغاني في وسيلة النهضة بالشرق والشرقيين المتخلفين . فهو عندما يدرس ويعلم ويعظ ويحاضر وينظر لا يختلف عن أستاذه الأفغاني إلا في درجة الميل نحو العقل

والفلسفة ، ولكن عندما يعمل بالسياسة العليا والمباشرة يبدو الفرق بينهما واضحا فرق المصلح من الثوري . (26)

عضو فاعل في الثورة العربية :

انضم الإمام محمد عبده مع الحزب الوطني الحر إلى الحركة العربية بعد مظاهرة عابدين يوم 09/09/1881م ، ولاقت مطالب الثورة العربية هوى مع ميولاته وقناعاته الوطنية ، فألقى بكل قواه في تلك الثورة ، ولاسيما بعد المذكرة الثنائية الإنجليزية الفرنسية إلى مصر في شهر جانفي 1882م ، وبعد أن حملت المذكرة الكثير من الأخطار التي تهدد أمن مصر واستقلالها ومستقبلها ، وظل يناضل مع الثوار في موقعه القيادي حتى هزيمة الثورة العربية في شهر سبتمبر 1882م . (27)

وبعد هزيمة الثورة العربية سجن الشيخ محمد عبده ثلاثة أشهر للتحقيق لاقى فيها الأمرين ، ثم حكم عليه بالنفي مدة ثلاث سنوات ، بدأت يوم 24/ديسمبر/1882م ، ولكنها امتدت إلى ما يقارب ست سنوات ، ذاق فيها الإمام طعم المحنة والابتلاء والغربة والنفي . (28)

وقد تميزت فترة ما قبل النفي بغزارة إنتاجه الفكري والصحفي المكتوب عبر تلك المقالات التي كان ينشرها في جريدة الأهرام والقوائع المصرية ، والتي تناولت شتى الموضوعات الفكرية والفلسفية والأدبية والدينية والتاريخية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية .. (29)

5 - مرحلة المنفى والغربة :

ذهب الإمام محمد عبده إلى بيروت منفا بقرار من حاكم مصر الخديوي توفيق يوم 24/ديسمبر/1882م الموافق 13/صفر/1300هـ ، وكان عمره - يومها - أربعة وثلاثون عاما ، فأقام في بيروت نحو عام حتى استدعاه أستاذه الأفغاني للحاق به في باريس في أواخر سنة 1883م . (30)

وفي باريس انطلق مع أستاذه الأفغاني من حجرة صغيرة متواضعة فوق سطح أحد منازلها ، وأخذ يعمل مع أستاذه الأفغاني في إخراج جريدة (العروة الوثقى) لسان حال جمعية (العروة الوثقى) السرية ، التي قام بتنظيمها في بلاد المشرق ومصر والهند ، فصدر منها ثمانية عشر عددا ، كان أول عدد صدر يوم 13/مارس/1884م الموافق 15/جمادى أولى/1301هـ وآخر عدد يصدر منها كان يوم 17/أكتوبر/1884م الموافق 26/ذو الحجة/1301هـ ، وكانت وظيفة الإمام محمد عبده في الجريدة (المحرر الأول) رئيس التحرير . (31)

كما شغل في تنظيم (العروة الوثقى) السري منصب نائب الرئيس ، إذ كان يترأسها الأفغاني ، ومارس العمل التنظيمي السري ، وتنتقل بهذه الصفة في بلاد كثيرة بعضها في أوروبا ، وبعضها الآخر في الشرق ، وكانت كل رحلاته يطبعها الغموض والسرية . (32)

وفي سنة 1884م دخل السودان أثناء اشتداد ثورة المهدي ، وبأشر قيادة عمل الجمعية فيها ، كما كتب في هذه الفترة عددا من الرسائل السرية إلى بعض فروع التنظيم . (33)

وزار لندن داعيا لوجوب جلاء الإنكليز عن مصر ، والتقى بوزير الحربية الإنجليزي ووجوه البرلمان والصحافة

والرأي العام . وبعد توقف العروة الوثقى ويأسه من العمل السياسي المباشر كوسيلة لنهضة الشرق ، غادر باريس إلى تونس في زيارة الأولى ، ومنها إلى بيروت سنة 1885م على أمل العودة إلى مصر ثانية . (34) وفي فترة تواجده ببيروت أسس جمعية سرية للتقريب بين الأديان ، شارك فيها عدد من رجال الدين المستتيرين ، ممن ينتمون للأديان السماوية الثلاثة ، وكان يرى : ((.. أن أصول تلك الأديان والمذاهب حق ، ثم طراً عليها الباطل ، فبعضها ثابت بما فيه من الحق ، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع ، فالنظام حق ، وهو ثابت باق بذاته ، وما في الجمعية أو المذهب من الباطل تابع له باق به ، مع عدم معارضة أهل الحق لما فيه من الباطل .. وأن التقريب بين الأديان مما جاء به الدين الإسلامي : { قل يا أهل الكتاب

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم } (آل عمران : 64) ، وإن القرآن هو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب ، حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم ، لا يختلفون عنهم، إلا في بعض أحكام قليلة ، لكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ..)) . (35)

وفي بيروت مارس العمل الثقافي والتربوي والفكري إلى جانب العمل السياسي ، بحكم الصلات التي ماتزال تربطه بالسيد جمال الدين الأفغاني وتنظيم العروة الوثقى . ومن مقالاته السياسية التي كتبها في بيروت : [رسالة للسيد صوموئيل بيكر في السودان ومصر وانجلترا ، ومراسلات أخرى متنوعة ، ومصر والمحاكم الأهلية] . ومن بيروت أرسل الرسائل لعدد من الساسة والوجهاء ، ومنها أيضا أرسل بعض آراء الأفغاني وتنظيم العروة الوثقى في السياسة الشرقية فنشرت دون توقيع ، ملتزما خط العروة الوثقى المعادي للإنجليز . (36)

وفي بيروت برزت جهوده التربوية وأعماله الثقافية والفكرية ، فكتب : (لائحة إصلاح التعليم العثماني) ، و (لائحة إصلاح القطر السوري) ، وشرع في كتابة (لائحة إصلاح التربية في مصر) ، كما شرع في تحقيق كتب التراث العربي والإسلامي كرائد حقيقي للمحققين العرب في العصر الحديث ، فحقق وشرح (مقامات بديع الزمان الهمذاني) ، و (نهج البلاغة) ، ملتزما بمنهج التحقيق العلمي للنسخ ومقارنتها ببعضها ، فكان بذلك رائدا للمحققين العرب في العصر الحديث ، كما عبر بوضوح في المقال الذي كتبه حول كتاب (فتوح الشام) المنسوب للواقدي عن المنهج العلمي في نقد النصوص ، وتحقيق مدى نسبتها إلى أصحابها ، وهو المنهج الذي استخدمه من بعد الدكتور (طه حسين) في كتابه (في الشعر الجاهلي) . (37)

كما أتم في بيروت كذلك ترجمة (رسالة الرد على الدهريين) للأفغاني من اللغة الفارسية إلى العربية بمساعدة تابعه (عارف أفندي - أبو تراب) ، وصدرها بترجمة هامة لأستاذه الأفغاني . (38)

وفي بيروت اشتغل بالتدريس في (المدرسة السلطانية) سنة 1886م 1303هـ ، وفيها شرح ديوان (نهج البلاغة) و ديوان (الحماسة) و (إشارات ابن سينا) و (كتاب التهذيب) لابن مسكويه ، وشرح (مجلة الأحكام العدلية العثمانية) ، كما ألقى فيها دروس التوحيد ، التي تحولت فيما بعد إلى (رسالة التوحيد) . (39) وفي بيروت بدأ بتفسير القرآن بمنهج عقلي حديث ، لم يسبق إليه أحد في الشرق منذ يقظته ، طبق فيه منهج أستاذه الأفغاني ، وكان ذلك بالمسجد العمري ببيروت ، فكان يعقد درسه بعد ثلاث ليال في الأسبوع ، واجتذب

درسه هذا الحركة الفكرية والثقافية هناك ، حتى أن الكثير من المستنيرين من المسيحيين كانوا يجتمعون على باب المسجد لسماعه ، ولما كثرت الضوضاء في الشارع وحالت دون سماعهم للدرس فطلبوا منه السماح لهم بدخول المسجد لمتابعة حديثه ، فسمح لهم بدخول فناء المسجد ، والوقوف داخله إلى جوار الباب ، واستمرت دروسه في التفسير حوالي سنتين ، ولم يسجل منها شيء علمي يذكر . (40)

وفي بيروت تزوج من زوجته الثانية بعد أن توفيت زوجته الأولى ، وفي بيروت سعى لدى أصدقائه كي يطلبوا له العفو ليعود إلى مصر ، وكان تلميذه (سعد زغلول باشا) يلح على سمو الأميرة (نازلي هانم فاضل) كي تستخدم نفوذها عند (اللورد كرومر) الحاكم الإنجليزي للعفو عنه ، وسعى لذلك أيضا بالقاهرة الشيخ (علي الليثي) والغازي (أحمد مختار باشا) وكيل السلطان بالقاهرة ، وعندما اقتنع (اللورد كرومر) بأن الإمام لن يعمل بعدها بالسياسة ، وأنه سيقصر نشاطه على العمل التربوي والفكري والثقافي ، فاستخدم اللورد كرومر نفوذه لدى الخديوي توفيق فاستصدر عنه عفوا فعاد الإمام إلى مصر سنة 1889م 1306هـ . (41)

6 - مرحلة العودة من المنفى وحركة الإصلاح الثانية :

عندما عاد الإمام إلى مصر اتخذ لنفسه سكنا في شارع الشيخ ربحان بالقرب من قصر عابدين ، ولما زاره صديقه (عبد العزيز أفندي) ، وسأله عن سر اختياره هذا المكان للسكنى، قال له : ((حتى نناطح عابدين مناطحة)) . لأنه كان يدرك أن الود المفقود بينه وبين الخديوي توفيق سيظل مفقودا ، فسلك معه طريق العلاقات المباشرة مع اللورد كرومر ، وقدم إليه مباشرة اللائحة التي كتبها لإصلاح التربية والتعليم بمصر . (42) ولما أراد أن يمارس عمله المحبب ويعود للتدريس وخاصة في دار العلوم ، رفض الخديوي توفيق عودته للتدريس ، حتى لا يتيح له فرصة تربية الأجيال الجديدة على أساس من آرائه وأفكاره وتجاربه الثرية في مجال التربية والتعليم والدعوة ، وعينه الخديوي توفيق سنة 1889م قاضيا بمحكمة (بنها) كي يبعده عن القاهرة وعن التدريس ، فقبل الإمام ذلك على مضض ، ثم انتقل إلى محكمة (الزقازيق) ، ثم إلى محكمة (عابدين) ، ثم ارتقى إلى منصب مستشار أول في محكمة الاستئناف سنة 1891م . (43)

وفي هذه الفترة دارت مراسلات قليلة بينه وبين أستاذه الأفغاني في الآستانة ، بعد أن استقر بها سنة 1892م ، ولكن موقف الإمام من السياسة والإنجليز جلب عليه غضب أستاذه ، ثم انقطعت المراسلات بينهما بعد أن عنفه أستاذه أكثر من مرة على حذره وخوفه ، واتهمه بالجن ، وكتب إليه مرة يقول : ((.. تكتب إلي ولا تمضي ، وتعتقد الألباز ، من أعدائي ، وما الكلاب قلت أو كثرت ؟ كن فيلسوفا يرى الموت ألعوبة ، ولا تكن صبيبا هلوعا)) . (44)

وبلغ أمر القطيعة بينهما إلى حد توقف الإمام عن رثاء أستاذه في الصحف عندما توفي يوم 06/شوال/1315هـ الموافق 09/مارس/1897م ، واكتفى بالحزن عليه ، وقال : ((.. والدي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس ، والسيد جمال الدين الأفغاني أعطاني حياة أشارك بها محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين ، مارثيته بالشعر لأنني لست بشاعر ، وما رثيته بالنثر لأنني لست بناثر ، رثيته بالوجدان والشعور ، لأنني إنسان أشعر وأفكر ..)) . (45)

وبعد موت الخديوي توفيق وتولي الخديوي عباس حلمي الثاني السلطة قامت فترة من الوفاق بين الأستاذ والقصر ، وكان أساسها أن الإمام أقنع الخديوي بأن يعاونه في العمل لإصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية الثلاث : [الأزهر . الأوقاف . المحاكم الشرعية] . (46)

وفي عام 1895م الموافق 06/رجب/1312هـ تشكلت هيئة مجلس إدارة الأزهر برئاسة الشيخ (حسونة النواوي) ، ودخل فيه الأستاذ الإمام والشيخ (عبد الكريم سلمان) ممثلين للحكومة ، وكان الشيخ محمد عبدة حريصا على أن يسير هذا المجلس وفق لائحته وقوانينه ، لا بمشيئة الخديوي وحاشيته وأعوانه ، وقال يومها للخديوي أمام أعضاء المجلس : ((.. إن مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموكم أمرا عليه إلا بهذا القانون الذي بين يديه ، دون الأوامر الشفوية التي يبلغها عنكم من لا يثق به المجلس لمخالفته قانونكم ..)) . (47)

وقد اصطدمت سياسة الوفاق بين الإمام والخديوي عباس حلمي الثاني بعاملين اثنين ، هما :

1 - مذهب الإمام السياسي المعتدل تجاه الإنجليز ، الأمر الذي جعله يهادن اللورد كرومر ، وسلطة الإحتلال ، فلا يعتبر معركته المباشرة ضدهم ، وإنما ضد التحديات والعقبات التي تحول دون إصلاح الأزهر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، ونظام التربية والتعليم المعتمد في المدارس المصرية . وهو الموقف الذي رضي عنه الإنجليز ، ورحبوا به ، لأنه يتيح لهم الهدوء والاستقرار . وهذا يدخل ضمن استراتيجيات الإمام الإصلاحية بعد عودته من المنفى ، ونقده لتجربته الإصلاحية الأولى صحبة أستاذه الأفغاني ، القائمة على الصراع السياسي والثورة والانقلاب المسلح ، ليستبدلها بعملية التغيير والتربية الطويلة المدى ، كأرضية حقيقية وفاعلة لأي تغيير سياسي آخر .

2 - معارضة الأستاذ الإمام ومؤيدوه لمطامح الخديوي في أراضي الأوقاف ، وبذلك انتهت سياسة الوفاق ، وصارت مرحلة حذر وعداء استمرت قرابة الأربع سنوات (1902-1905م) . (48)

وفي سنة 1310هـ 1892م اشترك في تأسيس (الجمعية الخيرية الإسلامية) ، التي تهدف إلى نشر التعليم ، وإعانة المنكوبين ، وتولى رئاسة هذه الجمعية في سنة 1318هـ 1900م . (49)

وفي يوم 03/جوان/1899م الموافق 24/محرم/1317هـ عين الإمام محمد عبدة في منصب مفتي الديار المصرية ، وتبعاً لهذا المنصب أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى، فسعى إلى بقوة إصلاحها ، وإصلاح المساجد بوضع وتطبيق اللائحة التي ضمنها أفكاره لإصلاح هذا المرفق الإسلامي الهام . (50)

وفي 18/صفر/1317هـ الموافق 25/جوان/1899م عين عضواً في مجلس شورى القوانين . (51) ، وبعدها بسنة 1900م 1318هـ أسس (جمعية إحياء العلوم الإسلامية) ، فحققت ونشرت عدداً مهماً من التراث العربي والإسلامي ، وشارك الإمام في عمل هذه الجمعية باستحضار المخطوطات ، واستكمال نسخها ، ومراسلة الملوك والسلطين والقضاة لهذا الغرض العلمي البحت ، ومقابلة النسخ المخطوطة ، والشرح والتعليق عليها . (51)

وفي هذه الفترة من حياته سافر خارج مصر عدة مرات ، مرة إلى بلاد الشام ، وإلى أوروبا العديد من المرات ، أشهرها رحلته سنة 1321هـ 1903م التي عرج فيها على تونس والجزائر ، ثم صقلية وإيطاليا ، كما سافر إلى

السودان أيام 18 .. 31/جانفي 1905 م . (52)

وفي هذه المرحلة بدأ يلقي دروسه في تفسير القرآن الكريم بالجامع الأزهر ، بداية من شهر محرم 1317هـ الموافق جوان 1899م إلى سنة وفاته، وفسّر القرآن الكريم بدءا من سورة الفاتحة حتى الآية المائة وخمس وعشرين من سورة النساء، وكان تلميذه السيد رشيد رضا يدون ملخصا في الدرس ، وبعد عام من بدئه أخذت مجلة المنار تنشره في حلقات ، بداية من عدد محرم 1318هـ مايو 1900م ، واستمر ينشر فيها حتى عددها الخامس من سنتها الخامسة عشر الموافق ليوم 30/جمادى الأولى/1330هـ 17/مايو/1912م ، وبعده استمر الشيخ رشيد رضا يواصل التفسير منفردا بالعمل فيه . (53)

ومن خلال هذه القراءة السريعة لمراحل حياته يمكننا بلورة المراحل التي شكلت تفكيره ، وهي:

- 1 - مرحلة تأثير الشيخ درويش خضر خال أبيه وجامع الأزهر والسلوك الصوفي .
- 2 - مرحلة تأثير جمال الدين الأفغاني .
- 3 - مرحلة تأثير الدراسات الأجنبية ولاسيما بعد تعلمه الفرنسية لما كان صحبة أستاذه جمال الدين في باريس سنتي 1883-1884م .

أهم مؤلفاته :

ومن أبرز أعماله في هذه الفترة فتاويه ، وأحاديثه للصحف والمجلات ، والمؤلفات التالية : (رسالة التوحيد) ، وشرح وتحقيق (البصائر النصيرية للطوسي) ، وتحقيق وشرح (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) للرجاني ، و (الرد على هانوتو) ، ومقالات الاضطهاد في النصرانية والإسلام (النصرانية بين العلم والمدنية) التي رد بها على فرح أنطون سنة 1902م ، و(تقرير إصلاح المحاكم الشرعية) سنة 1899م ، والفصول التي شارك بها في كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين سنة 1899م والمقالات التي شرع يترجم بها لحياته ، ومقالات (المستبد العادل) ، و (الرجل الكبير في الشرق) ، و (آثار محمد علي في مصر) ، ومجموعة ملاحظاته وآرائه حول الثورة العربية ، سواء منها ما كتبه في مشروعه لتأريخها بطلب من الخديوي عباس حلمي الثاني أو ما كتبه لصديقه القديم (بلنت)، وأيضا ترجمته لكتاب (التربية) (لهربرت اسبنسر) عن الفرنسية ، التي تعلمها في مرحلة تواجدته مع أستاذه في فرنسا ، وكذلك وصيته التربوية التي أملاها بالفرنسية في مرضه الأخير على الكونت (دو جريفيل) ، فنشرها في كتابه (مصر الحديثة) . (54)

وفي شهر محرم 1322هـ مارس 1905م استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجا على مؤامرة الخديوي عباس حلمي الثاني ، التي حال بها دون السير في عملية إصلاح الجامعة الأزهرية . (55)

وفاته :

وفي الساعة الخامسة من مساء يوم 07/جمادى الأولى/1323هـ الموافق 11/يوليو/1905م توفي الأستاذ الإمام في الإسكندرية عن سبع وخمسين عاما ، مخلفا ثلاثة بنات ، وعن حياة فكرية خصبة ، وجهود جبارة في إصلاح التربية والتعليم والإنسان ، وعن مشروع نهضوي إصلاحية تغييري لم يعرف الشرق مثله مذ يقظته في العصر

الحديث ، وعن مواقف عظيمة تجسد عظمة الإنسان المسلم، فلقد كان عقلا من أكبر العقول التي أنتجها الشرق الإسلامي في العصر الحديث . (56)

منهج ووسائل الإمام في الإصلاح :

كانت نقطة الانطلاق في تفكير الشيخ محمد عبدة حالة الانهيار والتمزق والتخلف الداخلي التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية ، وحاجتها الماسة كأمة متخلفة ومنهارة إلى ما يجدد لها ما رث من قيمها ومنهجها النهضوي ، ولذا فقد سعى إلى دراسة أمراض الأمة الإسلامية ، متعمقا في أسبابها المباشرة ، وفي أثر عوامل الانحلال التي تتخر كيان الأمة ، وكانت تواجهه صورتان متباينتان للمجتمع الإسلامي، وأولاهما : صورة قديمة وجميلة تعود إلى عهود الإسلام الأولى الزاهرة الناضرة ، وثانيهما : صورة أخرى مؤلمة ومحزنة ومخزية للواقعين العربي والإسلامي المعيشين . (57)

وشكلت عملية التوفيق بين تلك الصورتين المتباينتين هاجسا مقلقا ، وحافزا دافعا لديه، وطمح من خلال مشاريعه الإصلاحية تحويل وترقية المجتمع الإسلامي ، عن طريق تذكيره بماضيه المجيد ، وتحسيسه بعزه الغابر ، وتحبيبه في تراثه الأصيل ، الذي كان سببا في رفعته وعزته ، والرقي به عاليا بنفس عوامل ومقومات وأصول نهضته القديمة ، لأنه كان يرى أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

وعمل طيلة حياته وبكل ما يملك من قوة للتوفيق ما بين الصورتين ، صورة المجتمع الإسلامي الأفضل ، الذي كان يترسمه في مخيلته التاريخية ، وبطمح إليه ، وبين صورة واقع المجتمع الإسلامي المتخلف الذي كان يعيش فيه ، والوسائل المثلى لتحقيق المجتمع الأفضل ، مجتمع الأصالة والحداثة .

وقد رسم صورة للمجتمع المثالي الواقعي من خلال استلهامه لقيم المجتمع الإسلامي الأمثل ، فهو مجتمع يقوم على احترام الكرامة الإنسانية ، وإرساء قيم الإخاء والمساواة ، وسيادة وتقدير العقل ، وإرساء العدالة الشاملة ، واحترام القانون ، وخضوع الكبير والصغير أمامه ، كما كان ماضي الخلافة الإسلامية . (58)

ودعا الإمام إلى ضرورة وجود الحاكم المستبد العادل ، الذي كان يراه ضرورة حتمية وتاريخية وحضارية لحكم الشرق والنهضة به في المراحل النهضوية الأولى ، لاعتبارات عديدة ، متعلقة بالإرث الثقيل الذي يزرح تحت نيره الشرق منذ قرون الضعف والتخلف ، أفراد وجماعات ومجتمعات . (59)

كما كان يرى ضرورة تقديس العقل كأساس رئيس لنهضة الشرق ، هذا العقل المبدع والمتفتح والقادر على فهم وتدبير شؤون الدنيا والدين معا ، معتبرا الكافر الحقيقي هو ذلك الإنسان الذي أغمض عيناه عن رؤية الحقيقة ، فلا يرى النور ولا الحقيقة ، ويبقى كالنعامة غامسا رأسه في الرغام ، والأمم تتطور وتنهض من حوله . وهو ذلك الإنسان الذي يرفض البراهين والدلائل العقلية .

ويرى أن هذه الرؤية تأنت للمسلمين بعدم فهمهم لطبيعة ومكانة العقل في القرآن الكريم والسنة النبوية وعمل السلف الصالح من الأمة ، فالإسلام بخلاف ما زعم فيه أهله الجاهلون به ، ولا كما زعم فيه أعداؤه الجاحدون لفضله ، لم يدع أبدا إلى إهمال العقل ، بل حث أتباعه على الإقبال على تعلم كافة العلوم والمعارف ، وجعل الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها ، والمجتمع المسلم الراشد هو المجتمع العاقل الواعي المستتير ،

الذي يقبل على الله ببصيرة وعلم وتدبر وعقل وفهم . (60)

معالم منهجه الإصلاحية :

حدد الإمام محمد عبدة فلسفته ومنهجه الإصلاحية في المعالم والمقومات التالية :

1 - نبذ التقليد والجمود :

تحرير الفكر من قيود التقليد ، ودفعه للاجتهد والتجديد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف الفقهي ، ومنهج الأئمة الأعلام المجتهدين في القرون الهجرية اللاحقة ، والرجوع بالعقل المسلم نحو الينابيع الأولى لكسب معارفه وأطر وقيم مشروعاته الإصلاحية والتغييرية .

وهو بهذا يعد ممجدا للعقل وللعلم ، وباحثا موضوعيا عن الحقيقة والمعرفة المطلقة ، داعيا إلى الثبات على تقديس المقدس واحترامه ، والتعويل عليه في أي عملية إصلاح ، أو تغيير قادمة . وتمجيد الموروث الفكري الإسلامي ، والأخذ منه بما يصلح لزماننا وكياننا ، والاحتفاظ بما لا يتناسب وزماننا وكياننا وأوضاعنا في سجلات التاريخ الإسلامي كتاريخ عظيم نعتز به ، ونرجع إليه وقت الحاجة ، متى دعت الضرورة إليه . (61)

2 - الدعوة إلى الحكم الشوري العادل :

إصلاح حال الحكام بالشورى والعدل ، وتوويرهم بالمعرفة والعلم ليعرفوا مع رعيته مالهم وما عليهم . على الرغم من تقديره استحالة تطبيق الشورى في المجتمعات الشرقية ، وفي مصر بالذات نظرا لتخلف شعوبها . فيما كان يرى أن مفهوم السلطة غير مقيد بسلطة دينية إسلامية ، وأنه لا يجب على الإسلام أن يبقى حارسا للسلطة الزمنية . داعيا إلى ضرورة الحفاظ على نظام الخلافة الإسلامية الممثلة يومها في الخلافة العثمانية - المتعفنة - بشرط تولى العنصر العربي قيادتها ، مشددا نكيره على السوريين مطالبهم الاستقلالية القومية، والانفصال عن السلطة العثمانية للضرورة الظرفية في مواجهة تكالب القوى الأجنبية ضدها. مقدما فهما للجامعة الإسلامية مناقضا لفهم أستاذه ، فهي عنده لا تتعدى أن تكون نوعا من التضامن والترابط مع الدولة العثمانية أو مع غيرها . (62)

3 - محاربة البدع والضلالات :

تطهير الدين من البدع والضلالات ، والعودة به إلى نقائه الأول ، وفي هذا الصدد يقول : ((.. ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ..)) . (63)

4 - تطوير اللغة العربية :

إصلاح أساليب اللغة العربية ، في الكتابة والمخاطبة والتراسل والتخاطب والاتصال والإعلام والتربية والتعليم . (64)

وعلى خطى أستاذه جمال الدين الأفغاني فقد هاجم التقليد والمقلدين ، ومما جاء في الرد عليهم قوله : ((.. التاثت قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ، فهم يعتقدون الأمر ، ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يريدونه إلا

موافقا لما يعتقدون ، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوه نبذوه ولجوا في مقاومته، وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل قبل أن يعتقد ، وهكذا شأنهم في التقليد وخذاع النفس بالتجديد ..)) . (65)

وكان أشد ما يخشاه على العقل المسلم استمرار غشاشات وسيطرة التقليد ، وتعذر محو البدع والضلالات التي دخلت الإسلام ، ولاسيما بعد طوفان سيول الفكر الغربي الحديث، ولذلك فقد شن حملة على المقلدين مبينا خطرهم ، فقال : ((.. فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل ، وكما يكون في النافع يحصل في الضار ، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجمل بحال الإنسان ..)) . (66)

5 - الاجتهاد والتجديد في الدين :

إعادة القراءة والنظر والفهم والتحليل والانتقاء من المذاهب الفقهية ، والاستفادة من سائر العلوم العصرية لفهم حقائق الدين، لأنه : ((..لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستفادة للعلم بحقائق الكائنات المملكة بقدر الإمكان ، بل يجب أن يكون الدين باعنا لها على طلب العرفان ، مطالبها لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في المعرفة ما بين يديها من العوالم .. ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين ..)) . (67)

6 - الاستفادة من العلوم الحديثة :

الاستفادة من العلوم الحديثة في تفسير حقائق الدين ، وقد استخدم واستفاد من آخر الصيحات العلمية في عصره لتفسير القرآن الكريم ، وعن ذلك قال : ((.. على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبتته العلم وقرره الطب ، أو إضافة شيء إليه مما لا دليل في العلم عليه ، لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية ، فنحمد الله تعالى أن القرآن أرفع من أن يعارض العلم ..)) . (68)

وكان يرى أن التوازن في الفهم حاصل بين حقائق العلم وحقائق الدين ، فقال : ((.. ألا إنه من واجب العقل أن يتواضع أمام الله ، وأن يتوقف عند حدود الإيمان ، أما ضمن هذه الحدود فليس هناك أي حاجز يعترضه ، ويعرقل نشاطه ، أو أي شيء يحد من نظراته التي يمكن أن تصدر وفقا لهذه الأفكار ..)) . (69)

7 - الدفاع عن الإسلام ضد التأثيرات الخارجية :

الدفاع عن الإسلام ضد حملات الغزو والتأثير الخارجي، ولاسيما الصليبي منه ، المتمثل في هجومات المستشرقين والمستغربين والمبشرين ، وعن هذه المهمة الإصلاحية وضح فقال: ((الشريعة الإسلامية شريعة عامة باقية إلى آخر الزمان، ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران، وشريعة هذا شأنها لا تتحصر جزئيات أحكامها ، لأنها تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا ..)) . (70)

8 - إصلاح التعليم العالي :

بدأت فكرة إصلاح التعليم العالي الديني لدى الشيخ منذ فترة مبكرة من حياته الإصلاحية ، فقد نشر عام 1876م مقالة في جريدة الأهرام أكد فيها على أنه لا يكفي دراسة المؤلفات العربية التقليدية في الشرع الإسلامي التي

تدافع عن العقيدة ، بل يجب تلقي العلوم الحديثة ، وتاريخ الديانات في أوروبا لتفهم أسباب التقدم الغربي . وتكونت لديه فكرة واضحة على ضرورة إصلاح التعليم الديني في مصر ، وهو الذي عانى من سوء المناهج التعليمية والتربوية في الجامع الأحمدى بطنطا ، وعاش تجربة مريرة دامت اثنتا عشرة سنة في الجامع الأزهر ، ويرى: ((أن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام ، فإن إصلاحه للإصلاح للمسلمين ، وفساده فساد لهم)) (71) وأتيح له أن يحقق بعض أفكاره في إصلاح التعليم في الأزهر في عهد الخديوي توفيق ، الذي كان وراء الإصلاح ، ولم يوفق الشيخ في الإصلاح المطلوب ، بسبب مقاومة شيوخ الأزهر المعارضين إدخال العلوم الحديثة في مناهجه .

ولما تولى الخديوي عباس حلمي الثاني الحكم عهد إلى الشيخ إعداد تقرير مفصل عن التعليم في الأزهر وطرق إصلاحه . وعلى إثر ذلك التقرير تألف (مجلس إدارة الجامع الأزهر) لتنظيم قواعد التدريس والأروقة والمرتببات ودرجات العلماء ، وتألف المجلس من ستة أعضاء ، وكان الشيخ محمد عبده أحدهم سنة 1895م ، وكان الروح المحرك للمجلس ، وأثمرت جهوده في الإصلاحات التالية :

- 1 - تنظيم مرتببات الأساتذة في الأزهر وزيادتها .
- 2 - منح كساوي التشريف التي يلبسها العلماء لمن يستحقها .
- 3 - تنظيم الجرايات التي تصرف للمجاورين في الأزهر .
- 4 - إصلاح مساكن المجاورين في أثنائها وإيصال الماء إليها .
- 5 - إصلاح إدارة الأزهر بإيجاد مكاتب إدارية لمساعدة شيخ الأزهر .
- 6 - تأليف لجنة من ثلاثين عالما لدراسة المناهج المقررة ، فأدخلت العلوم الحديثة ، كالحساب والجبر والهندسة وتاريخ الإسلام والإنشاء والآداب واللغة العربية وتقويم البلدان والمناهج .

7 - إصلاح المكتبة لتسهيل استعمالها .

8 - إصلاح طريقة التدريس ومناهجها . (72) 18

والواقع أن استجابة الأزهر لضرورة التجديد كانت بطيئة جدا ، لأن هذه المؤسسة العلمية ذات تقاليد الجامدة تعود إلى ثمانية قرون ، بالإضافة إلى أنها تعتبر نفسها أمام العالم الإسلامي حارسة للدين الإسلامي ، والناطقة باسمه ، وباسم المذهب السني فيه . ولذلك لم تفتح أبوابها بسهولة لرياح التجديد والتغيير . على الرغم من حنكة وحكمة الإمام الذي لم يعمم الخطة الإصلاحية على كل المؤسسات ، بل اقتصرها على مؤسسة بعينها (الأزهر) ، مهتما فقط بالتعليم العالي بالدرجة الأولى ، والذي لم تسعفه الظروف لإصلاح المراحل الأخرى ، فضلا عن الاهتمام بمحو الأمية المتفشية في الشعب المصري وفي الشعوب العربية والإسلامية ، لاعتقاده أن إصلاح التعليم العالي سيؤدي إلى إصلاح بقية مراحل التعليم بالضرورة . (73)

9 - استغلال كافة الوسائل والأساليب الممكنة لترقية الفرد والجماعة والمجتمع:

يرى الإمام محمد عبده أن المسلمين ليسوا فقراء في الوسائل والإمكانات والثروات المختلفة ، وإنما فقرهم تأتي لهم

من سوء تقديرهم ، وسوء فهمهم ، وسوء استخدامهم لتلك الثروات والإمكانات ، أو لعدم إدراكهم لقيمة ومكانة تلك الوسائل في عملية التغيير . ولذا فقد كان يرى أنهم بحاجة ماسة إلى إعادة استثمار ما عندهم من وسائل وإمكانات ، وحسن توظيفها في عملية التغيير والإصلاح .

10- إقامة علاقات حسنة مع الحكام:

إقامة علاقات طيبة مع الحكام ، ومع المستعمرين ، ومهادنتهم نسبيا ، وعدم الاشتغال بالعمل السياسي بمعناه الحزبي والنضالي ، والاكتفاء بالإصلاح التربوي والاجتماعي والديني، أو ما يعرف اليوم الاشتغال بالسياسة التربوية والتعليمية والثقافية .. وهي خلاصة تجربته في الإصلاح السياسي، وهي النصيحة التي قدمها لعلماء تونس والجزائر لما زارهما سنة 1903م و 1904م ، حاثا إياهم على الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية ، والجد في تطوير العمران والحياة ، وإثراء الاقتصاد والمال ، وتكريم الإنسان واحترام آدميته، بالعمل والجد والتمتع بالحقوق والحريات، وضرورة مسالمة الحكومات والمستعمرين ، حتى يتركوا للعلماء هامشا مقبولا لعملية الاستمرار والتغيير والإصلاح . (74)

مطاعن خصومه:

تعرض الإمام محمد عبدة إلى سيول من المطاعن والردود ، وحملات التجني والتشويه الآثمة ، من ضمن المنظومة الدينية التي ينتمي إليها بدءا بتيار العلماء التقليديين النصيين السلفيين، وتيار العلماء المذهبين ، وتيار الشيوخ الصوفيين .

كما تعرض لحملات التشويه من خارج منظومته الفكرية ، من فصيل يدعي الانتماء إلى تيار المدرسة العقلانية ، كبعض غلاة المستعربين ، والحاقدين على حركات الإصلاح والتغيير الإسلامي ، ممن يدعون العقلانية والموضوعية ، ومن أنصار الفلسفة المادية الوضعية ، ومن القصر والحكومة .

وظلت سيول النقد العلمي وغير العلمي ، الموضوعي وغير الموضوعي ، تطاله تارة بالتشويه وتارة بالتجريح والقدح حتى أواخر القرن الماضي .

وعلى ضوء التراكمات النقدية المتنوعة ، التي تضافرت من هنا وهناك ، وتجمعت بموضوعية وادعائية حول شخصه ومنهجه ومشروعه ، يمكن تصنيف خصومه كالتالي :

- 1 - التيار الإسلامي بمختلف مذاهبه واتجاهاته : (السلفيين ، التقليديين ، الصوفيين ، الرسميين) .
- 2 - التيار الذي يدعي العلمانية ، من غير العلمانيين الموضوعيين ، من المستشرقين والمستعربين .
- 3 - تيار السلطة الحاكمة . (75)

ويعود كثرة خصوم الرجل لعدة اعتبارات ، يمكن إجمالها في المعالم التالية :

- 1 - أهمية الإمام ، وعلو قدره ، ومكانته الدينية والعلمية والسياسية والاجتماعية .
- 2 - وضوح مشروعه الإصلاحية ، منطلقا وممارسة ووسيلة وغاية .
- 3 - نبل مقاصده في نهضة الشرق والشرقيين .

- 4 - ارتباطه الفكري والروحي والنفسي والمعرفي الوثيق بالسيد جمال الدين الأفغاني ، التي لم يستطع أعداؤه غفرانها له ، حتى بعد تحوله الإصلاحى الثانى بعيد عودته من منفاه .
- 5 - تحديده لموقفه ورأيه من كل قضايا عصره الداخلى والخارجية .
- 6 - منهجه العلمى والبحثى العقلى ، الممجد للعلم وللعقل ولل فكر .
- 7 - مواقفه الإيجابية من المدنية الغربية الصاعدة ، ودفعه المسلمين للأخذ بأسبابها ووسائلها .
- 8 - ربط فهوماته للإسلام بالعلم وبما توصل إليه العقل الحديث .
- 9 - انضمامه للمنظمة الماسونية العالمية رفقة أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني .
- 10- تأسيسه وأستاذه الأفغاني لجمعية سرية غامضة تدعى (العروة الوثقى) .
- 11- تغييره لزيه ومظهره ونزعه لعمامته وثوبه الأزهرى أثناء رحلاته وأسفاره فى أوربا .
- 12- علاقته المهادنة للقصر .
- 13- موقفه من الإنجليز المستعمرين لمصر ولأغلبية العالم الإسلامى ، وصداقته مع اللورد (كرومر) واللورد (لويد) الحاكمان البريطانيين فى مصر ، وصداقته للعديد من الأجانب كالمستر (بلنت) والكونت (دو جريفيل) ، وغيرهم .
- 14- مواقفه من بعض المسائل الدينية ، كموقفه من السنة ، ومن أخبار الآحاد الظنية ، ورده لها وعدم اعتمادها . وفتاويه المستحدثة التى راعى فيها واقع المسلمين المزمري . ومنهجه فى التفسير ، الذى يعتمد على العلم الحديث ومكتشافاته . ورده لكثير من القضايا فى الفكر والتراث الإسلامى ك : (الجن ، والسحر) .

الرد على تلك المطاعن :

انبرى جمع غفير من الكتاب والدارسين والمتقنين منذ قرن خلا وهم يردون على تلك المطاعن التى شنها خصومه عليه وعلى أستاذه الأفغاني ، ولعلنا نسوق رد الشيخ محمد الغزالي وهو يدافع عنه فقال : ((.. وسمعت من هؤلاء أن الشيخ محمد عبدة اتصل بالإنجليز وتعاون معهم ، فقلت : إن كانت علاقته بالقوم عن محبة لهم وولاء فقد ارتد عن دينه وحبط عمله ، فهل كان ماضي الرجل ومستقبله يرشحه لهذه التهمة . إن الشيخ محمد عبدة سهر فى الرد على وزير الخارجية الفرنسى (مسيو هانوتو) عندما هاجم الإسلام ، فأتم كتابه (الإسلام والعلم) فى ليلة واحدة ، فحرمه الحماس الرقاد ، فلم يسترح إلا بعد أن جلا الحق . أين كان الشيوخ الحاقدون على الشيخ يومئذ ؟ كانوا بين عاجز وجبان .. وعاد الرجل إلى القاهرة بعد فشل الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر ، وكان الخديوي قد أصدر أحكاما بإعدام ، وتشريد قادة الثورة ، بيد أن الإنجليز خففوا هذه الأحكام ، واستبدلوا بها النفي لمدد متفاوتة ، فلما رجع محمد عبدة وجد واقعا مرا ، والقصر الخائن ، والمحتل الكافر . ومن أيسر الأمور على رجل مهزوم أن يفر إلى بيته ، وينسحب من الحياة العامة ، ولكن البطولة ليست فى هذا الفرار السهل ، لقد أثر الطريق الطويلة ، طريق التربية ، ورفع المستويات النفسية والفكرية . ويفرض عليه ذلك المسعى لإصلاح الأزهر ، وترقية اللغة والأدب والتدريس المتصل لعرض حقائق الدين ، وإنارة الطريق أمام التائهين . لقد فشلت الثورة العسكرية فليتخذ أسلوبا آخر . وهو أمام خيارين أحلاهما مر ،

كيف يتقي الإنجليز ؟ وكيف يتقي القصر ؟ وكان محمد عبدة شديد الاحتقار للعائلة المالكة ، ويرى أنها أسرة وضيعة باعت دينها وعرضها في سبيل الجاه الزائل ، وقد وصف كبيرها محمد على باشا فقال : أخذ يقرب الأسافل كأنما يحن إلى عرق فيه .

ولما اتجه إلى إصلاح الأزهر وجد مقاومة من شيوخه الذين يرون إدخال العلوم الحديثة كفرا . ويرون استبقاء الحصر القديمة لأن أقدام الشيوخ المباركين وقفت عليها . ولقد استمات الشيخ المصلح في عمل شيء للإسلام فتحايل على سطوة الإنجليز ، وعلى جمود الشيوخ ، وعلى خصومة القصر ، وعندما مرض مرضه الأخير ترجم آلامه النفسية بقوله :

ولست أبالي أن يقال محمد **أبلّ ، أم التفت عليه المآثم**
ولكن دينا قد أردت إصلاحه **أحاذر أن تقضي عليه العمام .**

ومع ذلك فقد مضى الرجل في طريقه بقوة ، ونشأ عن حركته ازدهار علمي وأدبي وسياسي ، نقل الأمة الإسلامية إلى طور آخر من أطوار الحياة والكفاح لم تشهده من ألف عام. وما أحسب أن مدرسة المنار ، ثم مدرسة محمد فريد بك وجدي ، والعقاد ، والخضري وأبي زهرة ، ومحمود شلتوت والمدني وغيرهم .. من الإسلاميين ، والمد الأدبي العظيم في الشعر والنثر الذي تدافع سيله في الأيام الماضية ، وارتقت به اللغة العربية ارتقاء باهرا .. ما أحسب أن ذلك كان سيتم لولا حركة محمد عبدة وأستاذه جمال الدين .. ولم يكن غريبا أن يتهم بالكفر ، وإنكار كرامات الأولياء ، والخروج على آراء الفقهاء ، بل لقد اتهم الرجل بترك الصلاة ، وأحسبه كان سيتهم بأمور أخرى لو كان في ريعان الشباب .. ((. (76) والحقيقة أن الردود على تلك المطاعن كثيرة جدا، وهي أكبر من أن تحتضنها مثل هذه الدراسة المستعجلة التذكيرية بمناسبة مرور قرن على وفاته ، وعلى تجربته الإصلاحية .

خلاصة :

أفنى الشيخ محمد عبدة حياته كلها داعيا إلى الله تعالى ، وناشرا دين الإسلام ، ومكافحا بروحه وماله وجهده عن حياض العروبة والإسلام . ولم يدخر جهدا لخدمة دينه ، ونصرة أمته ، ورفعته وطنه. فلقد كان مفكرا ومصلحا وداعيا إسلاميا عالميا حين ينظر إلى عموم نهضة الشرق والشرقيين ، ومفكرا إقليميا متميزا ، وغير متناقض مع عالميته الإسلامية، عندما ينظر إلى هموم ومشاكل وطنه العربي الكبير في المشرق والمغرب ، ومفكرا ومصلحا وطنيا عظيما حين يفكر في مشاكل مصر والمصريين ، كما كان - يرحمه الله - متحركا ضمن هذه الدوائر التغييرية الثلاثة : [العالمية . الإقليمية . الوطنية] حركة إصلاحية واعية وهادفة ، للرفي بأمته ، وللعودة بها إلى تاريخها المجيد ، وماضيها الغابر التليد ، وإلى صورتها الناصعة ، التي كانت لا تفارق مخياله المتوقد .

كما كان - يرحمه الله - مستبصرا الطريقة المثلى ، ومتوسما المنهج الأفضل للنهضة بواقعه وبأمته المهزومة المستعمرة ، واضعا القواعد والوسائل والأساليب المثلى لرفعته ، ولهذه المهمة عاش وضحى وناضل وجاهد .. حتى أسلم روحه لخالقها ، فليرحمه الله في الخالدين .

مسرد الإحالات

- (1) انظر : السيد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، مطبعة الحلبي وشركاه ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1329 هـ . وعباس محمود العقاد ، الإمام محمد عبدة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1980 م . ومحمد عبدة ، جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين ، دار الشهاب ، الجزائر ، دون طبعة ، دون تاريخ . ومحمد عبدة ، رسالة التوحيد ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، 1978 م . وجرجي زيدان ، بناء النهضة العربية ، دار الهلال ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1909 م . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1971 م ، ص 302 .. 329 . محمد عمارة ، الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبدة ، تحقيق الدكتور محمد عمارة ، دار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1980 م . ومحمد عمارة ، الإمام محمد عبدة مجدد الإسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1981 م . وعلي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1980 م . ومحمد طهاري ، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين ومحمد عبدة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، 1994 م . وأحمد محمد جاد عبد الرزاق ، فلسفة المشروع الحضاري ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، واشنطن ، الطبعة الأولى ، 1404 هـ 1995 م . ومحمد الغزالي ، علل وأدوية ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دون طبعة ، دون تاريخ ، ص 83 و 84 و 100 .. 106 .
- (2) انظر : السيد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج 1 ، ص 41 . وعباس محمود العقاد ، الإمام محمد عبدة ، ص 21 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 302 .. 329 .
- (3) محمد عمارة ، الإمام محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 20 .. 22 . وجرجي زيدان بناء النهضة العربية ، ص 84 .
- (4) محمد عمارة ، الإمام محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 20 و 21 .
- (5) المرجع السابق ، ص 22 .
- (6) المرجع السابق ، ص 23 .
- (7) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 303 و 304 . ومحمد عمارة ، محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 23 . وجرجي زيدان ، بناء النهضة العربية الحديثة ، ص 84 .
- (8) العقاد ، الإمام محمد عبدة ، ص 74 . وجرجي زيدان ، ص 85 .
- (9) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 310 .. 312 .
- (10) العقاد ، الإمام محمد عبدة ، ص 80 .. 82 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 312 و 313 .
- (11) محمد عبدة ، جمال الدين ورسالة الرد على الدهريين ، دار الشهاب ، الجزائر ، دون طبعة ، دون تاريخ ، ص 11 و 12 .
- (12) المصدر نفسه ، ص 12 .
- (13) المصدر نفسه ، ص 12 و 13 .
- (14) المصدر نفسه ، ص 13 .
- (15) محمد عمارة ، محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 26 .
- (16) المصدر نفسه ، ص 26 و 27 .
- (17) أحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 314 و 315 . ومحمد عمارة ، محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 27 .
- (18) محمد عمارة ، محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 27 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 315 .
- (19) محمد عمارة ، محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 27 و 28 . وأحمد أمين ، زعماء الإصلاح ، ص 315 و 316 .
- (20) محمد عمارة ، محمد عبدة ، ص 28 .
- (21) محمد عمارة ، محمد عبدة ، ص 28 .
- (22) جرجي زيدان ، بناء النهضة العربية ، ص 88 و 89 . ومحمد عمارة ، مرجع سابق ، ص 28 و 29 .
- (23) علي باشا مبارك 1239-1311 هـ / 1823-1893 م : ولد بقرية (برنبال الجديدة) في مديرية الدهليزية سنة 1239 هـ 1823 م لأب فقيه وعالم وصوفي تقي ، اعتنى والده بتربيته وولده ، ثم أرسله إلى من يفقه في الدين ويعلمه مبادئ اللغة العربية ثم التركية ، ثم التحق بمدرسة الهندسة ، وأتم دراسته فيها ، ثم سافر مع أولاد محمد علي إلى فرنسا لمتابعة دراستهم سنة 1844 م وعاد إلى مصر فانضم إلى الجيش ، ولما توفي محمد علي باشا سنة 1849 م ، عينه عباس باشا ضابطاً برتبة يوزباشي في سلاح الهندسة ، ثم طور المدارس الحربية ، وأوكل إليه تنظيم وإدارة المدارس وفق النفقات الاقتصادية الجديدة التي تعتمد على التقليل من الإنفاق العام ، وفي عهد سعيد باشا وشي به وشاة فتخلص منه بإرساله مع القوات المصرية لمحاربة روسيا سنة 1270 هـ 1876 م وعاد إلى مصر بعد أن لاقى الأهوال ، ثم اعتزل الناس والجنديّة ، وعاد من جديد ليتسلم معاون نظارة الجهادية ، ثم تقلب في المناصب الإدارية والحكومية ، ثم اهتم بتدريس الجنود في المدارس الحربية ، فألف الكثير من الكتب ، ثم عاد فتقلب في المناصب الحكومية في عهد إسماعيل باشا ، وكان آخر منصب

حكومي يتأهله هو وزارة التربية (ناظر المعارف) ، فأصلح النظام التربوي في عهده ، ولما سقطت حكومة نوبار باشا ، واحتل الإنجليز مصر عاد مجددا لوزارة المعارف ، ومنها إلى الاشتغال بالأعمال الهندسية وحفر الترع ومد الجسور ، إلى أن اعتزل وتوفي سنة 1311هـ 1893م ، وقد ترك العديد من المؤلفات أشهرها (الخطط التوفيقية) في عشرين مجلدا ، على منوال (خطط المقريري) ، وغيرها من الكتب . انظر : جرجي زيدان ، بناء النهضة العربية ، ص 142 .. 148 .

- (24) محمد عمارة ، مرجع سابق ، ص 30 . وأحمد أمين ، مرجع سابق ، ص 317 .
- (25) محمد عمارة ، مرجع سابق ، ص 30 . وأحمد أمين ، مرجع سابق ، ص 317 .
- (26) محمد عمارة ، مرجع سابق ، ص 30 . وأحمد أمين ، مرجع سابق ، ص 317 .
- (27) محمد عمارة ، مرجع سابق ، ص 30 و 31 . وجرجي زيدان ، مرجع سابق ، ص 85 . وأحمد أمين ، مرجع سابق ، ص 319 ..
- (28) محمد عمارة ، الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبدة ، المقدمة ، ج 1 ، ص 3 و 4 و 5 ..
- (29) محمد عمارة ، مجدد الإسلام ، ص 32 .
- (30) أحمد أمين ، مرجع سابق ، ص 327 .
- (31) محمد عمارة ، الأعمال الكاملة ، ج 1 ، ص 606 ، 618 .
- (32) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 606 ، 618 .
- (33) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 606 ، 618 .
- (34) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 606 ، 618 .
- (35) محمد عمارة ، محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 34 و 35 .
- (36) المصدر نفسه ، ص 35 .
- (37) المصدر نفسه ، ص 36 و 37 .
- (38) المصدر نفسه ، ص 37 .
- (39) المصدر نفسه ، ص 37 .
- (40) المصدر نفسه ، ص 37 و 38 .
- (41) المصدر نفسه ، ص 38 .
- (42) المصدر نفسه ، ص 39 .
- (43) المصدر نفسه ، ص 39 .
- (44) المصدر نفسه ، ص 39 و 40 .
- (45) المصدر نفسه ، ص 40 .
- (46) المصدر نفسه ، ص 40 و 41 .
- (47) المصدر نفسه ، ص 41 .
- (48) المصدر نفسه ، ص 41 و 42 .
- (49) المصدر نفسه ، ص 42 .
- (50) المصدر نفسه ، ص 42 .
- (51) المصدر نفسه ، ص 42 و 43 .
- (52) المصدر نفسه ، ص 43 و 44 .
- (53) المصدر نفسه ، ص 44 .
- (54) المصدر نفسه ، ص 44 .
- (55) المصدر نفسه ، ص 44 و 45 .
- (56) المصدر نفسه ، ص 45 .
- (57) علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1980م ، ص 81 .
- (58) المرجع نفسه ، ص 81 .
- (59) المرجع نفسه ، ص 82 .
- (60) المرجع نفسه ، ص 82 .
- (61) أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، فلسفة المشروع الإسلامي الحضاري ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، واشنطن ، الطبعة الأولى ، 1996م ، ج 1 ،

- (62) المرجع السابق نفسه ، ج 1 ، ص 316 . و مجلة الشهاب الجزائرية ، الجزء السادس ، المجلد الحادي عشر ، جمادى أولى 1354هـ أوت 1935م ، عن آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس ، تحقيق الدكتور عمار طالبي ، ج 3 ، ص 57 و 58 . و محمد طهاري ، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة ، ص 127 و 128 و 129 .
- (63) رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج 1 ، ص 11 . وعلي المحافظة ، مرجع سابق ، ص 82 .
- (64) علي المحافظة ، مرجع سابق ، ص 82 .
- (65) محمد عبدة عبدة ، رسالة التوحيد ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، 1978م ، ص 77 .
- (66) المصدر نفسه ، ص 27 .
- (67) علي المحافظة ، مرجع سابق ، ص 84 .
- (68) المرجع نفسه ، ص 84 .
- (69) المرجع نفسه ، ص 84 .
- (70) المرجع نفسه ، ص 85 .
- (71) المرجع نفسه ، ص 85 .
- (72) المرجع نفسه ، ص 85 و 86 .
- (73) المرجع نفسه ، ص 86 .
- (74) علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ص 86 . ومحمد عمارة ، محمد عبدة مجدد الإسلام ، ص 47 . و أحمد محمد جاد ، فلسفة المشروع الحضاري الإسلامي ، ج 1 ، ص 316 .
- (75) انظر على سبيل المثال : سعيد رمضان البوطي ، حوار حول مشكلات حضارية ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، الطبعة الثالثة ، 1410هـ 1990م ، ص 34 .. ومحمد الغزالي ، علل وأدوية ، مكتبة الشهاب ، الجزائر ، دون طبعة ، دون تاريخ ، ص 87 و 88 و 100 ... 106 . وعبد الحليم محمود ، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ، دار الوفاء والصحوة ، القاهرة، 1405هـ ، ص 522 ... وما كتبه أحمد بهجت ولويس عوض في أهرام سنوات 1983م و 1984م ، وكما كتبه لويس عوض في التضامن سنوات 1984 و 1985م . ثم سيول الكتابات في المسألة العبدوية مرتضى مطهري ، ومحمود عبد الحليم ، وعباس محمود العقاد ، وجرجي زيدان ، وعثمان أمين ، وأحمد أمين ، ومحمد عمارة ، وغيرهم ..
- (76) محمد الغزالي ، علل وأدوية ، مكتبة الشهاب ، الجزائر ، دون طبعة ، دون تاريخ ، ص 87 و 88 و 100 ... 106 .

ثالثا / شاعر الاسلام محمد إقبال

[1294-1357هـ / 1877-1938م]

مفتاح التعرف على شاعر الإسلام محمد إقبال :

ما أجمل التمهيد لفكر إقبال بفقرة من بنيات أفكاره ، تبدو أنها تقدم لنا إقبال خير تقديم ، كما أنها تكشف عن حقيقة جوانب الشخصية الإقبالية المتعددة الجوانب والأبعاد . حيث يقول في كتابه الشهير (تجديد التفكير الديني في الإسلام) : ((.. ما طبيعة الكون الذي نعيش فيه ؟ ما بناؤه العام ؟ هناك عنصر ثابت في تركيب هذا الكون ؟ وكيف نكون بالنسبة إليه ؟ وأي مكان نشغله منه ؟ وما نوع السلوك الذي يتفق وهذا المكان الذي نشغله ؟ هذه المسائل مشتركة بين الدين والفلسفة والشعر العالي الرفيع. غير أن المعرفة المستفادة من هواتف الشعر شخصية بالضرورة ، في نوعها وفي طبيعتها ، وهي مجازية مبهمة غير محددة . والدين - في أكمل صوره - يسمو فوق الشعر ، فهو يتخطى الفرد إلى الجماعة ، وفي موقفه من الحقيقة الكلية يتعارض مع عجز الإنسان وقصوره ، فهو يفسح مطالبه ، ويستمسك بأمل لا يقل في شيء عن شهود الحق شهودا مباشرا . فهل من الممكن إذن أن نستخدم في مباحث الدين المنهج العقلي البحت للفلسفة . إن روح الفلسفة هي البحث الحر ، تضع كل سند موضع الشك ، ووظيفته تقصي فروض الفكر الإنساني ، التي يمحسها النقد إلى أغوارها . وقد تنتهي من بحثها هذا إلى الإنكار ، أو إلى الإقرار في صراحة بعجز التفكير العقلي البحت عن اكتناه الحقيقة القصوى . أما جوهر الدين فهو - على عكس هذا - الإيمان ، والإيمان كالتائر يعرف طريقه الخالي من المعالم غير مسترشد بالعقل ..)) . (1)

يكشف هذا النص حقيقة إقبال من جهة ، وحقيقة فكره وتأملاته من جهة ثانية ، وجوانب شخصيته المتعددة من جهة ثالثة ، التي تتوزع على الأبعاد الستة التالية :

- 1 - إقبال المفكر المتأمل الفيلسوف المتكلم الباحث عن الجوهر والذات والباحث عن الحقيقة المعرفية بالاستدلال .
 - 2 - إقبال العالم الإلهي الصوفي الباحث عن الحقيقة الإشرافية .
 - 3 - إقبال الشاعر صاحب الشعر العالي الرفيع .
 - 4 - إقبال الصوفي الغارق في سباحات الأعماق والأغوار بفلسفة العشق وتأكيد الذات .
 - 5 - إقبال الداعية المصلح المجدد في الإسلام .
 - 6 - إقبال المنافع والمدافع عن الفكر الإسلامي والمرجعية الإسلامية بنفس الأدوات التي يستخدمها أعداؤه من : " عقل . تأمل . تفكير . مساءلة . علم . تجربة .. " . (2)
- وهو فوق كل ذلك أحد رموز التجديد في الفكر الإسلامي الحديث ، إذ استطاع أن يشكل ظاهرة علمية وفكرية وفلسفية وأدبية ودعوية وسياسية جديرة باهتمام واستقطاب الباحثين والدارسين من مختلف البيئات الفكرية والثقافية ولاسيما الغربيين منهم ، حيث بلغت الدراسات التي قامت حوله قرابة الألفي دراسة وبحث ومقال ومصنف . (3) وهذا في حد ذاته مؤشر ومعلم بارز في فكر إقبال .

مدخل إلى أبجديات البيئة والرجل :

يمكن تلخيص وضع الهند والعالم الإسلامي في مطالع العصر الحديث بقول إقبال نفسه حين اختصرها بقوله : ((.. إن أمتنا مطمئنة في الغبار ..)) (4) ، رادا إياها إلى الأسباب والدوافع التالية :

- 1 - الضعف والانحطاط السياسي للدول وللممالك الإسلامية .
- 2 - الضعف الثقافي والحضاري أمام المدنية الغربية الفتية الناهضة .
- 3 - نقشي روح التقليد والتبعية ونبذ روح التجديد والاجتهاد الديني والمدني .
- 4 - التقليد والتبعية العمياء للمدنية الغربية الوثنية .
- 5 - نقشي التصوف السلبي المليء بالأوهام والخرافات والأساطير والرواسب الوثنية . (5)
- 6 - جهل الهنود خاصة بمعرفة تعاليم الإسلام الصحيحة ، المنزهة عن الأوهام والخرافات والأساطير الهندية .. لاعتبارات سياسية وعدائية ولغوية . (6)

7 - تأمر الإنجليز مع الهندوس بعد ثورة 1857م التي قادها المسلمون ضد الاحتلال البريطاني للهند المسلمة ، فسلبوا منهم الأموال والممالك والإقطاعات والأراضي .. (7)

8 - السيطرة الاستكبارية البريطانية على شبه القارة الهندية ، بكل ما تزخر به من موارد طبيعية ومادية ، وإمكانات وطاقات بشرية .

9 - بداية تطبيق المخططات التغريبية على المجتمع الهندي عن طريق أطروحة المفكر سيد أحمد خان ، ومدرسته الفكرية الاستغرابية ، ومن خلاله مررت بريطانيا مشروعها الاستغرابي على جماهير المسلمين في شبه القارة الهندية .

10- تشجيع الإنجليز على ظهور واستفحال حركات الردة والكفر في المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية ، كالحركة القاديانية التي تزعمها عميل الإنجليز (الميرزا غلام أحمد القادياني ت 1908م) والبهائية والبابية ..

11- تراجع وضع المسلمين الاقتصادي والتجاري والاجتماعي ، وتفشي الأمراض والأوبئة والآفات المختلفة : المادية والمعنوية والروحية . (8)

وفي ظل هذه الأوضاع انطلق إقبال طالبا ، وفتى ناشئا ، إلى أن أصبح فيلسوفا مفكرا ، وشاعرا مبدعا ، ومتصوفا سامقا ، وداعيا مجددا ، وسياسيا بارعا .

* مدخل إلى حياة محمد إقبال :

حفلت حياة محمد إقبال بأحداث جديرة بالاهتمام ، بدءا من ولادته ومنشئه ، ونوعية أسرته ورحلته في طلب العلم ، وعودته إلى موطنه ، فجهاده السياسي والفكري والأدبي ، إلى حين وفاته ، وهو ما سنحاول عرضه في هذه المحطات المركزة من حياة الرجل .

* الأصل والمنشأ والنسب والمولد :

* أسرته : ينحدر إقبال من أسرة برهمية كشميرية أعلنت إسلامها قبل قرنين ونصف القرن من ميلاد إقبال نفسه ، وكانت أسرته تنتمي إلى أعيان السادة بكشمير ، وقد هاجر جده الشيخ (محمد رفيق) وإخوته من كشمير من قرية (لوهر) إلى مدينة (ساليكوت) هربا من الاضطرابات السياسية التي كانت قد اجتاحت المنطقة آنذاك ، وكان ذلك بحوالي قرن ونصف من ميلاد إقبال نفسه . (9)

اشتهرت أسرته بعدها بتدينها وتصوفها وقيادتها الدينية ، وهي التي كانت مبعث الفخر لإقبال نفسه ، الذي كان يفخر بأصله البرهمي من ناحية الجنس والعرق ، وانتمائه للإسلام عن طواعية

واختيار . (10)

كان والده عاملا ماهرا في الخياطة والتطريز ، كثير الصحبة لأهل العلم والفقهاء ، كثير السؤال والطلب حتى سموه (الحكيم أو الفيلسوف الأمي) ، وقد تشدد مع ولده محمد إقبال لأجل حفظ القرآن الكريم حتى حفظه ، وكان والده يُسمى الشيخ (نور محمد) . (11)

وكانت أم إقبال (إمام بي) تحسن القراءة والكتابة بالأوردية ، مثقفة واعية بدين الإسلام ، زانها معه كثرة تقواها وورعها ، حتى أنها رفضت أن تأكل من مال زوجها لإقامته علاقة مشبوهة مع أحد الوزراء آنذاك ، وكان الوزير معروفا بتعاملاته اللامشروعة كأكل الرشوة .. (12) ، إلى أن بين لها طبيعة علاقته بذلك الرجل ، حيث كانت العلاقة بينهما تدور حول مناقشة علمية صوفية . وقد مجّد محمد إقبال أمه في أحد دواوينه بقوله : ((.. لقد كانت قبلة وقدوة في الدين والدنيا ..)) (13) ، وقد توفيت والدته سنة 1914م 1333هـ ، وتوفي والده سنة 1930م 1349هـ بعد أن عمّر طويلا . (14)

* **مولده ونشأته وتعلمه** : ولد محمد إقبال يوم 03/ذو القعدة/1294هـ الموافق 09/نوفمبر/1877م بمدينة ساليكوت الهندية (15) . وقد تلقى العلم في مطالع حياته الأولى على يد والده ، الذي علمه شيئا من القرآن الكريم ، ورغب له أن يتعلم الدين الإسلامي فقط . (16) ، لما قارب الخمس سنوات ذهب به والده إلى حلقة الشيخ (غلام حسين) فشرع في حفظ القرآن الكريم ، ولما رأى الشيخ مخايل الفطنة عليه وأنه يصلح لتعلم العلوم الكونية أيضا ، أشار على والده بإدخاله إلى المدارس الحديثة ، فقبل الأب النصيحة ، وأدخل ابنه إلى المدرسة (الإسكوتية) بساليكوت الحديثة ، بعد أن حفظ قدرا معتبرا من القرآن الكريم ، بدا ذلك واضحا في أشعاره . (17)

وفي المدرسة الحديثة بساليكوت وضعه والده تحت رعاية صديقه (مير حسن) الذي شرع في تعليمه الأدبين الفارسي والعربي ، وفي تلك المدرسة ظهرت فطنته وذكاءه فنال الكثير من الجوائز . (18)

وفيها أيضا تأثر تأثرا بالغا بأستاذه (مير حسن) العالم المستتير الفكر ، الذي حرص على تعليمه والعناية به علميا وفقهيا وثقافيا ، لإمامه بالعلوم الدينية والمدنية ، وهو أول من رعى شاعرية محمد إقبال الأولى ، ووجهه إلى الكتابة باللغة الأوردية بدلا من اللغة البنجابية، لأن اللغة الأوردية هي اللغة الأكثر رواجاً في شبه القارة الهندية بين المسلمين . (19)

ومن شدة تأثيره بأستاذه (مير حسن) أن رثاه أعظم رثاء عند رحيله إلى إنجلترا عام 1905م ، وعندما عرض عليه حاكم مدينة (لاهور) تكريمه بلقب (سير) عام 1923م اشترط لقبول هذا اللقب أن يُكرم أستاذه (مير حسن) ليحمل وسام (شمس العلماء) فأجيبته رغبته . (20)

* ثقافته ورحلاته العلمية :

في عام 1895م اجتاز محمد إقبال امتحان القسم العاشر بأعلى معدل ومنحة ممتازة ، لينتقل إلى مدينة (لاهور) حاضرة العلم والأدب والفكر والفن عاصمة البنجاب ، المليئة يومها بالنوادي والمجامع التي تحرص على نشر وتعميم اللغة الأوردية ، وفي (لاهور) التحق بالكلية الحكومية المعروفة حاليا بكلية إقبال ، وبعد عامين من الجد والاجتهاد والعمل والمثابرة التي فاق بها أقرانه حصل على شهادة (أ . ب) الليسانس بامتياز عام 1897م مع أوسمة وشهادات شرفية . (21)

وفي السنة نفسها (1897م) عُين أستاذا في الكلية نفسها ، وبعدها بعامين 1899م عُين في كلية اللغة الشرقية مدرسا للغة العربية إلى سنة 1903م ، وهي الكلية التي كان السيد السير (توماس أرنولد) رئيسا لها ، فتوطدت بينهما العلاقة إلى أن وفاة السيد (توماس أرنولد) سنة 1930م . (22)

وبعد تدرسيه التاريخ والعربية سنتين (1899-1903م) في كلية اللغات الشرقية عُين لتدريس الفلسفة واللغة الإنجليزية في الكلية الحكومية (1903-1905م) بـ (لاهور) ، فذاع صيته بين الطلاب والأساتذة وأهل المدينة . (23)

وأثناء إقامته بـ (لاهور) أقام صلات عديدة مع رجال الفكر والثقافة والأدب ، وانضم إلى جمعية (حماية الإسلام) عام 1899م وصار عضوا بارزا فيها (24) . كما شارك بشعره في نشاطات (جمعية مسلمي كشمير) لتصحيح تصورات الإسلام الخاطئة حول الإسلام في الهند ، وصار مديرا ورئيسا لهذه الجمعية سنة 1901م . (25)

وفي (لاهور) حاضر وألف وحقق ودعا وناظر وصحح و .. وقام بواجب الدعوة إلى الله تعالى .

وفي الفترة الممتدة بين سنتي (1901-1904م) حصل محمد إقبال على شهادة الماجستير في الفلسفة (م . أ) ، واجتاز مسابقة القضاء التي رفض فيها نظر لسوء صحته . (26) ، هذا

بالإضافة إلى مشاركاته ونشاطاته المختلفة الفكرية والأدبية والتربوية والدعوية ..

وما يلاحظ على حياته الملاحظات التالية :

- 1 - انتسابه لأسرة مسلمة شديدة التمسك بالإسلام ، التي علمته مبادئ الدين ، وحفظته قدرا معتبرا من القرآن الكريم .
 - 2 - تكوينه الطفولي المتأسس على الدين ، وذلك بتلقيه العلوم الدينية والعربية واللغوية الأولى في سني حياته الأولى .
 - 3 - ظهور مخايل الفطنة والذكاء عليه مبكرا .
 - 4 - تفتق شاعريته منذ طفولته المبكرة .
 - 5 - تلقيه العلوم الحديثة .
 - 6 - حصوله على كل الشهادات العلمية المعتمدة في بلاده .
 - 7 - تنوع وتوزع نشاطاته الرسمية وغير الرسمية والمهنية والجمعوية .
- * رحلته العلمية إلى أوروبا :

دفعت محمد إقبال للهجرة إلى خارج وطنه وبالتحديد باتجاه أوروبا جملة من العوامل لعل

أهمها الآتي :

- 1 - فشله في النجاح في مسابقة القضاء .
- 2 - حصوله على شهادة الماجستير في الفلسفة .
- 3 - رغبته الملحة في التعلم وطلب الاستزادة من المدنية الأوربية الناهضة .
- 4 - تشجيع أستاذه وصديقه السير (توماس إرنولد) للهجرة إلى أوروبا .
- 5 - حصوله على ثقة ودعم وزارة المعارف للدراسة في أوروبا . (27)

* محطات الرحلة : ولما أن أوان سفره وخروجه من الهند مر برموز إسلامية بارزة كالأضرحة

والقبور والمزارات لاعتبارات التنبيه إلى صدق صلته بهويته الهندية الإسلامية ، حيث نزل بإنجلترا أواخر سنة 1905م ، أين سجل بجامعة (كمبريدج) بمساعدة أستاذه وصديقه (توماس إرنولد) ، وسجل لدراسة الفلسفة والحقوق ، وهناك ربطته العلاقة العلمية والفكرية والثقافية بالوجوه الفكرية والثقافية في بريطانيا ، وفي الوقت الذي كان يحضر فيه لدراسة الدكتوراة عن (تطور الميتافيزيقا في بلاد فارس) كان على ارتباط بكلية الحقوق والقانون ، ونال منها شهادة الدكتوراة عام 1907م، وتولت الجامعة نشرها عام 1908م . (27)

وفي ربيع عام 1907م توجه إلى ألمانيا ، وسجل الدكتوراة في جامعة (ميونيخ) ، ونال منها درجة الدكتوراة أيضا باللغة الألمانية عن الموضوع نفسه المسجل في جامعة (كمبريدج) ، لأن الجامعات الألمانية تهتم بلغة الكتابة أولا ثم بمضمونها ثانيا . ثم عاد إلى (لندن) سنة 1908م ليجتاز امتحان القضاء والمحاماة ومعهما نال إجازة مادتي السياسة والاقتصاد . (28)

وفي (لندن) عمل في جامعة (كمبريدج) أستاذا للغة العربية بتوجيه وتزكية من أستاذه (توماس إرنولد) . وفي أوروبا اطلع على أدب وفكر وثقافة ومعرفة كبار الأدباء والشعراء والكتاب والفلاسفة ، كما حاضر وناظر ودافع عن الإسلام ومرجعياته المقدسة ، ورد كل مطاعن المستشرقين والمستغربين ، فعد بذلك باحثا دينيا . (29)

وظل طيلة بقائه في أوروبا يُعرف بذلك الفتى الهندي المسلم ، المدافع عن حمى الإسلام، الناقد للمدنية الغربية الضالة ، حيث يقول عنها في إحدى قصائده : ((.. يا ساكني ديار الغرب ، ليس أرض الله حانوتا ، إن الذي تتوهمونه ذهبيا خالصا سترونه زائفا ، وإن حضارتكم ستذبح نفسها بخنجرها ، إن العش الذي بُني على غصن دقيق لا يثبت ، إن بريق العلوم الغربية لم يستطع أن يبهر لبي ويُعشي بصري ، وذلك لأنني اكتحلت بإئتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ..)) . (30)

وفي أوروبا ظل إقبال يُعرف بالفتى الهندي المسلم المدافع عن دينه وأمته ، وانضم في إنجلترا إلى (جمعية مسلمي العالم) تعبيراً عن انتمائه الوحيد للإسلام ، الذي طالما اعترز وفاخر به دوما . (31)

وما يلاحظ على حياته في أوروبا الآتي :

- 1 - حصوله على شهادتي الدكتوراة من أكبر وأعرق الجامعات الأوربية (كمبريدج بالإنجليزية ، ميونيخ بالألمانية) .
- 2 - حصوله على شهادة المحاماة والإجازة فيها .
- 3 - تخصصه في دراسة القانون السياسي والاقتصادي .
- 4 - إتقانه للغة عالمية أخرى هي اللغة الألمانية .
- 5 - اتصاله برجال الفكر والأدب والفن والثقافة في أوروبا .
- 6 - تمسكه بأصالته ودينه ومبادئه الإسلامية ، ورفضه الانسلاخ والتبعية كما فعل الكثير من المبتعثين العرب .

- 7 - مدافعتة عن الإسلام عن الأمة الإسلامية على العكس من المبتعثين العرب في أوربا .
8 - عدم انبهاره بحضارة ومدنية الغرب الزائفة ، التي كان دائم النقد لها .

*** عودته إلى وطنه :**

وبعد هذه الرحلة العلمية المثمرة عاد إلى وطنه في صيف 1908م ، وكان في استقباله حوالي مائة وخمسين رجلا من خيرة المثقفين المسلمين الهنديين ، فزار ضريحا لولي مسلم إيمانا منه بإسلامية الهند ، وتذكيرا لمسلمي الهند بالإسلام . (32)
وفي الهند اشتغل بالوظائف التالية :

- 1 - عمل بالتدريس في الكلية الحكومية ، فدرّس الفلسفة والأدبين العربي والإنجليزي ، وبعد مضي سنتين استقال من التدريس لينتقل لرئاسة قسم الفلسفة والدراسات الشرقية . (33)
- 2 - عمل بالمحاماة والدفاع عن قضايا الإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية .
- 3 - التفرغ لخدمة الدين والدعوة الإسلامية .
- 4 - الكتابة والتأليف في الأدب والفن والفكر والثقافة والدعوة وفي الشعر خاصة . (34)
- 5 - الانخراط في الجمعيات الاجتماعية والثقافية والفكرية والأدبية كجمعية (حماية الإسلام) والجمعية (العلمية المالية) سنة 1927م . (35)

*** العوامل المؤثرة في شخصية محمد إقبال :**

اجتمعت جملة من العوامل الفعالة للتأثير في شخصية الشاعر محمد إقبال وتكوين المعالم الأساسية في شخصيته لعل أهمها :

- 1 - ثقافته الإسلامية الأصيلة ، وتربيته وتكوينه الإسلامي الأصيل الأول في أسرته ، المتمسم بالصرامة والجد والبساطة والتواضع .
- 2 - ثراء ثقافته الأدبية واللغوية المتعددة : [الأوردية . الفارسية . البنجابية . الإنجليزية . الألمانية . العربية] .
- 3 - ثقافته الدينية الواسعة ، وتدينه الشديد ، وتأثره بوصايا أستاذه الشيخ (مير حسن) .
- 4 - اطلاعه على الثقافة الغربية في موطنها ومعايشتها بين منتجها .
- 5 - ظروف وواقع المسلمين المتردي في شبه القارة الهندية المتمسم بالتردي والانحطاط .
- 6 - ظروف وواقع المسلمين العالمي المشابه لأوضاع المسلمين في الهند .
- 7 - سقوط الممالك الإسلامية القوية : [المملكة المغولية في الهند . المملكة الصفوية في إيران .

الخلافة العثمانية] .

8 - شاعريته وحساسيته المفرطة في استبصار الأشياء وتلمح القضايا والتعامل المرهف مع سائر شؤون الحياة الروحية والمعنوية والأدبية والواقعية والمادية .

9 - إيمانه الراسخ برسالة الإسلام الخالدة ، رسالة الشرق الإسلامي الحضارية المنقذة للمدنية الغربية الضالة .

10- طبيعة العلاقة القائمة بين الغرب المسيحي الاستكباري والشرق الإسلامي المستعبد. (36)
* نشاطاته المختلفة :

بالرغم من تعدد جوانب شخصية محمد إقبال العلمية والفكرية والثقافية والأدبية والدينية والسياسية ، وتخصصه في السياسة والاقتصاد والقانون والمحاماة ، إلا أنه لم يشتغل بالسياسة إلا في أخريات حياته ، حوالي سنة 1924م ، مدفوعا بعدة اعتبارات ذاتية وموضوعية على رأسها ظلم وجور الإنجليز ، وقسوة الحكام الهندوس ، وفضاعة الجرائم التي ترتكبها الأغلبية الهندوسية ضد المسلمين . الأمر الذي اضطره لدخول معترك الانتخابات التشريعية سنة 1926م وفاز فيها ممثلا عن مسلمي الهند ، وظل عضوا في مجلس الشورى لإقليم البنجاب المسلم ، وأصدر عدة قرارات شرعية لصالح المسلمين الهندود ، كما ترقى فصار رئيسا لمجلس شورى الإقليم سنوات 1927..1930م . (37)

وعلى ضخامة مشكلات المسلمين في شبه القارة الهندية وما يتعرضون له من قهر واعتداء وظلم على يد الإنجليز والهندوس ، بحيث ينشغل انشغالا تاما بهموم وطنه الصغير ، إلا أن عينه كانت ترنو أفقه الإسلامي القريب والبعيد ، فقد تعدت نشاطات سائر قضايا العرب والمسلمين ولاسيما قضيتهم المركزية فلسطين . (38)

ولما بدت صورة المستقبل السياسي لشبه القارة الهندية يرسم في الأفق القريب ، وظهر خطر ضياع أمل المسلمين في الاستقلال اقترح عليه الزعيم السيد (محمد علي جناح)

ترؤس الجلسة الافتتاحية السنوية للرابطة الإسلامية يوم 1930/08/17م ، وألقى فيها خطابا مؤثرا ، شكّل بداية التفكير في تقسيم الهند إلى كيانين ، أحدهما هندوسي ، وثانيهما إسلامي ، وكان لخطابه سبق في طرح مسألة التقسيم للكيانين ، وبناء الكيان الإسلامي السياسي في شبه القارة الهندية ، والتي شكّلت خطابا تمهيديا لمطالب الرابطة الإسلامية والجماعة الإسلامية لقيام دولة الطاهرين في شبه القارة الهندية (باكستان) . (39)

وفي عام 1931م قام إقبال برحلة علمية وفكرية وثقافية ودعوية زار فيها الكثير من العواصم الأوروبية : [روما . باريس . لندن . مدريد . قرطبة] ، كما زار بعض العواصم العربية آنذاك [القاهرة . القدس] ، فحاضر ، وناظر ، وخطب ، ودعا إلى ضرورة معرفة الإسلام حق معرفته ، وإلى ضرورة إنصاف المسلمين في حقوقهم السياسية ، وفي إنشاء كياناتهم المستقلة . (40)

وبين سنتي 1930 و 1935م قام بعدة نشاطات وزيارات سياسية ، التقى فيها بأمير الجماعة الإسلامية ، إلى أن ضعف بصره ، وفترت قوته ، وتدهورت صحته ، فلزم البيت وسرعان ما خطفت يد الأقدار منه روح زوجته يوم 1935/05/23م ، فحزن لفراقها ، واشتد به المرض وتوفي يوم 1938/04/21م . (41)

وقد تزوج إقبال ثلاث مرات ، وأنجب من زواجه الأول ابنا وابنة ، ومن زواجه الثاني بنتا ، ومن زواجه الثالث أنجب ابنه (جاويد) قاضي المحكمة العليا بمدينة (لاهور) . (42)

*** آثاره العلمية والأدبية :**

لمحمد إقبال آثار فكرية وفلسفية وثقافية وأدبية ولغوية باللغات الفارسية والأوردية والإنجليزية والبنجابية والعربية والألمانية . أما آثاره باللغة الفارسية فكلها منظومات شعرية ، وباللغة الأوردية مقررات تعليمية ، أو منظومات شعرية ، أما باللغة الإنجليزية فهي بحث الدكتوراة ، ومجموعة المحاضرات والدروس والخطب واللقاءات والحوارات والرسائل ، وبالألمانية رسالته للدكتوراة ، وبالعربية بعض محاضراته وخطبه ورسائله وأشعاره . (43) أما آثاره المطبوعة فقد بلغت ثلاثا وعشرين مؤلفا شعريا ونثريا في شتى المعارف والفنون والآداب . (44)

*** مساهماته ونشاطاته المختلفة :**

ساهم إقبال مساهمة فعالة في الكثير من الميادين والمجالات ، فقد خدم الإسلام ، ودعا إليه ، ودافع عنه ، وقد عبر عن ذلك في أمنيته فقال : ((إن أمنيتي أن أكون خادما لخلق الله ما امتدت بي الحياة)) (45) . كما اضطلع بخدمة قضايا العرب والمسلمين المحلية والعالمية ، وتعزيز موقعهم بين الأقوياء المتغلبين . (46)

*** موقفه من المدنية الغربية ودعاة التغريب :**

لمحمد إقبال مواقف فكرية واضحة من سائر قضايا عصره الأدبية والفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والدعوية المحلية والعالمية ، لعل أهمها موقفه من المدنية الغربية ، ومن

دعاة التغريب في العالم الإسلامي ، وباستعراض بعض أفكاره تقترب منه ، حيث يحدد موقفه من المدنية الغربية بحكم احتكاكه بها احتكاكا مباشرا ، متأثرا من حالة الذهول والانبهار التي كان عليها الكثير من الدارسين العرب والمسلمين ، ما دفع ببعضهم إلى الانسلاخ من دينهم وأمتهم ، وفي معرض ذمه لهذه المدنية المتآكلة الضالة ، التي تأسست على الثورة على الدين ، مقدمة نفسها بديلا للدين ، عبر معابدها الوثنية في الثقافة والفن والأدب والاقتصاد والمال والتكنولوجية والعلاقات قوله : ((.. ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتانة تجلب فتنا وتعيد اللات والعزى إلى الحرم . إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشا في سرابها ، إنها تقضي على لوعة القلب ، بل تنزع القلب من القالب ، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهارا جهارا ، وإنها تدع الإنسان لا روح ولا قيمة فيه ..)) . (47)

هذه المدنية التي تأسست على تبديل وتغيير فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها ، هذه المدنية التي حولت كل شيء إلى تجارة وريح وخسارة ، حيث يقول : ((.. إن شعار هذه المدنية الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشري ، وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لا يسعد اليوم بالسلام والهدوء والحب البريء النزيه ، وبالإخلاص لله تعالى ، إلا حين تنهار هذه المدنية ..)) . (48)

هذه المدنية التي شعارها الفتك بالإنسان والإنسانية ، فيعيب عليها قائلا : ((.. إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم ، الذي تقوم عليه تجارتها ، وتتفق سلعتها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكى ، الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم ، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم يعد هذا النظام رأسا على عقب ..)) . (49)

هذه المدنية الشابة بحدثة سنها وعمرها ، المنهارة بانهايار قيمها الزائفة : ((.. إنها حضارة شابة - بحدثة سنها ، وبالحيوية الكامنة فيها - ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف انفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك ، فإن كل وكر يقوم على غصن ليس له استقرار ، سينهار حتما . ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود .. إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ، وجدرانها من زجاج لا تحتمل صدمة ..)) . (50)

فهي تكبر وتتضخم بغير روح ، ولقد : ((.. تضخم فيها العلم وتقدمت صناعتها ، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة . إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء

وحسن المظهر والنظافة . إن تجارتها قمار يريح فيه واحد ويخسر الملايين . إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح بها أوربا ما هي إلا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة . إن قادتها يمتصون دماء الشعوب ، وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ..)) (51) .

إنها مدنية مفلسة حائرة لأن : ((.. البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدنية الإفرنجية . وإن الأمة التي لا نصيب لها في التوجه السماوي والتنزيل الإلهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار . إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ، ويقتل فيها الحنان والوفاء ، والمعاني الإنسانية الكريمة ..)) (52) .

وقد أفرزت لنا هذه المدنية المتوحشة نوعا هجيناً من البشر ، إنه الإنسان المادي الطبيعي الأوربي : ((.. الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة ، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو .. الإنسان العصري ، وقد أعشاه نشاطه العقلي ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس ، وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حبا طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق في الواقع .. فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية ، هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه، والذي أركه " هكسلي " وأعلن سخطه عليه ..)) (53) .

إن إقبال لا يفصل بين المدنية الغربية الرأسمالية الجمهورية والملكية والشيوعية ، فهما في نظره وجهين لعملة واحدة فهو يرى أن : ((.. الاشتراكية الملحدة الحديثة لها نظرة أوسع أفقا ، لكنها قد استمدت أساسها الفلسفي من المتطرفين من أصحاب مذهب " هيجل " ، وقد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذي كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف . وهي إذن ليست بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية .. إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية، وذهبوا يبحثون عن الروح في المعدة . إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا بالمعدة والبطن ، وديانة ماركس مؤسسة على مساواة البطون . إن الأخوة الإنسانية لا تقوم على

وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس .. إن الملوكية والشيعوية تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسامة ، والجهل بالله، والخداع للإنسانية . والحياة عند الشيعيين خروج ، وعند الملوكية خراج .. والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج . إن الشيعوية تقضي على الدين والعلم والفن . والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء ، وتسلب القوت من أيدي العاملين الفقراء . لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة . جسمهما قوي ناصر ، وقلبهما مظلم فاجر ..)) . (54)

* موقفه من دعاة تغريب العالم الإسلامي :

وكموقفه من المدنية الغربية المفلسة ، يقف إقبال موقفه من دعاة تغريب العالم الإسلامي ، ولاسيما ممن يتبنون الطروحات التغريبية كمشروع بديل للطروحات الإسلامية في بناء الحضارة الحديثة . هذا الاتجاه الذي لاقى - ومازال يلقى - إقبالا فكريا وواقعا لدى الكثير من النخب المتأغربة العربية والإسلامية . وقد حدد إقبال موقفه منهم ، مبينا لهم عجز المدنية الغربية وقصورها عن إسعاد أهلها وأصحابها تمام السعادة ، فكيف تعجز لدى أهلها وتفلح عند غيرهم لأنها : ((.. حضارة قد أشرفت على الموت ، فهي لا تستطيع أن تحي غيرها ، وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها ، وكافأت خيرها بشر ، فقد منحها الشام نبيا ، رسالته العفة والمواساة والرحمة ، ومقابلة الشر بالخير ، والظلم بالعمو . وقد منحتة أوربا - بدورها ومقابل كل ذلك - الخمر والقمار والفجور وهجوم المومسات ..)) . (55)

وقد عاب في معرض رده ونقده لدعاة التجديد في الشرق الإسلامي ارتماءهم في أحضان المدنية الغربية ، وانسلاخهم من ماضيهم التليد ، وتقليدهم الأرعن والأعمى للغرب ، بحجة التقليد والعصرنة والحدثة ، فقال عن هؤلاء المتأغربين : ((.. إنني يائس من زعماء التجديد في الشرق ، فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة ، وبضاعة مزجاة من العلم والفكر .. إن البحث عن برق جديد في هذا السحاب عبث وإضاعة وقت ، فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم ، فضلا عن البرق الجديد ..)) . (56)

داعيا أمتة للتجديد والاجتهاد ، ورفض كل أشكال التقليد الأعمى للغير ، لأن التقليد هو الذي يقتل حياة الأمم ، ويدعو المسلمين إلى الانطلاق نحو التجديد قائلا : ((.. لا تعطل شخصيتك أيها المسلم بالتقليد الأعمى ، واحتفظ بكرامتك فإنها جوهر الفرد . إن التجديد بمعنى التغريب لا يليق بأمة لا تفكر إلا في الدعة والترف . إنني أخاف أن الدعوة إلى التجديد إنما هي

حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب ..)) . (57)

وفي معرض رده ونقده على التجربة الكمالية في تركيا ، وترديها الأعمى في تقليد الغرب وتبعيته ، وثورتها على الدين الإسلامي يقول : ((.. إن كما الذي تغنى بالتجديد في حياة تركيا ، ودعا إلى محو كل أثر قديم ، وتراث قديم . ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدد ، ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جُلبت لها من أوروبا أصنام جديدة . إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة ، إنما هي كلها أغان مرردة معادة ، تتغنى بها أوروبا من زمان . إن الجديد عنده هو القديم الأوربي الذي أكل عليه الدهر وشرب . وليس في ضميره عالم حديث ، فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوربي المعاصر ، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته ..)) . (58)

* موقفه من الحضارة الإسلامية وواقع المسلمين اليوم :

يمكن تلخيص موقف إقبال من خلال قصيدته الشهيرة " شكوى " ، وقصيدته الشهيرة الثانية " جواب الشكوى " اللتين أنشدهما قبيل رحلته العلمية إلى أوروبا سنة 1927م ، نقتطف منهما هذه الأبيات :

شكواي أم نجواي في هذا الدجي	ونجوم ليلى حسدي أم عؤدي
أمسيت في الماضي أعيش كأنما	قطع الزمان طريق أمسي من غدي
والطير صادحة على أفنانها	تبكي الرى بأينها المتجدد
قد طال تسهيدها وطال نشيدها	ومدمعي كالطل في الغصن الندي
فإلى متى صمتي كأني زهرة	خرساء لم ترزق براعة منشد
أنا ما تعديت القناعة والرضى	لكنما هي قصة الأشجان
أشكو وفي فمي التراب ، وإنما	أشكو مصاب الدين للديان
يشكو لك اللهم قلب لم يعش	إلا لحمد علاك في الأكوان
قد كان هذا الكون قبل وجودنا	روضا وأزهارا بغير شميم
لما أطل محمد زكت الرى	واخضر في البستان كل هشيم
نحن الذين بنور ويحك أوضحو	نهج الهدى ومعالم الإيمان
كنا جبالا في الجبال وربما	سرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الإفرنج كان أذاننا	قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم نخش طاغوتا يحارنا ولو
ندعوا جهارا لا إله سوى الذي
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه
فغدت صدور المؤمنين مصاحفا
رحماك رب هل بغير جباهنا
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفا
قد هبت الأصنام من بعد البلى
والكعبة العليا توارى أهلها
وقوافل الصحراء ضلّ حداتها
فإذا وهى الإسلام في أبنائه
عاقبتنا عدلا فهب لعدونا
عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم
للموت بين الذل والإملاق. (59)

وقد رد محمد إقبال على نفسه بقصيدته الثانية " جواب الشكوى " نقتطف منها قوله :

كلام الروح للأرواح يسري
هتفت به فطار بلا جناح
ومعدنه ترابي ولكن
لقد أمضت دموع العشق مني
ولكن ألدوا في خير دين
تراث محمد قد أهملوه
أباكم كان إبراهيم لكن
لقد ذهب الوفاء ، فلا وفاء
إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ومن رضي الحياة بغير دين

وتدركه القلوب بلا عناء
وشق أنينه صدر الفضاء
جرت في لفظه لغة السماء
حديثا كان علوي النداء
بنى في الشمس ملك الأولينا
فعاشوا في الخلائق مهملينا
أرى أمثال أزر في البنيا
وكيف ينال عهدي الظالمينا
ولا دنيا لمن لا يحيي دينا
فقد جعل الفناء لها قرينا . (60)

والقارىء المستبصر في هاتين القصيدتين سيكتشف دونما عناء إسلامية إقبال الحارة ،
وصفاء تصوره النقي ، وتمييزه بين المدنية الغربية الضالة ، وبين الحضارة الإسلامية الراشدة .
والحق أن لإقبال مواقف متعددة حيال قضايا الأمة الإسلامية الفكرية والثقافية والأدبية والفنية

والفلسفة النظرية والواقعية ، عرضها في شعره ونثره وكتاباتة . (61)

* جوانب شخصية إقبال :

محمد إقبال شخصية متعددة الجوانب ، ممتدة النشاطات ، متشعبة العطاءات ، فأقبال داعية إسلامي نشيط ، ومصلح ديني غيور ، وفيلسوف بعيد الغور ، ومفكر فضائي التأمل والبرهان ، ومتصوف إشراقي التحليق ، وسياسي قدير ومحنك ، وفوق كل هذا وذاك فهو شاعر مرهف الشاعرية ، ولقد اشتهر لدى الدارسين والباحثين العرب والمسلمين وغيرهم بلقب " شاعر الإسلام " . (62)

ولعلنا نعرض بعض الجوانب المهمة من شخصيته ، نوجزها في الجوانب الأربعة التالية :

- 1 - إقبال الفيلسوف ، 2 - إقبال الشاعر ، 3 - إقبال الداعية المفكر ، 4 - إقبال المتصوف .

1 - إقبال الفيلسوف :

فكر إقبال في معضلة المسلمين الحديثة ، بحكم تخصصه وتضلعه في الفلسفة ، فرأى واقع المسلمين المتمسك بالضعف والتخلف والجمود ، وتساءل كما فعل من سبقه من المفكرين والمصلحين ، ورد سبب ذلك كله إلى ضعف وتراجع العقل المسلم عن الابتكار والتجديد ، وذلك بتجميد الاجتهاد والخنوع إلى السلبية الصوفية ، والتقليد الأعمى ، أو إلى الانسياق الأرعن والأعمى لتقليد ومحاكاة الغرب الأوربي .

وبناء على تصوره للمشكلة ، وتصوره لأسبابها ودوافعها وضع إقبال تصوره لمعالجة عمق معضلاتها في الجانب الفلسفي ، تجلت في كتابه الشهير " تجديد التفكير الديني في الإسلام " الذي هو عبارة عن ست محاضرات ألقاها سنة 1928م في جامعة (مدراس) بطلب من جمعيتها الإسلامية ، ثم نُشر ككتاب سنة 1930م بلندن ، وُترجم إلى العربية سنة 1955م بترجمة المرحوم المفكر الأستاذ " عباس محمود العقاد " . (63)

ولقد حدد إقبال في مقدمة كتابه منهجه الفلسفي والبحثي في التعامل مع قضايا الفكر الإسلامي بقوله : ((.. ولقد حاولت في هذه المحاضرات التي أعدتها بناء على طلب الجمعية الإسلامية بمدراس ، وألقيتها في مدراس وحيدر آباد وعليكرة ، بأن أحاول بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جيدا ، أخذا بعين الاعتبار المآثر من فلسفة الإسلام ، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة ، واللحظة الراهنة مناسبة كل المناسبة لعمل كهذا

. لقد تعلمت الطبيعيات القديمة نقد أسسها التي قامت عليها أولاً ، فأدى هذا النقد إلى سرعة اختفاء المادية التي قالت الطبيعيات بوجودها أول الأمر .. وليس ببعيد ذلك اليوم الذي يكشف فيه كل من الدين والعلم اتفاقاً متبادلاً بينهما لم يكن حتى اليوم منتظراً .. على أنه ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن التفكير الفلسفي ليس له حد يقف عنده ، فكلما تقدمت المعرفة ، وفتحت مسالك جديدة للفكر ، أمكن الوصول إلى آراء أخرى ، غير التي أثبتتها في هذه المحاضرات ، وقد تكون أصح منها . وعلى هذا فواجبنا يقضي أن نرقب في يقظة وعناية تقدم الفكر الإنساني ، وأن نقف منه موقف النقد والتمحيص .. ((. (64)

وبعد أن حدد محمد إقبال منهجه الفلسفي في بحث ودراسة الفكر الفلسفي في الإسلام ، والذي يراه قائماً على مستويين ، أولهما : التراث الفلسفي الإسلامي من جهة . والتراكم الخبراتي الإنساني من جهة ثانية . وهما عمدتاه في فهم العضلات الكبرى في الفلسفة الإسلامية ، انطلق عبر محاضراته الست تناول أهم قضايا الفكر الفلسفي في الإسلام فيها ، وهي : [1 - المعرفة الرياضية والدينية . 2 - البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية . 3 - والألوهية ومعنى الصلاة . 4 - روح الثقافة الإسلامية . 5 - مبدأ الحركة في بناء الإسلام . 6 - هل الدين أمر ممكن .] .

وقد تميز طرحه في المحاضرة الأولى بتناول معضلة المعرفة العلمية وطبيعتها ومنهجها ، والمعرفة الدينية ، وذلك في شكل تساؤلات فلسفية حرة عن طبيعة الكون الذي نعيش فيه ، والسؤال عن بنائه العام ، والسؤال عن العناصر الثابتة والمتغيرة فيه ، وموضع الإنسان الذي يشغله الإنسان في هذا البناء ، في طرح فلسفي تشترك فيه الفلسفة مع الدين .

ثم انطلق بعد ذلك للإجابة على تساؤلاته تلك ، محاولاً توضيح طبيعة التناظر بين تساؤلات المفكر الفيلسوف ، والعالم المتدين ، في سياق تألّفي لا تجد ثمة فرق بين تساؤلات العالم الديني والفيلسوف ، على اعتبار عدم تناظر العلم والدين ، فيقول : ((.. على أن النظر العقلي في الإيمان ليس معناه التسليم بتعالى الفلسفة على الدين ، فللفلسفة من غير شك حق الحكم على الدين ، ولكن طبيعة ما يراد الحكم عليه لن تُدعن لحكم الفلسفة ، إلا إذا كان هذا الحكم قائماً على أساس ما يضعه هو من شرائط . وعندما تنتهي الفلسفة للحكم على الدين لا تستطيع أن تفرد له مرتبة دنيا بين الموضوعات التي تتناولها . فالدين ليس أمراً جزئياً ، وليس فكراً مجرداً فحسب ، ولا شعوراً مجرداً ، ولا عملاً مجرداً ، بل هو تعبير عن الإنسان كله ، ولهذا يجب على الفلسفة

عند تقديرها للدين أن تعترف بوضعه الأساسي ، ولا مناص لها عن التسليم بأن له شأنًا جوهريًا في التأليف بين ذلك كله تأليفاً يقوم على التفكير ..)) . (65)

ثم يعكف بعد ذلك استعراض التراكم الفلسفي القديم ، ولاسيما اليوناني منه ، مارا بسقراط ، الذي قصر كل همه على عالم الإنسان وحده ، وعدم الالتفات إلى الكون الذي حوله لمعرفة نفسه وذاته ، مخالفاً بذلك روح القرآن الكريم { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم .. } ، مارا بتلميذه أفلاطون ، الوفي لتعاليم أستاذه في التمييز بين الإدراك الحسي الداخلي والخارجي الذي يعتمد على الحواس . منتقداً الفكر الفلسفي الإسلامي الذي قرأ القرآن على ضوء التراث الفلسفي اليوناني ، دون التنبه إلى تعارض روح القرآن مع روح الفلسفة اليونانية .

منتقداً موقف المعتزلة الذين حولوا همهم لإدراك الدين - وفق المنطق اليوناني - على أنه مجموعة من العقائد ، متجاهلين على أنه حقيقة حيوية ، معتبرين إياه جملة من الأنساق المنطقية التي تصدق أحكامه عليها أو تخالفه . عارضاً بعد ذلك سر الخلاف القائم بين الفيلسوف ابن رشد الأندلسي الوفي للفلسفة اليونانية العقلانية ، ورأي أبي حامد الغزالي الناقم على العقل ، الذي عدّه قاصراً عن إدراك الحقيقة الدينية ، متجهاً إلى القلب لجلب المعرفة حول الدين . (66)

ثم يعرض محمد إقبال لموقع العقل ومكانته في الإسلام فيقول : ((.. إن الهدف الرئيسي للقرآن هو أن يوقظ في نفس الإنسان شعوراً أسمى بما بنه وبين الخالق ، وبين الكون من علاقات متعددة ، ولقد كان هذا المنزح التعليمي للقرآن ..)) . (67)

كما يعرج في محاضراته الست على القرآن يستشهد به ، لأن القرآن بالنسبة له هو معين المعرفة الكبرى الذي لا ينضب ، إذن : ((.. فما طبيعة العالم الذي نعيش فيه كما صورته القرآن ؟ إن أول ما يقرره هو أن العالم لم يخلق عبثاً لمجرد الخلق لا غير : { وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون } ، وهذه حقيقة يجب أن توضع موضع الاعتبار : { إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً .. } ، وفوق هذا فالعالم مرتب على نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد : { يزيد في الخلق ما يشاء } ، فليس هذا العالم كتلة واحدة ، وليس إنتاجاً مكتملاً ، وليس جامداً غير قابل للتغيير والتبديل ، بل ربما استقر في أعماق كيانه حلم نهضة جديدة : { قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير } . والحق أن حركات الكون واهتزازاته الخفية ، وهذا الزمان السابح في

صمت يبدو لأنظارنا البشرية في صورة تقلب الليل والنهار ، يعده القرآن إحدى آيات الله الكبرى :
{ يقرب الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار } . وهذا هو السبب في أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله] ، وهذا الامتداد العظيم في الزمان والمكان يحمل في طياته الأمل في أن الإنسان الذي يجب عليه أن يتفكر في آيات الله سيتم غلبته على الطبيعة بالكشف عن الوسائل التي تجعل هذه الغلبة حقيقة واقعة ..) . (68)

ثم يعرج على الإنسان وغاياته في الوجود ، فيرى أن : (.. هذه الآيات تشير إلى أن الإنسان موهوب بالملكة التي تجعل له القدرة على وضع أسماء للأشياء ، أي أنه يكون لتصورات لها ، وتكوين هذه التصورات معناه إدراكها وفهمها . فالمعرفة الإنسانية إذن معرفة قائمة على الإدراكية ، وبفضل هذه المعرفة الإدراكية يدرك الإنسان ما هو قابل للملاحظة من الحقيقة . والأمر الجدير بالتفكير في القرآن هو توكيده لجانب الملاحظة ..) . (69)

وعليه يمكن تلخيص فلسفة إقبال في المعالم التالية :

1 - اعتبار عنصر التجربة عاملاً في فهم الدين ومرجعياته المقدسة الثابتة والمتغيرة ، لأن الدين ليس شعوراً ولا فكراً ولا علماً ، بل هو منهج رباني يفهم بالممارسة والتجربة الإنسانية المتكاملة له . (70)

2 - إمكانية إدراك اللامتناهي بالعقل السليم الرشيد على نهج ما ذهب إليه الفيلسوف ابن رشد، وإذا عجز الفكر عن إدراك اللامتناهي فما ذلك إلا لأنه أخطأ في فهم طبيعة هذا اللامتناهي كحقيقة كامنة في الكون ، وما تلك التجليات المتعددة في شتى المفاهيم المتناهية إلا فترات خاصة أو وجها معينة لتلك الحقيقة . وإلى الخطأ في فهم طبيعة الفكر الفاعلة ، وهي تنفق عن ذاتها في الزمان من خلال سلسلة التخصيصات المعينة التي يشير إليها القرآن باسم (اللوح المحفوظ) . ثم في الخطأ في إدراك المفهوم الذي ينطوي عليه القرآن للعالم الحسي ، والذي هو في حقيقته وجوهره مفهوم حقيقة مخلوقة ، يندمج فيها الواقع والمثال ويتشابكان ، فتكشف عن مخطط عقلي واضح .. وبحكم أن الإنسان هو أمضى قوة في العالم ، وهو الفاعل الرئيسي أو المشارك لله - مع فارق العبارة - في عملية نقل إمكانات الكون اللامتناهي إلى حيز الوجود الفعلي . (71)

3 - الإيمان بوجود الله المنظم للعالم ، وعلى الإنسان إدراك هذه الحقيقة المعقدة من خلال التجربة الروحية ، ولهذه التجربة جوانب روحية ونظرية وقلبية وفلسفية صوفية ، وجانب واقعي ليس إلا تطبيق عملي لها . (72)

4 - الله طاقة خلاقة ، وقوة خارقة ، والذات البشرية مجموعة من الذرات المترابطة والمتفاعلة مع بعضها . كلما تعالت الذاتية والوعي فيها تعالی وجود الذات فباتت أقرب إلى الله تعالی ، الذات المطلقة { هو الأول والآخر والظاهر والباطن } ، على عكس ما ذهب إليه الأشاعرة في النفس إلى تقسيمها إلى قسمين عرض وجوهر . (73)

5 - إيمانه بحقيقة المعرفة الصوفية ككاشف للحقيقة . (74)

6 - عدم تناقض العلم والدين ، وتلاقيهما في سبيل الوصول إلى الحقيقة (75) ، وتلاقيهما وتكاملهما للوصول إلى الاقتراب من الذات المطلقة (الله) . (76)

2 - إقبال الشاعر :

محمد إقبال شخصية متعددة الجوانب ، وهي فوق كل ذلك شخصية تتطوي على نفسية شاعرية مرهفة الحس والشعور ، تمزج الفلسفة بالشعر ، والشعر بالفلسفة ، كما تمزج التصوف بالشعر ، والشعر بالتصوف .. وهو يقدم في شعره تجاربه الوجدانية المتميزة ، والتي كابدها وعانها عاطفيا في قالب شعري سامق ، تجد فيه الصدق والحرارة واللوعة والأسى ممزوجا ضمن أنساق عجيبة من الأدوات الشعرية والفنية واللغوية والمعرفية والوجدانية والفكرية .. وكان أشد ما يُروّعه ويؤثر في الفكرة الإسلامية الصافية ، وأشد ما تتفعل به نفسه (الحركة الحية) الفاعلة والنشطة في هذا الوجود . (77)

وأشد ما ترتاع وتهتز إليه نفسه (الذات الإنسانية) ، هذه الذات الإنسانية المتوقدة ، الفاعلة النشيطة الملتهبة .. التي هي في حيوية وحركية دائبة ، وكان كثيرا ما يتململ وينفر من الجمود والمواد . (78) . ولعلنا باستعراضنا أبيات من ديوانه الشهير (رسالة الشرق) اسمها (الربيع) (79) تبين لنا مدى عظمة شعره من الناحية الفنية واللغوية والوجدانية والفكرية ، على الرغم من كونها مترجمة . (80)

هلم فإن سحاب الربيع يخيم فوق الرى والوهاد

وشدو الغادل في كل واد

ودراجه والقطا في تهادي

على حافة النهر جذلى شوادي

شقيق وورد ضحوك ينادي

فطرفك سرح بهذا المراد

هلم فإن سحاب الربيع يخيم فوق الربى والوهاد

هلم فملء الربى والسهول قوافل أزهاره والورود

نسيم الربيع على كل عود

وللطير إبداعها في النشيد

ومزقت الجيب حمر الخدود

جنى الحسن ناشيء زهر نضيد

وللعشق إبداع نغم جديد

هلم فملء الربى والسهول وصوت الصلاصل ملء النسيم

دم المرج في جوفه كالحميم

فيا قاعدا صامتا لا يريم

دع الصمت واترك وقار الحليم

وخمر المعاني اشربن يا سقيم

تدثر بورد وغني النديم

صفير البلابل ملء الجواء وصوت الصلاصل ملء النسيم

دع الدور واطلب فسيح البراري وانظر إلى صفحات الجمال

على حافة الماء دون ملال

تأمل ترقرق ماء زلال

وحدق إلى نرجس ذي دلال

بنيات نيسان ذات اختيال

وقبل عيوننا لها كاللآلىء

دع الدور واطلب فسيح البراري وانظر إلى صفحات الجمال

ثرى المرج صرح في هيجه بما أضمرت مهج الكائنات

فناء الصفات وكون الصفات

وما أبدت الذات من جلوات

وما خلته من معاني الحياة

وما خلته من معاني الممات

فليس له هاهنا من ثبات

ثرى المرج صرح في هيجه بما أضمرت مهج الكائنات

والمطلع على شعر إقبال يجده حافلا بالقيم السامية ، والصور النبيلة ، وشتى المعاني الجميلة ، ويجده مرصعا بمختلف القيم المعرفية والشعورية والعاطفية ، ولا يستطيع أن يقول في شعره إلا أنه آية من آيات الشعر الإسلامي الرصين ، الذي يعكس ويعبر عن تصور الإسلام للكون وللطبيعة وللنظام وللحياة وللإنسان .

3 - إقبال الداعية المفكر :

اجتمعت في شخصية محمد إقبال صفة الداعية الإسلامي المجدد ، وصفة المفكر المجتهد ، ولعله من بين دعاة ومصلحين قلائل درسوا واقع المسلمين في العالم قاطبة ، ولم يكتفوا ببيئاتهم وأوطانهم ، بل لعله من بين دعاة ومفكري مسلمي الهند ممن أسسوا لقيام الكيان الإسلامي المستقل في العصر الحديث ، والمتتبع لنشاطات إقبال الدعوية سيجد نفسه أمام مدرسة دعوية فاعلة متحركة ، متنوعة الأساليب والمناهج ، لعل أهمها :

- 1 - مشاركاته الفاعلة في الجمعيات الدينية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية .
- 2 - مشاركاته الفعالة في السياسة ، ودخوله معترك الانتخابات السياسية البرلمانية .
- 3 - طبيعة المهن والوظائف التي عمل بها طيلة حياته ، كالمحاماة والتجريس وإدارة الجامعة .
- 4 - الاشتغال بالتربية والتعليم والتكوين .
- 5 - قيامه بالرحلات العلمية للدفاع عن الإسلام والمسلمين ، ولعرض قضاياهم على العالم .
- 6 - إقامة العلاقات الودية مع عامة الناس وخاصتهم ومسلمهم وكافرهم .
- 7 - إقامة العلاقات الودية مع الحكام والساسة [حاكم البنجاب ، الحاكم البريطاني ، موسوليني ، قادة الأحزاب ..] . (82)
- 8 - التأليف والكتابة واللقاءات بأنواعها .. وقرض الشعر .. والتفكير الفلسفي .
- 9 - الدعوة لاستقلال المسلمين في كيان سياسي موحد .
- 10 - بتعلم وتعليم اللغات والكتابة والتأليف فيها [الأوردية ، البنجابية ، الفارسية ، العربية ، الإنجليزية ، الألمانية] . (83)
- 11 - بالتمسك برموز الهند الإسلامية ، والتأكيد على زيارة الأضرحة والمقامات .

4 - إقبال المتصوف :

عُرف إقبال باسم شاعر الإسلام ، كما عُرف بشعره الصوفي ، والبحث في الطرق الصوفية ، حتى أن رسالته التي نال بها شهادة الدكتوراة كانت في التصوف عند المسلمين في بلاد فارس في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

وقد أثير الكثير عن تصوف إقبال ، غير أن الدارسين له وعلى رأسهم المرحوم المفكر الأستاذ عباس محمود العقاد يرى أن تصوفه كان تصوفا سنيا لا بدعيا ، لأن سيرته وحياته أثبتت ذلك وعكسته بوضوح في مختلف ممارساته ، ما عكس فهما واضحا لحقيقة الزهد والتصوف في الإسلام ، كل هذا أهله ليكون تصوفه تصوفا سنيا لا بدعيا ، وقد عمل الكثير من الكتاب على خلع مسحة الهنود والفرس على تصوفه ، بحجج واهية كالحنين لأصله الهندوسي ، التي رد عليها المرحوم الأستاذ العقاد في مقاله الشهير (تصوف إقبال من الهند أو من الإسلام) (84)

وقد بين أن فلسفة إقبال في التصوف قد تركزت على ما سماه بـ (إثبات الذات) ، وإثبات الذات في الفلسفة الصوفية الإقبالية سبيل لمعرفة الله سبحانه وتعالى ، وسبيل أيضا لمعرفة الكون ، ومحركه ومسيره ، عملا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من عرف نفسه فقد عرف ربه] ، وهو أصل من أصول الصوفية الإسلامية ، بالإضافة إلى ما ورد في القرآن الكريم عن الزهد والتقشف والتصوف . ومن ألطف ما جاء في مقال الأستاذ العقاد قوله : ((.. ولقد بنى إقبال فلسفته الوجودية على الحب ، والفقر ، والشجاعة ، والسماحة ، ولكنه فسّر الفقر بقلة المبالاة بجزء العمل ، وأما الحب فهو الذي يعين على العمل بغير أمل في الجزاء ..)) . (85)

وتبقى دواوين إقبال الشعرية خير مخبر عن صوفيته الوجودية الإسلامية ، التي تسعى إلى إلهاب وتحريك طاقات وكوامن الذات الإنسانية الفاعلة .

* خصائص ومميزات شخصية إقبال :

إقبال شخصية ثرية واسعة الامتدادات ، لها الكثير من مميزات ، غير أن الأستاذ مرتضى مطهري أثناء دراسته لتجربته في كتابه الشهير (الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري) (86) يسجل عليه هذين المأخذين ، وهما :

- 1 - عدم اطلاعه الكامل على الثقافة الإسلامية .
- 2 - عدم اطلاعه عن قرب على أوضاع العالم الإسلامي ، وأوضاع التيارات والحركات الإسلامية السياسية والفكرية ، مع غفلة عن الكثير من تلك الحركات الإصلاحية الإسلامية . فيما ذهب الباحث ماجد فخري في كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية) إلى التضايق من بلاغة إقبال

المفرطة والمقلقة معا في استعمال الألفاظ الأكثر شاعرية حتى وهو بصدد معالجة قضية عقلية مجردة ، ثم تناقضه في الاستشهاد بأعمدة الفلسفة لتدعيم آرائه من جهة ، ثم الانقضاض بالنقد القوي عليهم ثانية ، مع غزارة استشاداته بمقولات غيره . (87)

ويعد .. فهذا هو شاعر الإسلام محمد إقبال ، مدرسة إصلاحية إسلامية جارت بقوة في سبيل استنهاض المسلمين ، قضى كل عمره في خدمة هذا الدين فحق له أن يُخَدَّ في سجل الخالدين ..

مسرد الإحالات

- (1) محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ترجمة : عباس محمود العقاد ، مراجعة الشيخ : عبد العزيز المراغي ، والدكتور مهدي علام ، دار آسيا ، بيروت ، دون طبعة ، 1985م ، ص 1 .
- (2) الرجاء إمعان النظر والتأمل في النص واستكناه مراميه ومعانيه الهادفة .
- (3) أبو الحسن علي الحسيني الندوي ، روائع إقبال ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دون طبعة وتاريخ ، ص 7 . والمسلمون في الهند ، دار ابن كثير ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 1420هـ 1999م ، ص 103 و 117 .
- (4) أبو عمران الشيخ ، فلسفة محمد إقبال الدينية والسياسية ، مجلة الثقافة الجزائرية ، عدد 79 ، السنة 14 ، ربيع ثاني وجمادى أولى 1404هـ جانفي وفيفري 1984م ، ص 104 .
- (5) المرجع نفسه ، ص 104 .
- (6) محمد نجاته الصديقي ، الإسلام والمسلمون في الهند ، مجلة الأصالة الجزائرية ، عدد 25 ، السنة 4 ، جمادى أولى وثانية 1395هـ ماي وجوان 1975م ، ص 154 .
- (7) سكيمة قدور ، رسالة المشرق لمحمد إقبال ، رسالة ماجستير غير مطبوعة ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر ، معهد الحضارة الإسلامية ، إشراف الأستاذ الدكتور حربي أمين سليمان ، نوقشت سنة 1411هـ 1991م ، ص 14 و 15 ، بتصرف .
- (8) أحمد عيساوي ، مجدد الإسلام أبو الأعلى المودودي ، محاضرات مدرسية في مادة فكر إسلامي معاصر ، قسم أصول الدين ، السنة الرابعة ، كلية العلوم الإسلامية ، جامعة باتنة ، 1417هـ 1997م ، ص 2 و 3 و 4 . وجريدة القبس الكويتية ، مائة مليون مسلم في الهند يتعرضون للإبادة ، عدد 982 ، الثلاثاء 12/04/1988م ، ص 8 .
- (9) سكيمة قدور ، رسالة المشرق لمحمد إقبال ، ص 44 و 45 ، بتصرف .
- (10) المرجع نفسه ، ص 46 ، بتصرف .
- (11) المرجع نفسه ، ص 46 و 47 ، بتصرف .
- (12) (13) (14) المرجع نفسه ، ص 47 ، بتصرف .
- (15) المرجع نفسه ، ص 48 و 49 ، بتصرف .
- (16) (17) (18) (19) المرجع نفسه ، ص 49 ، بتصرف .
- (20) المرجع نفسه ، ص 50 ، بتصرف .
- (21) المرجع نفسه ، ص 50 و 51 ، بتصرف .
- (22) المرجع نفسه ، ص 51 ، بتصرف .
- (23) (24) (25) المرجع نفسه ، ص 51 ، بتصرف .
- (26) (27) المرجع نفسه ، ص 53 ، بتصرف .
- (28) المرجع نفسه ، ص 53 و 54 ، بتصرف .
- (29) المرجع نفسه ، ص 54 ، بتصرف .
- (30) المرجع نفسه ، ص 55 ، بتصرف .
- (31) (32) المرجع نفسه ، ص 56 ، بتصرف .
- (33) (34) المرجع نفسه ، ص 57 ، بتصرف .
- (35) المرجع نفسه ، ص 58 ، بتصرف .

- (36) أبو الحسن علي الحسيني الندوي ، روائع إقبال ، ص 40 ... 65 ، بتصرف .
- (37) سكينه قنور ، رسالة المشرق لمحمد إقبال ، ص 61 و 62 ، بتصرف .
- (38) المرجع نفسه ، ص 62 ، بتصرف .
- (39) المرجع نفسه ، ص 62 و 63 ، بتصرف .
- (40) المرجع نفسه ، ص 63 ... 65 ، بتصرف .
- (41) المرجع نفسه ، ص 65 ... 68 ، بتصرف .
- (42) المرجع نفسه ، ص 68 ، بتصرف .
- (43) المرجع نفسه ، ص 83 ... 87 ، بتصرف .
- (44) المرجع نفسه ، ص 87 ، بتصرف .
- (45) المرجع نفسه ، ص 88 ، بتصرف .
- (46) المرجع نفسه ، ص 92 ، بتصرف .
- (47) أبو الحسن علي الحسيني الندوي ، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الخامسة ، 1405هـ 1985م ، ص 78 ، بتصرف .
- (48) (49) المصدر نفسه ، ص 78 ، بتصرف .
- (50) (51) المصدر نفسه ، ص 79 ، بتصرف .
- (52) المصدر نفسه ، ص 80 ، بتصرف .
- (53) المصدر نفسه ، ص 80 ، بتصرف .
- (54) المصدر نفسه ، ص 81 ، بتصرف .
- (55) (56) المصدر نفسه ، ص 82 ، بتصرف .
- (57) (58) (59) المصدر نفسه ، ص 83 ، بتصرف .
- (59) ترجمها محمد حسن الأعظمي ، ونظمها الصاوي شعلان ، انظر : الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ، دون طبعة ، 1402هـ 1982م ، ص 124 .. 130 .
- (60) علي حسون ، فلسفة إقبال ، ص 215 ، نقلا عن سكينه قنور ، مرجع سابق ، ص 59 ، 60 .
- (61) انظر : سكينه قنور ، مرجع سابق ، ص 130 ..
- (62) عباس محمود العقاد ، دراسات في المذاهب الأدبية ، منشورات المكتب الإسلامي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، دون طبعة وتاريخ ، ص 148 .
- (63) أبو عمران الشيخ ، فلسفة إقبال الدينية والسياسية ، ص 106 ، بتصرف .
- (64) محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص 2 و 3 .
- (65) المصدر نفسه ، ص 7 .
- (66) راجع محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص 7 ... 11 .
- (67) المصدر نفسه ، ص 15 و 16 .
- (68) المصدر نفسه ، ص 17 و 18 .
- (69) المصدر نفسه ، ص 20 .
- (70) المصدر نفسه ، ص 7 .
- (71) ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، دون طبعة ، 1974م ، ص 478 و 47 ، بتصرف .
- (72) المرجع نفسه ، ص 480 ، بتصرف .
- (73) المرجع نفسه ، ص 481 ، بتصرف .
- (74) محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص 25 ... 28 .
- (75) (76) أبو عمران الشيخ ، إقبال وفلسفته الدينية والسياسية ، ص 110 .
- (77) محمد قطب ، منهج الفن الإسلامي ، دار الشروق ، بيروت ، دون طبعة وتاريخ ، ص 268 .
- (78) المرجع نفسه ، ص 269 .
- (79) المرجع نفسه ، ص 278 .
- (80) ترجمها المرحوم الشاعر الناقد الدكتور عبد الوهاب عزام .

- (81) انظر حياة إقبال في مطلع هذه الدراسة .
- (82) انظر سكينه قنور ، مرجع سابق ، ص 54 ..
- (83) انظر حياة إقبال في مطلع هذه الدراسة .
- (84) انظر : عباس محمود العقاد ، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية ، ص 149 ..
- (85) المرجع نفسه ، ص 151 .
- (86) مرتضى مطهري ، الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري ، مجلة التوحيد ، عدد 54 ، السنة 9 ، محرم وصفر 1412هـ آب وأيلول 1991م ، ص 122 .
- (87) ماجد فخري ، مرجع سابق ، ص 482 ، بتصريف .

رابعاً: مالك بن نبي المفكر الإسلامي

[1323-1393هـ / 1905-1973م]

يقول الأستاذ محمد المبارك: ((إن مالكا يبدو في كتابه هذا وفي مجموع آثاره لا مفكراً كبيراً وصاحب نظرية فلسفية في الحضارة فحسب ، بل داعياً مؤمناً ، يجمع بين نظرة الفيلسوف والمفكر ومنطقه ، وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره ، وإن آثاره في الحقيقة تحوي تلك الدفعة المحركة التي سيكون لها في بلاد العرب أولاً وفي بلاد الإسلام ثانياً أثرها المنتج وقوتها الدافعة ، وقلما استطاع كاتب مفكر أن يجمع كما جمع ، بين سعة الإطار والرفعة التي هي موضوع البحث ، وعمق النظر والبحث ، وقوة الإحساس والشعور . أنا لا أقول أنه [مالك بن نبي] ، ولكن أقول إنه ينهل من نفحات النبوة ، وينابيع الحقيقة الخالدة ..))
. وجهة العالم الإسلامي ، ص 11 .

بيئة مالك بن نبي وظروف عصره :

لم يعرف الشعب الجزائري الركون والمهادنة منذ دخول الجيش الفرنسي محتلاً لأرضه ، فقد شهدت الفترة الممتدة من عام 1871م - تاريخ القضاء على ثورة الطريقة الرحمانية الكبرى بقيادة المجاهد محمد المقراني والشيخ مصطفى الحداد - وعام 1919م نوعين من أشكال المقاومة والممانعة ، التي مارسها الشعب الجزائري ضد الوجود الاستعماري الفرنسي . فبالإضافة إلى الانتفاضات الكبرى الشهيرة في : (واحة العمري عام 1876م) ، و (الأوراس عام 1879م) ، و (ثورة أولاد سيدي الشيخ بقيادة القطب الصوفي الشيخ محمد بوعمامة عام 1882م) ، و (ثورة الأوراس عام 1916م) ، وغيرها كان الشعب الجزائري منزويًا ومنعزلاً على نفسه ، مقاطعاً للاستعمار ولكافة مؤسساته الاستبدالية ، التي سعت لتشويه معالم شخصيته . وبمقاطعته الصامتة

العميقة تلك ، شكّل حاجزا نفسيا وروحيا لبناء جدار معنوي قوي ومتماسك، حفظ له آخر ما تبقى من حصون المقومات الدينية والوطنية للتصدي لمحاولات الاستعمار المستمرة للنيل منه . (1)

وكان لهاته المقاطعة الثقافية والدينية الصلبة الأثر البالغ للحفاظ على شخصيته وتماسكها وحفظها من الذوبان والتمسك والانصهار في مشاريع الاستكبار الفرنسية ، الهادفة للنيل من دينه ومقوماته ، والتي كان كتاب الاستعمار الفرنسي يعبرون عنها - في أدبياتهم السياسية والفكرية - بالتعصب والانغلاق والجمود والتخلف لدى الجزائريين . (2)

وقد نتج عن فشل الشعب الجزائري في المقاومة المسلحة التي دامت قرابة الحقب من الزمان ، وقوعه في حالة من الذهول والاسترخاء والفشل، مولدة لديه حالة من الركون والارتباك في نجاعة تلك الانتفاضات المسلحة التي قام بها ، ولكنها لم تصل به إلى حالة اليأس والتراجع والاستسلام والقبول بالأمر الواقع ، إلا لالتقاط الأنفاس ، والبحث عن أسلوب أكثر نجاعة - علّه - يحقق به حريته وانعتاقه من الاستعمار .

ويتنوع أشكال مناهضة ومقاومة الاستعمار الفرنسي القمعية التي عبرت عنها بقوة حركة (الشباب الجزائري) التي ظهرت في مستهل القرن عن بعض هذه التوجهات التحريرية السلمية مستغلة بذلك إصلاحات عام 1919م ، التي استصدرها البرلمان الفرنسي بدفع وإلحاح من حكومة (جورج كليمنصو - G . CLIMONSEAUX) (3) وبعض الأحرار الفرنسيين والنواب المعتدلين في البرلمان الفرنسي ، الذين أرادوا مكافأة الجزائريين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى للدفاع عن شرف فرنسا ، وتحت ضغط رجال الحركة الوطنية الجزائرية ، الذين تقدموا مرارا إلى السلطات الفرنسية بالعرائض والاحتجاجات بغية تقديم إصلاحات ضرورية لإنعاش وتفعيل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للجزائريين ، وبفعل تأثير الحركة الصحفية الحرة في الجزائر وفرنسا المناهضة لكل أشكال الاستبداد ، والمنادية بضرورة الإصلاح ، وتحسين أوضاع الجزائريين ، وتحت ضغوطات الدعاية الألمانية التي اشتدت بقوة لتأليب سكان المستعمرات ، وكذلك الدعاية العثمانية المضادة ، وثورة العرب بقيادة الشريف حسين في الحجاز عام 1917م ، وضغوطات الثورة البلشفية في روسيا ، وتبدل الأوضاع الدولية آنذاك ، والتي عرفت سياسيا فيما بعد بإصلاحات قانوني 04 و06/فبراير/1919م . (4)

وبالرغم من بنود القانون التمييزية النخبوية ، التي تميز فئة من الجزائريين - لا تتعدى بضعة آلاف فقط - إلا أنه شكّل - بالنسبة للحركة الوطنية الجزائرية - نقطة انطلاق النضال السياسي المعاصر . (5)

نضال سياسي مريّر وشاق ، وأكثر صعوبة من المقاومة المسلحة ، لأنه دار حول الهوية الشخصية والوطنية الجزائرية ، وحول الدين والأحوال الشخصية والأسرية والثقافية واللغوية ، التي كانت محور المساومة والمراهنة الاستعمارية للتمتع بمميزات هذا القانون الإصلاحي بالنسبة للجزائريين من فئة النخبة، الذين كانوا يطمحون للتمتع بمميزات هذا القانون مع الاحتفاظ بهويتهم وأحوالهم الشخصية العربية الإسلامية ، مما سبب لهم خيبة أمل كبيرة في الإدارة الاستعمارية ، مما أدى إلى انقسامهم حياله إلى ثلاثة فئات :

- 1 - فئة ترفض التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية ، وتطالب بضرورة الاحتفاظ بها .
- 2 - فئة تطالب بعدم ربط حقوق الاستفادة من قانون 1919م بالتخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية .

3 - فئة لا ترى حرجا في التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية مقابل التمتع بالقانون. (6)

الاتجاهات الكبرى للحركة الوطنية الجزائرية:

وقد أسفرت عملية فرز وتصنيف اتجاهات الحركة الوطنية الجزائرية الحديثة عام 1919م من خلال برامجها ومنطلقاتها الإيديولوجية وممارساتها ، إلى الاتجاهات الرئيسة الكبرى التالية :

الاتجاه الأول:

اتجاه يميني ، يطالب بتحقيق المساواة بين الأغلبية المسلمة والأقلية الأوربية المسيحية المستعمرة ، وهي تجربة النخبة المثقفة بالثقافة الغربية ومن ضمنها (الأمير خالد ت 1936م) ، وذلك قبيل ، وخلال الحرب العالمية الأولى ، وبعدها إلى منتصف الثلاثينيات . ثم تطور إلى المطالبة بالتجنيس والإدماج للجزائر ولشعبها العربي المسلم في فرنسا المسيحية ، وهي تجربة الدكتور (ابن جلول ، وفرحات عباس ت 1984م) ، التي انتهت إلى الفشل الذريع لرفض وتمنع الأقلية الأوربية قبول تجنيس وإدماج الجزائريين ، ولمعارضة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اتجاه الإدماج والتجنيس ، وتطور هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الثانية لتكوين جمهورية جزائرية مرتبطة بفرنسا في اتحاد فيدرالي مع رفض الثورة والعنف ضد فرنسا . (7)

وقد حصر الأستاذ (عباس فرحات ت 1984م - صار رئيس حكومة الجمهورية الجزائرية المؤقتة 1959-1963م) فشله وفشل أمثاله من جيل جماعة النخبة الجزائرية في العوامل التالية :

- 1 - اعتقاد جماعة النخبة بأن زعماء فرنسا الذين اجتمعوا بهم كانوا يمثلون - بحق - قيم الثورة الفرنسية وصادقون في تنقيف وتحضير وتحرير الشعوب المستعمرة ومن بينها الجزائريين .
- 2 - عزلة جماعة النخبة عن الشعب وطبقاته المسحوقة .
- 3 - عداوة المعمرين الشديدة لجماعة النخبة بسبب تساويهم - الظاهري والقانوني - معهم في بعض الحقوق والواجبات .
- 4 - خيبة أمل جماعة النخبة في حكومة الجبهة الشعبية ، ومشروع (بلوم فيوليت) ، الذي تبخر وتبعثر ولم يطبق منه شيء . (8)

الاتجاه الثاني:

اتجاه استقلالي محض ، تمثل في حزب (نجم شمال افريقيا) ، و (حزب الشعب) ، وحزب (حركة انتصار الحريات الديمقراطية) ، وكان من ضمن تشكيلات أيضا (المنظمة السرية) ، و (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) التي خططت وأعدت ونفذت ثورة 1954م. (9)

* الاتجاه الثالث:

اتجاه معتدل إصلاحى ديني اجتماعي ثقافي ، بدا في شكل جماعة الرواد وجماعة نادي الترقى في أواخر العشرينات ، ثم في جماعة جمعية العلماء المسلمين . (10)

وضع اجتماعي مزر :

عمل الدكتور (ج . توماس) طويلا في مستشفى مدينة الجزائر سنوات 1935-1945م ، وكتب تقريرا صادقا ، وصف فيه حقيقة المستوى الاجتماعي والصحي والمعيشي الذي آل إليه الجزائريون بعد قرن وربع القرن من الاستعمار القاسي ، حيث قال :

((.لقد عشت في مدينة الجزائر فترة طويلة ، ولقد رأيت فرقا من الأطفال في أسمال بالية ، يجنون قوت يومهم ابتداء من سن الخامسة ببيع الجرائد ومسح الأحذية ، ورأيت أعشاش القصدير في الأحياء العربية ، وهي أماكن تعتبر عارا على الحضارة ، وأثناء جني الكروم التقيت بعمال المزارع يمشون مسافة مئات الأميال بحثا عن العمل ، ينامون في الليل في الحفر ويتغذون ببعض حبات من التمر أو من العنب .. لقد كنت خجلا من كوني فرنسيا .

إنني كنت في الجزائر سنة 1945م في وقت المجاعة ، عندما كان آلاف الناس يموتون جوعا خلال سنة من الجفاف ، وقد شاهدت القمع المروع الذي نتج عنه موت سنتين ألف شخص ، وشاهدت أطفالا عمرهم سنة واحدة يأكلون من التراب ، كما شاهدت مائتي شخص يموتون من الملاريا في بضعة أيام بغرداية ، فكيف لا نحصد الثورة ؟ .. عندما نكون قد زرنا خلال هذه المدة الطويلة الحقد والإهانات والبؤس ..)) (11) والمحلل لهذه الشهادة الصادرة عن أحد الأطباء والمتقنين الفرنسيين ، التي وصف فيها حالة بؤس المجتمع الجزائري الصحية والاجتماعية والمعيشية والأمنية .. بعد قرن وربع القرن من الاستدلال يتبين ما يلي :

- 1 - وضع الجزائريين المهني والمعيشي والصحي والتربوي والتعليمي.. في ظل الاستعمار .
- 2 - وضع الجزائريين المزري في ظل الهيمنة الاستعمارية وحالة البؤس التي آلت إليها .
- 3 - وضعية الطفولة والأمومة وحقوق الإنسان في ظل ثورة المبادئ والقيم الفرنسية .
- 4 - كذب الطروحات الغربية القائلة بتمدين الشعب الجزائري الهجمي المتوحش .
- 5 - وضوح الروح الاستكبارية الكامنة في الفرد الأوربي عموما وفي الفرد الفرنسي خصوصا .

ومع قساوة هذه الظروف وشدتها ، فلم يتجنس من الجزائريين طلية أربعة وثلاثين عاما [1919-1952م] بالجنسية الفرنسية إلا (2500) ألفين وخمسمائة شخص فقط ، بمعدل إثنين وسبعين شخصا في السنة تقريبا . وفي ظل هذه الظروف الاستعمارية القاسية ولد ونشأ وترى وتعلم وعمل وكتب ووعى ودعا وناضل المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي - رحمه الله - . ناضل بفكره وقلمه نضالا مجزيا عن الأمة العربية والإسلامية ، فلم تدفعه ظروف بلاده المزرية ، ومحنة شعبه القاسية في ظل الاحتلال الفرنسي لأن يفكر تفكيراً محليا ضيقا ، بل استطاع أن يتجاوز محنة المحلية القائلة بنظراته وخطراته وآفاق روحه وقلمه الفسيحة ، متوجها لمعالجة أورام وآفات التخلف والانهيال، التي اعترت الكيان الإسلامي المهزوم ، ملقيا نظرة بيانية شاملة وعميقة ومؤثرة عن حضارة وفرد ومجتمع وأمة ما قبل عصر الموحدين الزاهرة ، وما بعده الراكدة .

مالك بن نبي من مؤلفاته وهمومه الحضارية :

إن الدارس المحلل لكتابات المفكر الإسلامي المرحوم مالك بن نبي يتبين بدقة وبوضوح الهدف النهضوي والحضاري الذي أوقف حياته عليه كلها ، والذي حاز على بؤرة اهتمامه . فقد شغلت مشكلة التخلف وتفرعاتها

ومظاهرها لفرد ومجتمع عصر ما بعد الموحدينُ جل كتاباته ، فعكف يدرسها دراسة علمية مركزة ، ويحللها تحليلا مخبريا دقيقا ، بهدف معرفة عوامل وأسباب قيامها وبنائها وتأثيرها وانتشارها ، ثم يدرس عوامل توقفها وجمودها وتراجعها ، حتى آلت إلى حالة الانهيار المزرية الآفة والراهنة .

لقد حمل المرحوم مالك بن نبي هموم وتيه الحضارة الإنسانية عموما ، كما حمل هموم وتيه التخلف الحضاري لأمتة الإسلامية المطمئنة في التراب . فكان يشخص الأمراض، ثم يقدم أسبابها وعللها ، دارسا تفرعاتها ومظاهرها وأوجهها المختلفة في العوالم الكونية الثلاثة التي كان ومازال يعيشها العالم الإسلامي ، في عالم الأفكار ، وفي عالم الأشخاص ، وفي عالم الأشياء ، محلا إياها بملاحظة الفيلسوف ، وبأسلوب المتكلم ، وبروحانية الصوفي، وبموضوعية العالم ، وبمبضع الطبيب الجراح ، وبعين الخبير الاجتماعي ، وبتحليل الحكيم النفساني ، وبوحي وتراث الداعية والمصلح الديني ، وبمنظار البحاثة التاريخي ، وبآفاقية الفلكي الجغرافي ..

فكان أن شخص - بدقة وعمق - للأمة الإسلامية كما هائلا من الأمراض لفرد ومجتمع عصر ما بعد الموحدين ، لعل أهمها : [عقدة القابلية للاستعمار ، العقلية التذريية ، الانفصام بين السلوك والفكر ، وعقد النقص كتضخم الأنا ، وعقدة التساهل والمستحيل ، وغياب المنهج ، وصراع الأفكار ، والأفكار الحية ، والأفكار المميّنة والمقاتلة ، واللافعالية ، والتكديس ، واستيراد البرامج والحلول ..] . (12)

كما شخص وقدّم للإنسانية نظرية البناء والنهوض الحضاري من بين ثلاثة مستويات نظرية كانت متداولة في حقل الدراسات الفكرية والحضارية والتاريخية ، متوسطا نهج النظرية السننية التعاقبية ، التي هي الخلاصة الصحيحة لنظريات قيام الحضارات وسقوطها .

ولم يكن الأستاذ ملك بن نبي يكتفي بتشخيص الأمراض وتبيين مكامن العلل فقط، بل كان يوظف مخزونه العلمي والفكري والثقافي لغرض إيجاد الحلول الناجعة للإنسانية النائية عموما ، وللأمة الإسلامية - النائية عن منهجها الرياني الأصيل - خصوصا . هذه الأمة التي تتبع ظروف نشأتها وانبعائها وتمدها وتعثرها ما بعد عصر الموحدين ليكتشف عبقريتها وقدر رسالتها الخالدة في قيادة الإنسانية الضالة نحو الرشاد والهدى . (13)

وعمل على إعادة طرح نظرية الحضارة الإسلامية ، بحيث يأخذ الإسلام دوره الأساسي والمحوري في دورة البناء الحضاري . وذلك من خلال بناء مفاهيم وقيم ومفعلات شخصية الفرد المسلم ، الذي يهدف بالأساس إلى بناء الحضارة ، التي لا يمكن أن تكون بغير النهضة والثقافة ، ولذلك فقد اندفع نحو حقل النهضة والثقافة يحللها بعمق، محاولا الإجابة على مختلف الإشكالات المطروحة حولها . وتحليل أسباب التخلف ، وشروط الإقلاع ، ثم الشهود الحضاري . (14)

مشخصا مرض العالم الإسلامي في حقيقة التخلف الشامل ، حيث بيّن أن العالم الإسلامي يعيش حالة انهيار شاملة ، متأزم بأزمات متعددة الجوانب مست إنسانية الإنسان ، ((.. إنسان ما بعد الموحدين ، الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية الزاهرة ، والذي كان يحمل في كيانه جميع الجرائم ، التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل ، التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين ..)) . (15)

وأمام تشخيصه الدقيق لأزمة العالم الإسلامي الشاملة التي اعترت إنسان ما بعد عصر الموحدين ، كان يرى أن

الحل الأمثل لها ، يتمثل في الإصلاح الشامل للإنسان ، وبالعودة الأكيدة والصادقة لمعين القرآن الكريم الرائق ، القادر على تحريك كوامن الحياة الحقيقية في هذا الإنسان الخامل ، بحيث يملئ على الإنسان السلوك الحي ، ويدفعه إلى الفاعلية الإيجابية ، التي تبرمجه بانتظام نحو صناعة الحضارة لأننا : ((.. بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية وتوجيهها .. وأول ما يصادفنا في هذا السبيل ، هو أنه يجب تنظيم تعليم القرآن تنظيماً يوحي معه من جديد إلى الضمير المسلم - حقيقة القرآنية - كما لو كانت نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير ..)) . (16)

محاوَر تفكير مالك بن نبي :

وإذا أردنا أن نقدم قراءة حول فكر مالك بن نبي من خلال مؤلفاته ، فإن أهم القضايا التي عالجها وتمحورت عليها جل أفكاره هي :

1. قراءات وتحليلات قرآنية، تختلف عن منهج المفسرين التقليدي ، تجلت في كتابه الشهير (الظاهرة القرآنية) حيث عقد مقارنة علمية لقصة نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام بين التوراة والقرآن ، مبينا الفروقات بينهما مرجحا مطلقة الحقيقة القرآنية على الرواية التوراتية، مبرهنا على صحة نبوة محمد ببرهان لا قبل للجدل به ، معتمدا على المقاييس النفسية والأخلاقية ، والدلائل المنطقية والعقلية لتأكيد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

2 - مقومات وعوامل ودوافع الإقلاع الحضاري ، وذلك من خلال كتابيه (شروط النهضة) و (ميلاد مجتمع) ، إذ تعرض فيهما إلى تعريف المجتمع ، والشروط الحضارية التي تجعله يقوم بالفعل الحضاري ، محددًا بدقة عناصر الحضارة ، وأهمية كل عنصر ، ودوره في الدورة الحضارية .

3 - التأريخ للوقائع الجسيمة والأحداث من خلال سيرته الذاتية التي بدت واضحة في كتابه القيم (مذكرات شاهد القرن) ، حيث يقول : ((.. ربما يعجب هنا أولئك المثقفون الذين أصبحوا لا يدركون لغة الشعب الجزائري المسلم ، أنني لا أكتب هذه المذكرات من أجلهم ، ولكن للشعب الجزائري عندما يستطيع قراءة تاريخه ..)) . (17)

4 - مستقبل الإسلام ودور المسلم الحضاري في العالم ، وبرز فكره في بعث المسلم الرسالي من خلال كتابيه القيمين : (وجهة العالم الإسلامي) و (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين) ، فتناول في كتابه الأول وجهة العالم الإسلامي واقع العالم الإسلامي المزري ، ومستقبله المظلم في ظل المعطيات الواقعية ، مستبشرا ومتأملا بمستقبل أكثر رقيا وإيجابية للأمة الإسلامية في ظل العودة القوية للإسلام الفاعل في النفوس الحية . كما تناول في كتابه الثاني دور المسلم في النصف الثاني من القرن العشرين ووظيفة المسلم الرسالية ، ودوره المنوط به عالميا ، فهو يقوم بدور الممثل والعارض والمحرك للنموذج الإسلامي ، كما يقوم بدور الشاهد على فعالية وصلاحية تلك التعاليم .

وقد بين في هذين الكتابين سبيل الخلاص من القبضة الاستعمارية ، ومن التبعية الفكرية والمدنية للغرب ، ولذلك بتكوين أمة وفرد غير مسكون بعقدة القابلية للاستعمار ، مدرك لرسالته ولمنهجه ، وعالم بعالم الصراع

الفكري بين الأفكار ، ومنتبه من خطر الأفكار المثبطة والقاتلة .

5 - الكشف عن أساليب الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، وبدا ذلك الفكر واضحا في كتابه القيم (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) وكتابه القيم (في مهب المعركة) و كتابه (آفاق جزائرية) ، محاولا من خلالها فضح سياسة الاستعمار ، وتسليط الضوء على المشاكل الحقيقية للشباب الجزائري ، التي يجب عليه مواجهتها بفعالية وإيجابية لتوفير أحد أهم أسباب ومقومات النهوض . (18)

6 - تقديم مشاريع للحلول السياسية العالمية وذلك في كتابه القيم (فكرة كومونوليث إسلامي) ، و (الفكرة الأفروآسيوية) ، حيث بيّن في كتابه الأول الحدود والإمكانات والوسائل والأبعاد التي تمكن العالم الإسلامي من تحقيق الوحدة الإسلامية الحديثة ، وتحقيق الاكتفاء الذاتي ، الذي سيمهد لاستقلاله وخلصه من بقايا التبعية للغرب . وفي كتابه الثاني القيم (الفكرة الأفروآسيوية) انتقد حصر العالمين العربي والإسلامي ضمن حدود (مؤتمر باندونغ) ، معتبرا إياه شكلا من أشكال التآمر الاستعماري لتقزيم قوة العالم العربي والإسلامي . (19)

7 - جزائر ما بعد الاستقلال ، دعت له ليؤلف من أجلها كتابه القيم (بين الرشاد والنتية) ، متناولا فيه مرحلة ما بعد الاستقلال ، منبها لأهميتها وخطرها ، الذي لا يقل خطورة عن بداية الثورة ، وتحقيق الاستقلال ، وكذلك الأمر بالنسبة لكتابه (آفاق جزائرية) .

8 - دراسة تحليلية لمشكلة الأفكار والثقافة ، معتبرا الثقافة أسلوب حضارة ومدنية ، تعمل على تحريك الإنسان الفاعل إذا امتلك وسائل الفاعلية الحضارية الأربع : [الأخلاق ، الذوق الجمالي ، المنطق العلمي ، الصناعة والتكنولوجية والعلاقة القائمة بينهما لتكوين الثقافة] . معتبرا أن لكل حضارة ثقافتها ونمطها وقيمها وأسلوبها ، وزينة الحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد ، الذي يجعلها تتوجها لكل جهود الرسل والأنبياء السابقين ، فهي تراكم لجهود الفضيلة، وتفسير لظواهر الغيب ، دون أن ينسى تحديد مكانة الأفكار وقيمتها في المجتمع والحضارة . (20)

9 - الترابط الوثيق بين القيم الأخلاقية والاقتصادية ، بدا ذلك واضحا في كتابه القيم (المسلم في عالم الاقتصاد) ، مبينا من سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كيفية حل المشاكل الاقتصادية بقيم أخلاقية فهو في جميع كتبه ، إما مشخصا لأمراض وعلل الأمة الإسلامية ، وإما باحثا لها عن حلول ليخرجها من دائرة التبعية والاستلاب للغرب ، أو راسما لها طريق العودة الآمن للنهوض والشهود الحضاري ، كمتخصص في فقه التخلف والانحطاط الحضاري من جهة، وفي فقه البناء الحضاري من جهة أخرى . مستخلصا للسنن والضوابط الفاعلة في الظاهرة الحضارية في حالة قوتها وامتدادها وتألقها ، وفي حالة ضعفها وانحسارها وأقولها

عوامل تربية ونشأة وتكوين مالك :

مولده ونشأته وتربيته وتكوينه:

ولد المفكر الإسلامي الجزائري (مالك بن عمر بن بني) بمدينة قسنطينة عام 1905م ، في عائلة فقيرة ، وقد تبناه عمه ليتربى عنده ، وسرعان ما توفي عمه فأعادته زوج عمه إلى أبيه ، اللذين ارتحلا به إلى مدينة تبسة

سنة 1912م عند أخوال أمه ، يعملون بالتجارة وبيع الحرف العادية . وظل والده لفترة دون عمل ، وفيها عرف مالك طعم الحرمان ، الذي سرده في مذكراته شاهد القرن فقال : ((.. ففي العائلة الفقيرة لابد أن يجوع الصغار متى فقد الأب عمله ، غير أن أمي كانت تحول دون ذلك بممارستها للخياطة ، وبالتالي فهي التي كانت تمسك بكيس النقود الذي كان دائما فارغا ..)) . (21) .

وتأثر بحكايات جدته التي كانت تروي له عن جدتها أهوال وفضائع سقوط مدينة قسنطينة بيد الفرنسيين سنة 1837م ، وكيف هزّب أهل قسنطينة زوجاتهم وبناتهم بالحبال من أعالي مرتفع سيدي مسيد ، كي لا يتعرضن لوحشية جنود الاحتلال .

تلقى تعليمه الأولي في كتاب بلدة تبسة طيلة أربع سنوات ، حفظ خلالها أجزاء معتبرة من القرآن الكريم ، والتحق بالمدرسة الفرنسية أثناءها ، لينقطع بعدها عن الكتاب ، مع احتفاظه بالتردد على المسجد ، وبخاصة في أيام العطل والجمعة وأيام الصيف ، حيث كان أهل تبسة يتوزعون إلى فئتين ، فئة تذهب لتأدية صلاة المغرب والعشاء في مسجد سيدي بن سعيد والجامع العتيق عند الشيخ سليمان بن طيار البيضاوي ، وفئة تقصد المقاهي والحكايات . (22)

ولما أتم المرحلة الابتدائية ونجح في نيل شهادة التعليم الابتدائية، التي كان لها وقع وتأثير كبير على الأهالي ، الذين لا يستطيعون إرسال أبنائهم لمزاولة دراستهم الثانوية (23) ، انتقل إلى قسنطينة ليواصل دراسته في المرحلة التكميلية للحصول على رتبة كاتب عدل (24) ، وكانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته ، حيث التقى فيها بالشيخ عبد الحميد بن باديس وأعلام النهضة الجزائرية العربية الإسلامية الحديثة أمثال الشيخ المولود بن الموهوب، والشيخ محمد بن العابد ، الذين اكتسب منهما العلم الشرعي ، ونمى ثقافته الإسلامية ، كما اكتسب من الشيخ عبد الحميد بن باديس الحماسة والشجاعة والإقدام . (25)

وفي هذه الفترة قرأ الكثير من الكتب ، من أهمها كتابين أثرا في تكوينه ونفسيته ، هما كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا، وكتاب (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبدة ، وارتبط بصداقة متميزة مع المرحوم (حمودة بن ساعي) ، كما تعرف على بعض تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس . (26) .

واطلع على جريدة (الإقدام) التي أكسبته قوة عظيمة فقال عنها: ((.. فالإقدام وضعت في فكري الحدود السياسية الدقيقة ، فكانت تكشف عمليات استغلال الفلاح الجزائري، وقد بلغت درجة لا توصف في هذه الفترة ..)). (27) . وطيلة هاته السنوات كان يتردد على مدينة تبسة التي أثرت فيه ببيتها تأثيرا متميزا سنبينه لاحقا ، وبعد نهاية السنة الرابعة من إتمام المرحلة الثانوية سنتي 1924-1925م سافر مع صديقه (قاواو) إلى فرنسا بحثا عن العمل ، فذهبا إلى مرسيليا وليون وباريس ، ولكنهما فشلا في إيجاد العمل المناسب فعادا أدرجهما . (28) ثم عاد إلى تبسة ، فعمل كمساعد لباش عدل بالمحكمة ، وشاهد أثناء عمله ما شاهده من المظالم الاستعمارية ، ثم عين كاتبا في المحكمة (بأفلو) بالغرب ، وعنها قال: ((.. كانت آفلو بالنسبة لي مدرسة تعلمت فيها أن أدرك فضائل الشعب الجزائري الذي لا يزال بكر ، وكانت هذه فضائله بالتأكيد في سائر أنحاء الجزائر قبل أن

يفسدها الاستعمار..)). (29)

مالك بن نبي في فرنسا :

وبين تبسة وقسنطينة وفرنسا وأفلو ووهران اكتسب مالك بن نبي معرفة دقيقة عن حقيقة الاستعمار عموما والفرنسي خصوصا ، وعلم بخطر المحقق بالأمة التي ينزل بها . ثم عاد إلى تبسة لينقل بعدها إلى محكمة شلغوم العيد ، وانتهى به الأمر لتقديم استقالته من منصبه ليفتح مع صهره مطحنة ، ولكنها سرعان ما أوصلت أبوابها بعد أزمة سنة 1929م ، انتهت ببيع المطحنة، فاقترح عليه والده السفر إلى فرنسا فسافر سنة 1930م لإكمال دراسته . (30)

وفي باريس حاول الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية ، ولكنه لم يدخله لأسباب سياسية بحثة ، فالتحق مجددا بالمدرسة العليا لاسلكي ليدرس هندسة الكهرباء ، وفي هذه الفترة انضم لجمعية مسيحية محلية تدعى (جمعية الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين) ، وعنها كتب فقال : ((.. والآن بعد أربعين سنة أرى بكل وضوح أن الريح التي دفعتني في شهر أيلول 1930م لم تكن تدفني لمغامرة في أفق بعيد ، ولا إلى مرتبة اجتماعية تحققها لي شهادة مدرسة الدراسات الشرقية ، إنما كانت تدفني إلى هذا المكان الذي تكامل فيه تكويني الروحي ، ولا بد من القول أن ضميري تفتح فيه على كل المشكلات التي شغلت حياتي في هذه الساعة ..)) . (31)

وظل مالك في هذه المرحلة نائب التفكير في بلاده الجزائر ومأساة شعبها المستعمر باحثا له عن سبيل للخلاص ، وقد وصف حالته النفسية بعيدا عن بلده المستعمر فقال : ((.. وأصبحت أشعر كأنني حملت جميع آثام مجتمع يبحث عن الخلاص من بؤسه ، وكأنني لذلك المجتمع كبش فداء شاعر بثقل ما حمله من مسؤوليات ومحن وآمال ليحقق الخلاص بفضل دراسته ..)) . (32)

كما ظل وفيا لمناقشات صديقه حمودة بن ساعي ، نائب الارتياح للحي اللاتيني ، الذي يسكنه ويرتاده العرب والمسلمون والمغاربة . وفي عام 1931م تزوج من فرنسية ، أسلمت على يديه ، وتسمت باسم خديجة ، وعن زواجه ذلك كتب : ((.. والآن بعد أربعين سنة تعود لفكرك تلك الذكريات ، أتصور أن الأقدار التي سخرتني وسيلة تعرفت خديجة بواسطتها على الإسلام ، قد سخرها هي لأتعرف بواسطتها على الوجه الأصيل للحضارة الفرنسية ..)). (33)

وفي سنة 1937م أسست مدرسة لتعليم الأميين وتقدم للتدريس فيها ، ولكن الإدارة منعت من التدريس فيها ، الأمر الذي جعله يتعمق في حقيقة النفسية الاستعمارية ، المجبولة على عجينة الاستكبار المرضي ، مصدرا وقتها كتابه (شروط النهضة) ، وكتابه (وجهة العالم الإسلامي)، وقبيل مغادرته فرنسا نهائيا سنة 1956م ألف كتابه القيم (فكرة الأفروآسيوية) ، بمناسبة انعقاد مؤتمر باندوغ سنة 1955م لدول عدم الانحياز . (34)

مالك بن نبي في القاهرة والعودة إلى الجزائر :

غادر مالك بن نبي فرنسا بعد أن قرر إنهاء العلاقة بها ، وبزوجته الفرنسية ، والتي لم يزرها من بعد قط ، واستقر بالقاهرة بدعوة من حكومة الثورة ، وهناك اتصل بالزعيم المصري المرحوم (جمال عبد الناصر) ،

فخصص له بيتا وأجرا شهريا يليق بمقامه ، الأمر الذي جعله يتفرغ للتأليف والعمل الفكري والنشاط الدعوي والدعائي والثقافي .. (35)

وقد نشر في هذه الفترة كتابه (فكرة الآفروآسيوية) ، ورسالة (النجدة الشعب الجزائري ينادي) ، وشارك في جلسات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، وبدأ يصدر كتبه، كان ثانيها كتابه القيم (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) . (36)

وكانت مصر بالنسبة لمالك نقطة التعرف على الشرق الإسلامي عموما والشرق العربي خصوصا ، فزار لبنان وسوريا سنة 1959م وألقى في جامعتها ونواديها الثقافية عدة محاضرات، كما شارك في العديد من الملتقيات والمؤتمرات في مكة والكويت وطرابلس. (37)

وبعد الاستقلال عاد مالك إلى الجزائر سنة 1963م ، وعين مديرا للتعليم العالي بوزارة التعليم العالي ، ولكنه دخل في صراع مع غلاة الشيوعيين المعشعشين في الوزارة يومها ، مما اضطر إلى الاستقالة للتفرغ للعمل الفكري والإصلاح التربوي مع النخب المثقفة.

واهتم بالتنظير والتفكير لعمليات التغيير وإعادة بناء المجتمع السليم فأصدر مباشرة كتابه (آفاق جزائرية) و (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) ، (ومذكرات شاهد القرن) و (المسلم في عالم الاقتصاد) ، بالإضافة إلى مجموعة من المحاضرات والندوات والمؤتمرات المتنوعة . (38)

وكان يعقد في منزله كل يوم أحد ندوة أسبوعية يحضرها خيرة أبناء ومتقفي الجزائر، واهتم بنشر أفكاره بين الشباب الجامعي المثقف ، الذين أصبحوا يشكلون نواة جيل الدعوة والتنوير من المستنيرين ، أمثال الأساتذة الشيوخ : (عمار طالبي) (حمودة عبد الوهاب) و (عبد العزيز بوليفة) و (عبد القادر حيتو) و (محمد جاب الله) و (رشيد بن عيسى) (عبد الحميد بن شيكو) و (محمد بوجلخة) .

ويعقد أول ملتقى للفكر الإسلامي بالجزائر سنة 1968م بمبادرة من الأستاذ مالك بن نبي وليتدعم هذا العمل الإسلامي فيما بعد بعودة فريق من الطلبة الجزائريين الدارسين في أمريكا ، لينضموا إلى المسيرة الدعوية في الجزائر ، ويوعزون إلى طلاب جامعة الجزائر لتأسيس أول مجلة عربية إسلامية اسمها (**ماذا أعرف عن الإسلام؟**) باللغتين العربية والفرنسية . (39)

أسرته الصغيرة :

تزوج الأستاذ مالك بن نبي بزوجته الفرنسية الأولى وأسلمت فسماها خديجة ، ولما قرر الرحيل إلى مصر سنة 1956م بدعوة من حكومة الثورة رفضت زوجته الفرنسية مصاحبته ، وقررت الفراق ، فتركها وهاجر إلى مصر ، وتزوج بقرييته لأمه من عائلة حواس السيدة خديجة حواس سنة 1960م ، وعقد القران في ليبيا وانتقلت السيدة خديجة من تونس إلى ليبيا رفقة أخيها رشيد المتوفي سنة 1973م ، وأنجبت له ثلاث بنات هن : [نعمة وإيمان توأمان سنة 1962م ، ورحمة سنة 1968م] ، وتزوجت إيمان سنة 1982م ونعمة سنة 1983م من شقيقين سوريين يعيشان في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتزوجت رحمة سنة 1988م من سوري مهاجر في أمريكا

أيضا . وقد توفيت ابنته الكبرى نعمة يوم 24/مارس/2003م . (40)

وفاته :

أدى الأستاذ مالك بن نبي فريضة الحج سنة 1973م ، ثم مرّ على سوريا ولبنان وألقى فيهما العديد من المحاضرات ، التي طبعت في كتاب القيم (دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين) ، ثم ترك وصيته مودعة لدى الأستاذ المحامي (عمر كامل مسقاوي) ، ثم عاد إلى الجزائر ، وانتقل إلى جوار ربه في ظروف غامضة بعد أن تعرض للضرب العنيف من قبل مجهولين هاجموه ليلا وهو عائد إلى بيته في الجزائر ، فمات متأثرا بتلك اللكمات والكدمات يوم 1973/01/31م بعد حياة حافلة بالعطاء والتضحية والنور . (41)

عوامل ومؤثرات نبوغه :

اجتمعت جملة من العوامل والمؤثرات المشكلة لفكر وشخصية المفكر المرحوم مالك بن نبي ، عبّر عنها في مذكرات شاهد القرن ، بقوله : ((.. أنا شديد التأثر بالحدث ، أتلقى صدمته بكل مجامعي ، وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ ..)) . (42)

* تأثير الوسط العائلي :

وتأثر بالوسط العائلي المكون يومها من سكان البيت الجزائري الكبير ، الذي يضم ثلاثة أجيال : [الجد والجدة ، الأب والأم ، العم والعمة وامرأة العم ، الأخ الكبير وامراته ، ثم الأبناء والبنات] . فتأثر بجده ، التي كانت بمثابة جهاز التلفزيون والمكتبة والمذياع والصحيفة بالنسبة للبيت المعاصر ، هاته الجدة التي كانت تروي لهم بتأثر وأسى ما روته لها جدتها المسكينة يوم سقوط قسنطينة بيد الفرنسيين سنة 1837م وهروب النسوة معلقات بالحبال من أعالي مرتفعات جبل سيدي مسيد خوفا من وحشية المحتلين ، وعن جدته هاته التي أحبها ، لأنها كانت تنمي فيه الضمير الإسلامي الحي لحب الحلال وفعله ، وتجنب الحرام وكرهه ، كتبت فقال : ((.. إن هذه المرأة كانت بارعة في قص الحكايات ، إذ كانت تشدنا إليها ونحن متعلقون حولها ، كانت هذه مدرستي الأولى ، فيها تكونت مداركي ..)) . (43)

ومرورا بتأثير الوالدين ، اللذين سعيا لإدخاله لكتاب البلدة ليحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، فعن أمه كتب : ((.. لا أزال أذكر كيف اضطرت ذات يوم لكي تدفع لمعلم القرآن الذي يتولى تدريسي بدل المال سريرها ..)) . (44)

وكذلك الأمر بالنسبة لوالده الذي سجل له أروع مواقف الدعم والتأييد ، حيث كان يرسل له المال ليتابع دراسته في فرنسا ، وعنه قال : ((.. كان يرسل لي المبلغ الشهري الذي أعيش به في فرنسا ..)) . (45)

بالإضافة إلى تأثير زوجته الفرنسية السيدة خديجة فيه ، حيث أرته الوجه الأصيل والرائع للحضارة الفرنسية . وزوجته الجزائرية التبسية الثانية ، التي أمضى معها بقية أيامه .

تأثير المدرسة والأساتذة :

تأثر مالك بكتاب القرآن أولاً ، ثم بالمدرسة الفرنسية ثانياً ، حيث فسحت أمامه المجال واسعاً للنتقاف وحب المطالعة ، والتوسع في قراءة الآداب وتاريخ الأمم والحضارات ، وعادات الشعوب وتقاليدها ، واكتساب المنهجية العلمية في النظر والتحليل والتعليل والفهم والتعبير . وهي التي أكسبته الأصول التطبيقية للمنهج الديكارتي ، الذي انعكس مباشرة على تفكيره وكتابته .

وعن أساتذته العرب الذين تأثر بهم ، وأخذ عنهم ضمير الروح العربية الإسلامية ، قال : ((.. لقد استطاعت الدروس ذاتها خاصة مع أساتذتنا العرب أن تنمي فينا هذه الروح وتغذيها ، وكنا نجد شيئاً ما أكثر لدى الشيخ مولود بن الموهوب الأستاذ في المدرسة ، ومفتي المدينة ، لقد احتفظ الشيخ في ذهنه بذلك الأثر الذي غرسه في نفسه دراسته على يد معلمه الشيخ عبد القادر المجاوي ، وقد تولى هو نقل هذه الغرسة إلى تلك الأجيال من المدرسيين ، وكنت منهم . وقد أينعت ثمارها في الحركة الإصلاحية الناشئة في الجزائر ..)) . (46)

وعن أساتذته الفرنسيين الذين تأثر بهم وأخذ عنهم المنهجية وأسلوب التفكير الرياضي ، قال : ((.. كان أساتذتنا الفرنسيين يصبون في نفوسنا محتوى ديكارتيا ، يبدد الضباب الذي تموت فيه العقلية الميثولوجية ، التي تتعاطف مع الخرافات النامية في الجزائر ..)) . (47)

تأثير المسجد والمطالعة :

تناول الأستاذ مالك بن نبي أثر المسجد فيه ، وفي البيئة التبسية يوماً كان توزع خط الإصلاح والتقليد بمدينة تبسة بعد مجيء الشيخ العربي بقوله :

((.. واتضح أكثر في تبسة خط التوزيع الإيديولوجي بين مريدي الشيخ الإمام (سي سليمان) ورواد الفكرة الإصلاحية يجتمع أولئك حول شيخهم بعد كل صلاة عصر عند صومعة المسجد العتيق في انتظار صلاة المغرب ، ويجتمع هؤلاء حول الشيخ العربي التبسي بمخزن (سي الصادق بوزراع) . وكانت الخصومة حامية بين الطرفين ، ولا شك أن الحكومة كانت أكبر منتفع من الخصومة ، فكانت تدس في المعسكرين من يضرهم نارها ..)) . (48)

والمتمعن في الظروف والأحداث التي عاشها في تبسة يتبين عزم وإرادة أهلها وشيخها العلامة العربي التبسي الأكد على نهج طريق الإصلاح ، ومدى تأثيراته الإصلاحية الآنية آنذاك في المدينة تبسة .

كما كان كثير المطالعة للكتب بالعربية والفرنسية ، فقرأ قصة (التلميذ) التي فتحت عقله وروحه للتخلي عن عوالم الخرافات والسذاجات والأوهام ، كما قرأ كتاب (الإفلاس الفكري للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا ، وكتاب (رسالة التوحيد) لمحمد عبدة ، للذين شكلا له نقطة تحول مركزية في فكره العربي الإسلامي ، فقدم له مظاهر البهاء في الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة . (49)

وعن تأثير روائع الأدب العربي القديم فيه كتب : ((.. ومن ناحية أخرى كان صالوننا الأدبي في مقهى [بوعريب] يزودنا بفرص كثيرة من المشاركة في الحديث حول الأدب العربي ، لقد اكتشفت بهاءه القديم وإمكاناته الحاضرة ، وقد استطعت بفضل الشروح حول النصوص أن أقدر وأفهم العبقرية الشعرية للجاهلية ، وأولئك الشعراء من بني أمية وبني العباس ، وقد استرعى اهتمامي امرؤ القيس ، ولذ لي استماع الشنفرى ، واسترسل لي

عنترة ..)) . (50)

واستطاع الحصول على مقدمة ابن خلدون ، التي شكلت له الفهم العميق لقضايا المجتمع والحضارة . كما حصل على تاريخ المسعودي ، الذي شكل له مصدرا للتاريخ العربي الإسلامي الزاهر . كما قرأ كتاب (كيف نفكر) لجون ديوي . (51)

محصولا كم المعارف من مصادره العربية ، والمنهجية البحثية والتحليلية من المصادر الفرنسية ، ومن الدراسة التقنية الهندسية .

كما كان دائب الاطلاع على الجرائد والمجلات والصحف الجزائرية بالعربية والفرنسية ، صوت الأهالي ، الفلاح ، الإقدام ، النجاح ، صدى تبسة ، العصر الجديد ، السريع .. التي كانت تصف الواقع الجزائري والعربي والإسلامي المزري ، فكان يتابع من خلالها أحداث عصره .

رحلاته المختلفة :

عرف مالك بن نبي منذ صغره الرحلة والتسفار فقد انتقل به والده إلى تبسة سنة 1912م ، وعمره ست سنين ونصف بواسطة القطار الرابط بين مدينتي تبسة وقسنطينة ، ولما بلغ الخامسة عشر انتقل للدراسة في قسنطينة ، التي مكث بها أربع سنوات ، ثم عاد لتبسة وتنقل بين تخومها ، ومنها تنقل إلى آفلو وميلة وشلغوم العيد ووهران وسيق والجزائر وفرنسا ومصر وسوريا ولبنان والحجاز والكويت وليبيا .. وكان له الفضل في التأريخ لبروز أول شركة نقل خاصة بتبسة تمتلك حافلتين تربطان بين مدينة تبسة وقسنطينة لعائلة (خالدي) الثرية ، اللتين كانتا تقطعان المسافة بينهما في اثني عشرة ساعة ، تنطلق من تبسة على الساعة السادسة صباحا وتصل قسنطينة السادسة مساء .

ولما سافر ليتابع دراسته في قسنطينة وعاد قال: ((.. عدت إليهم وقد ارتسمت في نفسي انطباعات واضحة خلال إقامتي في قسنطينة عند عمي وزوجه ..)) (52) ، وانطبع في ذهنه خطر الاستعمار على البشرية ، وتأثر أليما تأثر لما علم بهجرة جد أبيه وعمه إلى طرابلس الغرب بعد أن باع أملاكهما خوفا من بطش الاستعمار . كما تأثر من مظاهر الانحراف الأخلاقي التي باتت تحاصر الفضيلة في قسنطينة من انتشار الخمر وللذيلة ، ومن تغيرات باتت تظهر في العادات والتقاليد الاجتماعية التي كان يفخر بها أهل قسنطينة .

أحداث عصره :

عاصر مالك عصرا حافلا بالأحداث الجسام ، ففي الجزائر كانت فرنسا تُحكم قبضتها على الشعب الجزائري المسكين ، وهكذا حال الأمة العربية والإسلامية ، وشارك في الانتخابات البلدية سنة 1948م ، وأعجب بفوز حزب الشعب ببلدية تبسة ورئاسة أول عربي لها ، كما أعجب بالزعيم المرحوم مصالي الحاج رئيس حزب الشعب الجزائري ، وعنه قال : ((.. لقد بدأ نجم مصالي الحاج في الظهور .. لكنني أعجبت به قدر ما كان ينسينا ركافة المثقفين ..)) . (53)

وعايش الحربين العالميتين ، كما عايش الحرب الباردة ، وأحداث الثامن ماي المأسوية ، وشاهد عن كثب اندلاع

الثورة الجزائرية وشارك فيها بقلمه وموقفه وتأييده ، وحضر الاستقلال ، وميلاد حركة عدم الانحياز ، وضياع فلسطين سنة 1948م بيد اليهود ، وهزيمة العرب سنتي 1956 و 1967م .

* مؤلفات المرحوم الأستاذ مالك بن نبي :

1 - المؤلفات المطبوعة :

ترك المرحوم الأستاذ مالك بن نبي تراثا فكريا وعلميا وثقافيا كثيرا ومتميزا من المؤلفات المطبوعة ، والمخطوطة أيضا ، وأما مؤلفاته المطبوعة فهي :

- 1 - لبيك (رواية) ظهرت سنة 1947م .
- 2 - شروط النهضة ، سنة 1947م .
- 3 - وجهة العالم الإسلامي ، سنة 1954م .
- 4 - فكرة الأفريقية الآسيوية ، سنة 1956م .
- 5 - النجدة الشعب الجزائري بياد ، سنة 1958م .
- 6 - مشكلة الثقافة ، سنة 1959م .
- 7 - حديث في البناء الجديد ، سنة 1960م .
- 8 - الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، سنة 1960م .
- 9 - الصعوبات علامة النمو في المجتمع ، سنة 1960م .
- 10- الاستعمار يلجأ إلى الاغتيال بوسائل العلم ، سنة 1960م .
- 11- فكرة كومنوليث إسلامي ، سنة 1960م .
- 12- تأملات في المجتمع العربي ، سنة 1961م .
- 13- في مهب المعركة ، سنة 1961م .
- 14- ميلاد مجتمع ، سنة 1962م .
- 15- آفاق جزائرية ، سنة 1964م .
- 16- الظاهرة القرآنية ، سنة 1940م .
- 17- مذكرات شاهد القرن ، سنة 1965م ج 1 ، وج 2 سنة 1977م .
- 18- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي ، سنة 1970م .
- 19- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، سنة 1972م .
- 20- المسلم في عالم الاقتصاد ، سنة 1970م .
- 21- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ، سنة 1973م .
- 22- بين الرشاد والنتيه ، سنة 1977م .
- 23- القضايا الكبرى ، سنة 1979م .

2 - المؤلفات المخطوطة :

وترك تراثا مخطوطا مازال لم يطبع ، لعل أهمه والمعروف هو :

- 1 - خطاب مفتوح لخروتشوف وإيزنهاور .
 - 2 - دولة مجتمع إسلامي .
 - 3 - مذكرات شاهد القرن الجزء الثالث .
 - 4 - العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها .
 - 5 - نموذج المنهج الثوري .
 - 6 - المشكلة اليهودية .
 - 7 - العفن .
 - 8 - اليهودية أم النصرانية .
 - 9 - دراسة حول النصرانية .
 - 10- محاضرات دمشق (مجموعة محاضرات باللغة العربية أقيمت في دمشق) .
 - 11- مجالس تفكير (مجموعة محاضرات كان يلقيها في منزله بعد الاستقلال مسجلة على آلة التسجيل باللغة الفرنسية) .
- (54) .

الدراسات والأبحاث والمؤلفات التي تناولت فكره:

لقي فكر الأستاذ مالك بن نبي اهتماما كبيرا من قبل الدارسين والباحثين المتخصصين في الجامعات ومراكز البحوث والدراسات الرسمية والجمعوية ، كما لقي فكره أيضا اهتمام ودراسة الباحثين المهتمين بمشاكل التخلف والإقلاع الحضاري ، ولعل أهم الدراسات التي تناولته بالبحث والدراسة التالي :

المؤلفات والكتب :

- 1 - عمر كامل مسقاوي ، نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 1979م .
- 2 - عمر كامل مسقاوي ، حول فكر مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 1985م .
- 3 - محمد عبد السلام الجفائري ، الحضارة عند مالك بن نبي ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا ، 1984م .
- 4 - أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1986م .
- 5 - علي حسن قرشي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي من منظور تربوي ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1989م .
- 6 - عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، دار الشهاب ، باتنة ، الطبعة الثانية ، 1984م .
- 7 - نور الدين بوكروح ، كيف عرفت مالك بن نبي ، طبع في الجزائر سنة 1992م .
- 8 - نور الدين بوكروح ، الفكر الاقتصادي عند مالك بن نبي ، طبع بالجزائر سنة 1992م .
- 9 - نور الدين بوكروح ، النظام البنابي ، طبع بالجزائر سنة 1989م .
- 10- سيغريد فاث ، مالك بن نبي ، طبع بألمانيا سنة 1992م .
- 11- آمنة تشيكو ، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1989م .
- 12- الطيب برغوث ، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي ، دار الينايب للنشر

- والإعلام ، الجزائر ، 1993م .
- 13- شاييف عكاشة ، الصراع الفكري في العالم الإسلامي ومالك بن نبي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1984م .
- 14- غازي التوبة ، الفكر الإسلامي المعاصر ، طبع سنة 1977م .
- 15- زكي الميلاد ، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 1988م .
- 16- سلوى بن جديد ، مفهوم التبعية عند مالك بن نبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، جامعة الجزائر ، 1995م .
- 17- جودت سعيد ، لا إكراه في الدين - مالك بن نبي بين النص ومشكلات الواقع - طبع سنة 1977م

* الدراسات الجامعية :

- 1 - محمد العربي معريش ، مالك بن نبي والاتجاه الحضاري في الحركة الوطنية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة الجزائر ، 1982م .
- 2 - عبد الله العويسي ، مالك بن نبي حياته وفكره ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة محمد سعود الإسلامية ، 1405هـ .
- 3 - فوزية محمد بربون ، حياة مالك بن نبي ونظريته في الحضارة ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة ميتشيغن ، أمريكا ، 1988م .
- 4 - سليمان عبد الدايم الخطيب ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ، 1988م .
- 5 - لخضر شايب ، الحضارة الإسلامية في فكر مالك بن نبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1989م .
- 6 - عدنان خليل باشا ، مالك بن نبي وآراؤه الإسلامية الحديثة ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة إكسفورد ، بريطانيا ، 1992م .
- 7 - محمد يحيوي ، مشكلة المنهج في فكر مالك بن نبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الجزائر ، 1992م .
- 8 - مسعود أحمد ، مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1988م .
- 9 - علي حسن قريشي ، أسس التربية عند مالك بن نبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1982م .
- 10- زينب سعد مكارم ، المصادر الدينية والفلسفية في موقف مالك بن نبي من فلسفة الحضارة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، جامعة القاهرة ، 1986م .
- 11- نصر الدين عزوني ، منهج التفسير في فكر مالك بن نبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم الإسلامية ، جامعة باتنة ، 2001م .
- 12- نورة خالد السعد ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية علم الاجتماع ، جامعة القاهرة ، 1997م . (55)

دور البيئة التبسية الفعال في تكوينه :

لعبت البيئة التبسية الثرية دورها الفعال في تكوين وتوجيه شخصية مالك بن نبي الوجهة الإسلامية العربية الوطنية ، فأسهب في وصفها والتعرض لتأثيراتها في مذكرات شاهد القرن .

يصف الأستاذ مالك بن نبي في شاهد القرن وضع تبسه الديني والاجتماعي والثقافي قبل نزول فقيه المصلحين الشيخ العربي التبسي إليها ، بقوله : ((.. فثمة تطورات جديدة بالملاحظة تؤرخ لهذا التحول . فقد بدت حلقات الرقص تشهد فراغا من حولها ، وكانت من قبل تستقطب في العادة الجزائريين يتزاحمون بالمناكب حول الحلبة ، التي في داخلها يرقص كل زوج من الأوربيين والأوربيات ..

لقد بدت الروح الاجتماعية تتجلى في تبسة ، وهاهو ذا المجتمع الجزائري الجديد قد ولد ، وأدعياء الثقافة الذين أطلقهم الاستعمار في السوق الجزائرية ، والذين احتكروا بفضلهم وسائل التعبير قد شوهوا الأفكار الأكثر بدهاء وبساطة . فمع هؤلاء انتقلت البلاد خلال ثلاثين عاما من الزوايا التي وضعت تحت قيادة (المقدم) ، والقبيلة الخاضعة لسلطة سيدي الحاكم عبر (القايد) إلى جمهور من الناخبين لا اتجاه لهم ولا لون يقودهم الزعيم . وإلى عمال منظمين تستغلهم حفنة من اللصوص ، وإلى جمعية طلاب يوحي إليهم ممثلهم كيما يهرعوا زرافات إلى محاضرة ما ، ويقاطعوا أخرى وفق الحسابات الدقيقة لسفارة أجنبية . لا شعور جمعي ، ولا ذاتية قرار ، وهما اللذان يكونان المجتمع ..)) . (56)

ثم يذكر تأثيرات هذا المصلح الكبير لما نزل بمدينة تبسة وأصبح يمثل لها ضميرها الحي ضد الاستعمار ورجاله من رجال الطرق والأئمة الرسميين بعد عودته من مصر بقوله : ((.. في شهر آذار من عام 1928م وجدت تبسة تغلي بحمي الإصلاح . لقد بني المسجد الجديد والمدرسة فيها . وقد جمعت التبرعات من الناس من أجل البناء . وامرأة عجوز من حي (الزاوية) تبرعت بديك معتذرة بأن ذلك هو كل ما لديها . كل قد أسهم بحسب قدرته . (57)

وكان هنالك من أسهم لكي يراهن على المستقبل فالمستقبل حتى تلك اللحظة كان في اتجاه إرادة الشعب . فكان للمرء أن يصبح مكافحا في سبيل الإصلاح لخدمة هذا الشعب أو لاستغلاله . حتى (المقدم) الشريف الوقور مقدم الطريقة القادرية في تبسة أقفل زاوية تبسة بمحض إرادته ، ووضع المفتاح تحت الباب ليصبح معلما بسيطا للقرآن في المدرسة ..)) . (58)

كما عرفت تبسة مع مطلع القرن العشرين نهضة ثقافية وإصلاحية وإعلامية وسياسية متميزة ، وفي معرض حديثه عن طفولته بتبسة تناول الأستاذ مالك وضعها الإصلاحي والتعليمي والثقافي والتربوي والسياسي ، والصراع القائم بين الزعيم السياسي الوطني الحر السيد (عباس ابن حمادة ت 1914م) والزعيم (ابن علاوة) الذي كان من أنصار الإدارة الفرنسية . (59)

كما تناول دور المسجد الجامع العتيق وشيخه المصلح الشيخ (سليمان بن طيار) ، الذي بدأت على يديه حملة الوعي والإصلاح ، وقد أشار إلى اضطلاع أعلام الإصلاح بتبسة مع الشيخ سليمان بالعمل الإصلاحي منهم الشيخ المرحوم (الصادق بن خليل الدرياسي التبسي الأزهري ت 1948م) . (60)

وصف الأستاذ مالك مسيرة مدينة تبسة الإصلاحية بقيادة الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي الإصلاحية والدعوية بعيد عودته إلى تبسة من مصر فقال : ((.. سار الشيخ العربي التبسي على خطى سابقه من الشيوخ الذين بدأوا عملية الإصلاح بتبسة بعد عودتهم من زاوية نفطة بالجريد ، التي كانت توفر قدرا من العلم الشرعي والعربي لا بأس به للطالب المرید ، الذي يريد أن يعود لبلدته للإمامة والخطابة والإصلاح . وكان الشيخ الذي أثر في الشيخ العربي التبسي في زاوية نفطة بالجريد محمد بن إبراهيم النفطي ، الذي كانت تربطه صداقات مع القائد الصديق بتبسة فيقضي عطلته الصيفية فيها ، وقد سبق الشيخ العربي للدعوة الإصلاحية بتبسة الشيوخ : عسول والصدوق بن خليل والشيخ سليمان ..)) . (61)

ويتابع الأستاذ مالك وضع الإصلاح بتبسة قائلا : ((.. بعد مجيء الشيخ العربي انفض رواد حلقات الشيخ عسول العبيدي ، والصادق بن خليل ، وسليمان بن طيار من الجامع العتيق ، والمدرسة الصادقية وزاوية سيدي عبد الرحمن ، والتحقوا مباشرة بحلقته في مسجد أبي سعيد ، وقد حاول الشيخ بمعية رجال الإصلاح بالمدينة بعد أن غص المسجد بالرواد الانتقال إلى الجامع العتيق ، ولكن أعداء الإصلاح من الطرفين ، وأتباع الإدارة الاستعمارية من الأئمة الرسميين ، وعلى رأسهم الشيخ سليمان بن طيار ، ومحمد الصالح جلالي اللذين تدخلوا لدى الإدارة الفرنسية فمنعته من التدريس فيه فعاد من جديد إلى مسجده القديم ..)) . (62)

كما يروي الأستاذ مالك أيضا حيثيات التطور الاجتماعي في الجزائر عامة ، وفي تبسة خاصة ، وقائع انتقال الشيخ العربي التبسي إلى مدينة سيق واضطاعه بالتدريس وإدارة مدرستها الحرة الابتدائية ، حيث يقول : ((.. حرارة الإصلاح بدأت تجتاح وهران ، فالناس في بلدة سان دوني دو سيج - ST DENIS DU SIG بنوا مدرسة دعوا من أجل إدارتها الشيخ العربي التبسي ، وكان < باش آغا > المنطقة < بوشيجا > يدلي بنصيبه من تلك المبادرة ، إذ كان يغطي من جيبه الخاص ميزانية المدرسة وإدارتها . كانت هذه سمات ذلك العصر ، فقد كان الناس يلتزمون بملء اختيارهم دون أن يدخلوا في حسابهم رأي الإدارة)) . (63)

يروي الأستاذ مالك في مذكراته عن عودة الشيخ العربي التبسي من بلدة سيق بعد توسط أعيان بلدة تبسة (*) الشيخ للعودة إليها ، قائلا: ((.. وكانت عودة الشيخ العربي التبسي من مدينة سيق منتظرة ليوم التدشين القريب ، وانضم تحت لواء الإصلاح حتى عرابدة تبسة ومدمنوها العاكفون على الخمر ، كما انضم كثير من الذين يعيشون في كنف الاستعمار .. وكانت الملامح الاجتماعية كلها تتغير في المدينة ، بينما بقيت في سيرها الإصلاحية منذ غادرتها قبيل سنتين ..)) . (64)

وقد حضر الأستاذ مالك هذه الأحداث الإصلاحية العظيمة بمدينة تبسة وكتب واصفا إياها بقوله : ((.. وكانت عودة الشيخ العربي التبسي من مدينة (سيق) منتظرة ليوم التدشين القريب ، وانضم تحت لواء الإصلاح حتى عرابدة تبسة ومدمنوها العاكفون على الخمر كما انضم كثير من الذين يعيشون في كنف الاستعمار ..)) . (65) كما وصف دور النادي الثقافي التابع لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتبسة بقوله : ((.. في المدينة أضحى النادي القلب الذي تنظم نبضاته جريان الأفكار وانتشارها . فالتبسيون كانوا يجتمعون فيه في الظروف التي تهم الناس جميعا . وكان رجال القبائل يترددون عليه أيضا حين يؤمون سوق المدينة ، وكانوا يحملون

معهم الأفكار التي ينشرونها ليبدروها في الدواوير خلال السهرات تحت الخيمة ..)) . (66)

كما ذكر الأستاذ مالك في معرض تناوله لحركية النشاط الدعوي والإصلاحي بتبسة في نهاية عقد الثلاثينات بعد عودة الشيخ العربي التبسي من الأزهر ، حيث قال : ((.. على كل حال فلقد كان الشيخ سليمان يتابع رسالته الإصلاحية في البلدة بينما الشيخ الصدوق بن خليل ، والشيخ عسول يتنافسان على استمالة المستمعين من شباب تبسة ، هؤلاء الذين أصبحوا فيما وحينما عاد الشيخ العربي التبسي من الأزهر رواد مواظمه وتوجيهاته ..)) . (67)

وبالرغم من ثناء الأستاذ مالك في الكثير من المواضيع على الشيخ العربي في مذكراته ، كقدرته على استقطاب مدعوي غيره من شيوخ تبسة ، واضطلاحه بزيادة العمل التنويري فيها .. إلا أنه كانت تبدو منه أيضا الكثير من الاعتراضات على منهج وطريقة وأسلوب الشيخ العربي ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، من ذلك قوله : ((.. وكانت الفكرة تجعلني أكثر استلطافا للشيخ ابن باديس .. لقد كانت لديه إنسانية الشيخ سليمان ونظرات الشيخ العربي القاسية . فكانت الأولى تحد من تطرف الثانية .)) . (68)

ثم يعقب الأستاذ مالك على نفسه ، مبررا ومعللا الكثير من مواقفه غير الطبيعية حيال سلوك ومنهج الشيخ العربي تارة بتعلات فكرية ، وتارة أخرى بتعلات نفسية تربية . من ذلك مثلا تعليله لاستلطافه الشيخ باديس على الشيخ العربي بقوله : ((فأحكامي المسبقة ربما أورتنتيها طفولتي في عائلة فقيرة في قسنطينة ، زرعت لا شعوريا في نفسي نوعا من الغيرة والحسد حيال العائلات الكبيرة التي كان الشيخ العربي ينتمي إلى واحدة منها ..)) . (69)

ومن تعلات الأستاذ مالك الفكرية ما ذهب إليه في معرض تبرير طبيعة الخلاف بينه وبين الشيخ العربي قوله : ((.. واتفق في تلك الفترة أن اطلع الشيخ العربي على كتاب فقه جاء هدية من صاحب سعودي لاجيء إلى القاهرة ، وكان عنوانه الغريب (الصراع) يستغرب على غلاف كتاب يدرس الفقه ، وله مقدمة أغرب من العنوان ، لأنها تتناول بإسهاب وبراعة نادرة دور القيم اليهودية في صناعة العالم العصري . فقرأه الشيخ العربي واقترح أن أقرأه أيضا ، لأن المقدمة لفتت نظره ، ورأى أنها لو ترجمت للفرنسية لأفادت في توجيه الشباب الجزائري في تلك الفترة ، وكان رأيه أن أضيف ما جادت به القريحة حتى ينشر الكل في صورة كتيب باسمي واسم الشيخ ، الذي تعهد من ناحية أخرى بتكاليف الطبع من صندوق جمعية العلماء ، فرأيته رأيا وجيها ، وانتهيت من عملي في مقدمة كتاب الصراع ، فسلمت نسخة لبعض الأصدقاء ليقدموها للشيخ العربي فقدموها له ، فأبدى بعض التحفظات :

إن هذه الرسالة لن يسمح بنشرها ، فلا بد من تعديلات في بعض سطورها حتى يتحقق طبعها ، وعندما رجع إلي الأصدقاء بهذا الجواب قررت أن أرى الشيخ حتى أتفق معه مباشرة في الموضوع ، وكي أهدى شيئا من تصورات المتشائمة بخصوص مصير الرسالة .

يا فضيلة الشيخ : لعلك تخشى علينا بعض العواقب فمن الممكن أن يبقى اسمي وحده على غلاف الرسالة حتى لا تتورط جمعية العلماء .. فلم ير هذا الرأي ، واحتج عليه .

إن الحكومة لا تسمح بنشر هذه الرسالة مهما يكن الاسم على غلافها مادام محتواها كما هو دون أي تعديل . فاحتجبت بدوري : فلنترك الحكومة تأخذ مسؤوليتها في الأمر دون أن نساعدنا عليه بإحجامنا . وفرغنا من المناقشة دون اتفاق ، وخرجت منها بفكرة واضحة عن اختلاف طريقة التفكير بيننا ، لأن الطريقتين تأتي كل واحدة منهما من ناحية ، تختلف تماما عن الناحية الأخرى ..)) . (70)

والمتمعن في تحليل الأستاذ مالك بن نبي واستنتاجاته من خلافه في مسألة واحدة مع الشيخ يتبين أن الأستاذ مالك بن نبي عد عدم مجارة الشيخ له - في كتيبه الذي أعده - خلافا في الرأي ، وفي المنهج ، وفي التصور ، وفي النتيجة .

والمسألة كما تبدو داخلية في حنكة الشيخ الكبيرة وتجربته الثرية في التعامل مع أساليب الإدارة الاستعمارية التي تتظاهر بحرية الرأي شكليا ، ثم تخنقه عمليا وتطارده وتتكلم بأصحابه ومؤسستهم . فأراد أن يجنب الجمعية والعمل الإصلاحية كله خطرا أجسم من النفع المطلوب من هذا الرد عملا بالقاعدة الأصولية : دفع المضار أولى من جلب المصالح . ولعل الأستاذ مالك بن نبي لم يهضم المسألة يومها ، فبالغ مبالغة كبيرة في تقدير حجم الخلاف ، وأعطاه أبعادا لعلها لم تكن لدى الشيخ تصورا ومنطلقا وممارسة وغاية وهدفا ونتيجة .

* خصائص ومميزات فكره :

إن الدارس المتمعن في فكر وآثار الأستاذ مالك يجد أنه يتميز بالخصائص والمميزات التالية :

1 - النزعة التحليلية :

يلحظ الدارس لفكر مالك بن نبي بروز النزعة التحليلية ، فلا يتبنى رأيا أو يذهب مذهبا ، إلا بعد أن يدقق فيه ، ويحلله ، ويفككه ، ويركبه ، فله منهج تحليلي تركيبى متميز في الاستدلال والاستنباط خاص به ، وفي هذا الصدد قال عنه الدكتور الأستاذ طه جابر العلواني : ((.. وهو في تناولاته تلك يجمع بين صنعتين ، مهندس دقيق ، يعرف كيف يقوم بعمليات الهدم والتفكيك ، وكيف يتجاوزها بعد ذلك ، للقيام بمهمة البناء والتركيب ، ملاحظا سائر المؤثرات ومختلف الأدوات وجميع الشروط ..)) . (71)

لقد كان مالك بن نبي ذا تفكير منهجي ، وذا نزعة تحليلية رياضية ، نظرا لتخصصه في الكهرباء والهندسة ، فكل المعادلات التي ترد في كتبه تترجم ثقافته الرياضية ، التي ساعدته على أن يكون منهجيا ، يحسن تنسيق أفكاره وترتيبها ، وهو يعترف بما حققه له تكوينه الرياضي فيقول : ((.. لكن ربما أفيده من ناحية تنسيق الأفكار ، ويساعدني على ذلك الأسلوب الرياضي الذي انطبعت به ، حتى كان أحيانا هذا الأسلوب نفسه موضوع نقاش حاد بيننا ، وذلك عندما ينتقد صديقي جفاف الفكر الهندسي ..)) . (72)

فهنا نجد مالكا يتميز بتنسيق أفكاره أثناء مناقشاته مع صديقه حمودة بن ساعي ذو الثقافة الواسعة ، ففوة نظره ، ودقة تحليله تجعله ينظر للمسألة من زوايا متعددة ، حتى أنه لا يركن إلى فكرة ، أو رأي حتى يدعمه بالحقائق والدلائل المنهجية والمنطقية والتاريخية والسياقية والدينية .. فتكوينه العلمي والرياضي يجعله لا يقوم بسرد

التفاصيل والوقائع والأحداث والإطناب فيها ، بل نجده يوجه كامل طاقته الفكرية للتحليل والتركيب والتعمق ، والملاحظة الدقيقة ، مع صرامة في المنطق التحليلي والاستنباطي ، ولذا فهو في كل كتبه يبدو فيلسوفا للتاريخ ، حكيمًا اجتماعيًا ، محققًا نفسيًا ، خبيرًا اقتصاديًا وسياسيًا ، عارفًا بالأديان والجغرافيا .. الأمر الذي يجعله يوظف كل معارفه من هذه العلوم لتحليل الأحداث ، وعدم الاكتفاء بنظرة واحدة ضيقة .

وكل من قرأ له ، أو سمعه يحاضر ، أو يناظر أو يناقش يكتشف بسرعة تكوينه العلمي ، ومصطلحاته الرياضية والفيزيائية والكيميائية ، التي وظفها في حقل الدراسات الإنسانية ، فجاءت لتتوير وحل الكثير من القضايا الفكرية العالقة ، وما كان ذلك إلا لنزعة العلمية التحليلية . (73)

2 - النسقية :

ونقصد بها الانسجام وعدم التناقض الفكري ، الذاتي والموضوعي ، الداخلي والخارجي ، والابتعاد عن خيانة المبادئ ، فمالك حين يتصدى لقضية ما ، ويعتقد أهميتها ، يظل يؤكد على قيمتها ، وهو يعالجها بكل صدق وإخلاص ، ولا يتراجع عنها في سائر كتبه ، إلا إذا اكتشف خطأها ، وهذا ما لم يلحظ عليه .

وإذا ما توصل إلى فكرة معينة ، فهو يسعى بكل ما ملك من معارف وحقائق ومناهج ... لتدعيمها ، فكل كتبه تبرز إيمانه بالحضارة والثقافة وعالم الأفكار والقيم .. ولا نجده في كتاب من كتاباته قد تخلى عنها أو نسيها ، ولذا فأفكاره متناسقة منسجمة ، لا تعارض ولا تناقض بينها .

3 - الواقعية :

عندما يعالج مالك بن نبي قضية من القضايا ، لم يكن ليسبح في الخيال والوهم ، بل كان موضوعيًا واقعيًا إلى حد كبير ، لأنه ينطلق من الواقع المعيش ، ومن التجربة الحية الواقعية ، ومن تجارب يعيشها وعاشها العالم الإسلامي ، وقد ألقى هذه الحقيقة صديقه الأستاذ الدكتور عبد العزيز خالدي ، وهو يقدم له كتابه شروط النهضة ، فقال: ((ابن نبي في الواقع ليس كاتبًا محترفًا ، أو عاملاً في مكتب ، منكبا على أشياء خادمة من الورق والكلمات ، ولكنه رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورته الخلقية الاجتماعية، وتلك هي المأساة التي شعر بها ابن نبي بما فيها من شدة ، وبكل ما صادف في تجاربه الشخصية من قساوة ..)) (74)

لقد كان الواقع يدعوه للتأمل والتحليل والبحث عن حلول لأمته التي غمرها الجهل والفقر والقابلية للاستعمار ، إلى أن وقعت فريسة سهلة بيد الاستعمار . فواقعيته هي التي جعلته يغير مسار حياته من مهندس كهرباء ، إلى باحث اجتماعي وفيلسوف تاريخي ، لإيمانه بحاجة أمته إلى بناء الإنسان المنهار ، أكثر من حاجتها إلى بناء الأشياء والجمادات . لقد كانت انطلاقته من مشكلات عصره ، التي اعترضت سبيل أمته عن النهوض ، فاستحوذت على فكره ، وتفاعل معها مقترحا لها الحلول المناسبة . (75)

فلم تكن الكتابة هوايته ، ولكنه كان يعالج قضايا وطنه وأمته ، والإنسانية التائهة ، وكان يردد فيقول : ((.. لست كاتبًا بالمعنى المهني ، الذي صاحبه يبحث الموضوع ليخرجه للناس ، ولكنني أشعر بوضع يحيط من حولي ، فيدفعني إلى دراسته وإخراجه للناس ..)) (76)

4 - تعدد زوايا النظر :

يتناول مالك بن نبي قضاياها من زوايا متعددة ، فهو فيلسوف التاريخ ، وعالم الاجتماع ، والمحلل النفسي ، والخبير الاقتصادي ، والفقير الأصولي ، والداعية المصلح ، والشيخ المجدد ، واللغوي النحري ، والمهندس التطبيقي ، والفيزيائي المخبري ، والرياضي التحليلي ..

5 - الحرص على سلامة ودقة التشخيص :

حرص مالك بن نبي في كامل آثاره وكتابه ومحاضراته ومناظراته .. على دقة وسلامة تشخيصه لمشكلات العالم الإسلامي ، مجتنباً - قدر الإمكان - الوقوع في التناقض المنطقي في فهم المشكلات الواقعية ، وردها إلى أصولها وأسبابها ودوافعها بدقة متناهية ، فهو يرى أن دقة وسلامة تشخيص قضايا الأمة ومشكلاتها من الفروض الشرعية الواجب عدم الخطأ فيها ، لأنها لا تتعلق بمصير فرد بل بمصير أمة بكاملها . (77)

قضايا الحضارة المعاصرة في تفكير مالك بن نبي :

المنتبع لمؤلفات الأستاذ مالك بن نبي يجده قد عالج بعمق الكثير من قضايا عصره وأمته ، ولكن القضية الأساسية التي شكلت مركزية تفكيره انصبت بالأساس على (مشكلات الحضارة) ، فقد ركز جُلَّ تفكيره فيها ، وكل ما أنتجه من مفاهيم ومصطلحات وأفكار ، وكل ما أرساه من تحليلات وقراءات ومناهج بحثية وتفكيرية ، وما طرحه من إشكاليات في فقه التخلف والانحطاط الحضاري ، وما جدد في فلسفة التجديد والبناء الحضاري كان يهدف كله إلى استيعاب تراكمات حركة البناء الحضاري بأبعاده التاريخية والآنية والمستقبلية . (78)

والمنتبع لمؤلفاته يجدها متمركزة حول مشكلات الحضارة ، التي يرى أن محاولة التفكير فيها هو تفكير في أسسها ، وأسسها هي مشكلة الثقافة . لأن الثقافة هي أصل كل تحول حضاري في التاريخ ، بل الثقافة - حسب رؤيته - مصدر وأس النكبات والمآسي التي أصيب بها مجتمعنا الإسلامي في سائر مجالات حياته ، الأمر الذي أدى إلى انهياره . وهي ذاتها المشكلة التي أدت إلى انهيار سائر المجتمعات ، لأن الفعل الحضاري هو في الأساس فعل ثقافي . (79)

ويرى أن محرك المجتمع نحو الفعل الحضاري هو الفعل الثقافي ، الذي يعتمد أساساً على الفكرة ، لأن الفكرة الأصيلة الحية هي التي تدفع للفعل الحضاري ، لأن ((.. هناك مرحلة يكون فيها المجتمع بدائياً فقير الوسائل ، فإذا أدركته فكرة جوهرية تستقطب روحه ، اندمج في دورة التاريخ ، واندفع بجهد اليوم نحو مثل أعلى يجعل لأفكاره دوراً وظيفياً ..

وإذا كان المجتمع تصيبه المخاطر فليس لقلته في أسيائه ، بل لفقره في أفكاره ، كيف لا ؟ وغنى المجتمع لا يقاس بما يملك من أشياء ، بل بقدر ما يملك من أفكار . ومن هنا فمشكلة العالم الإسلامي مشكلة أفكار ، ومنذ انحطاطه ما بعد عصر الموحدين يواجه مشكلة أفكار لا مشكلة وسائل ..)) . (80)

والقضايا الرئيسية الثلاث التي عالجها ، هي :

1 - مشكلات الحضارة .

2 - مشكلات الثقافة .

3 - مشكلات الأفكار .

وسنحاول عرض هذه القضايا لنتبين استشراف الأستاذ المرحوم مالك بن نبي لمشكلات وقضايا عصرنا .

1 - مشكلات الحضارة :

يرى مالك بن نبي أن الإنسان اجتماعي بطبعه ، ويسعى دوما عبر سائر نشاطاته لتحقيق فطرية الاجتماع الغريزية فيه ، ونتيجة لهذه الميزة الاجتماعية التي ترضي حاجاته الفطرية فهو بحاجة إلى تحقيق آلياتها والتعاون مع بني جنسه ، الأمر الذي يدفعه إلى البحث عن وسيلة للتفاهم والتواصل اللغوي والفكري والاجتماعي والثقافي، وبهاته الآليات تتشكل نواة المجتمع .

ولا يقوم المجتمع ، ولا يعرف الاستقرار إلا بالفاعلية الثقافية، ولا تتحقق الفاعلية الثقافية فيه، إلا بالممارسة وبالغرس الحضاري . وأي غياب لعملية الزرع الثقافي المتواصل في مسيرة وبنية وعمق المجتمع ستجعل من المجتمع مجتمعا بدائيا تسوده همجية ويحيا بالتخلف والفوضى، ولذلك فقد عرف المرحوم الأستاذ مالك بن نبي الحضارة قائلا: ((إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان، لأنها تضع حاجزا بينه وبين الهمجية..)) (81) وأي تراجع أو غياب للفعل الحضاري الفردي والاجتماعي سيؤدي بالضرورة الحتمية إلى عدمية الإنسان والإنسانية ، وظهور الخلل في عالم الأفكار والأشياء لأن: ((الحضارة هي التي تنقل الإنسان إلى شكل من أشكال الحياة الراقية ..)) . (82)

فالحضارة أمان للإنسان والإنسانية ، وحصانة طبيعية لإنسانيته المتميزة ، وحماية لكافة حقوقه وحياته وواجباته وحاجياته ، وبها يجد الأمن لمصيره ومستقبله ، لكونها تستطيع أن تقدم له الضمانات الحقيقية والواقعية لوجوده ، لأن وظيفتها تأمين الحماية للاستمرارية الثقافية والمدنية والحضارية للفرد والمجتمع ، وقد دعا إلى ((.. أن يكون للمجتمع مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها في كل طور من أطوار وجوده ، منذ الطفولة إلى الشيخوخة ، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه . فالمدرسة والعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صورته عبر سائر تراب القطر ، واحترام شخصية الفرد ، تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يرد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه ..)) . (83)

ومهما كان شكل الضمانات التي يقدمها المجتمع للفرد ، سواء أكانت صدقة ، أو زكاة، أو كفالة ، أو إعانة ، أو تعليما ، أو تكوينا فهي أشكال من الضمانات التي تصون أفراد المجتمع لأن المجتمع الذي يقوم بالفعل الحضاري ، هو المجتمع الحقيقي المتحضر ، الذي يتغير ويتطور عبر الزمان التاريخي الفاعل للوصول إلى الرقي والازدهار ، فالمجتمع التاريخي المتطور هو الذي يصنع الحضارة ، وليست الحضارة سوى ((.. محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية ، من أجل الترقى المعرفي والروحي والسلوكي والعمرائي في عالم الشهادة ..)) . (84)

لأن الحضارة إنجاز خلال الزمان التاريخي ، ويشمل هذا الإنجاز كل مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية . ولذلك يؤكد المرحوم مالك بن نبي على فكرة أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها ، أو هي التي تصنع منتجاتها ، وكل استيراد لمنتجاتها وأشياءها لا يعتبر إنجازا حضاريا ، لأن الحضارة : ((.. هي نتاج فكرة حية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر ، الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري والثقافي طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره ، وعلى هذا تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل تتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى ، والحضارات الأخرى ..)) . (85)

* نظرية الحضارة عند مالك بن نبي :

يعرف الأستاذ مالك بن نبي الحضارة بالنظر إلى عناصر تركيبها الأساسية ، فهي :

معادلة تركيبها الحدود التالية : [إنسان + تراب + زمن = حضارة] . (86)

فالحضارة تبنى بالنظر لما يحمله الإنسان من عقيد وفكر ، فيستغل بها التراب الذي يكتنز مختلف ضرورات الحياة ، كما يستغل عامل الوقت بتحويله إلى ساعات عمل وإنتاج . فمشكلة الحضارة والتخلف والتبعية لا نحلها باستيراد منتوجات حضارة قائمة ، بل نحلها بحل مشكلات الإنسان والتراب والوقت .

كما أن عناصر الحضارة هذه لن تجدي نفعاً إذا لم يكن الجامع بينهما هو الفكرة الدينية، التي تسيطر على روح الفرد وعلى حياة الأمة ، وتظل هي العامل الرئيسي في سيرها التاريخي ، وفي تأكيده على فاعلية الفكرة الدينية لبناء الحضارة يقول : ((.. فالحضارة لا تتبع إلا بالعقيدة الدينية. والحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ، يكون للناس شرعة ومنهاجا .. فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية ..)) . (87)

وإن الفكرة الدينية تثبت في روح معتقيها الأخلاق الرفيعة ، ومن شذا عبقها الفياح تنتشر وتتبعث حياة المجتمع الفكرية المتجددة ، فإذا فقدت الأمة الأخلاق تحررت الغريزة ، وهنا تنتصر الهمجية ، وتحيا الهمجية ، وتسقط الحضارة على إثر تحرر الغرائز . فإذا ما تحررت الغرائز في الأفراد وسيطرت عليهم توجهت عقولهم نحو الكم والأرقام ، وفقد الإنسان قيمته الروحية الحقيقية وصارت منتجات الحضارة في يده وسيلة استعمار ، ووسيلة اضطهاد وظلم وفساد وضغط ..

كما يرى المرحوم الأستاذ مالك بن نبي أن الحضارة تبدأ ببزوغ فكرة دينية فيه ، وتسمى هذه المرحلة بمرحلة الروح ، وتكون الحضارة فيها في طور الميلاد والنشأة ، ثم تليها مرحلة انتشار وتوسع الحضارة ، وتسمى مرحلة العقل ، لتنتهي إلى مرحلة الغريزة وهي مرحلة الأقول والتلاشي . (88)

ومن خلال هذا العرض السريع لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي نتبين أنه قد عرفها من خلال ثلاثة مستويات ، فتعريفه لها من حيث تركيب عناصرها ، يشير إلى النظرة النشئية التكوينية ، وتعريفه لها من حيث وظيفتها ، يشير إلى النظرة الوظيفية ، وتعريفه لها من الناحية التاريخية يشير إلى النظرة التاريخية التطورية البيانية . (89)

عناصر نظرية الحضارة عند مالك بن نبي :

يرى المرحوم الأستاذ مالك بن نبي أن الحضارة لا تستقر في مكان واحد في الأرض، كما أنها لا تثبت في رقعة جغرافية معينة ، أو عند شعب معين ، بل تسير وتتحرك من مكان لآخر ، ومن شعب لآخر ((.. لأن الحضارة تسير كما تسير الشمس ، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر ..)) . (90)

وتنقسم حركية قيام الحضارات وسقوطها ثلاث مستويات نظرية رئيسية كبرى ، هي:

1 - نظرية حركة التقدم الصاعد للحضارة .

2 - نظرية حركة النكوص المتدهور .

3 - نظرية التعاقب الدوري .

وتدخل رؤية مالك بن نبي ضمن سياق النظرية الثالثة ، التي درست الحضارة كحركة تعاقب دوري سنني ، وقد

تميزت هذه النظرية بنوعية العلماء والباحثين الذين قدموا قراءاتهم فيها بعمق وموضوعية وإنصاف ، وهم :

1 - المؤرخ والباحث الموسوعي (عبد الرحمن بن خلدون ت 808هـ 1406م) ، الذي يرى أن خط سير الحضارة في أي أمة من الأمم يمر بالمراحل الأربعة التالية : [مرحلة البداوة ، ومرحلة الحضارة ، ومرحلة الترف ، ومرحلة التدهور] .

2 - المؤرخ والباحث الموسوعي (اشبنجلر ت 1936م) ، الذي يرى أن الحضارة كائن حي، يلد وينمو ويكبر ويهرم ويموت .

3 - المؤرخ الموسوعي (إرنولد توينبي) ، الذي يرى أن العامل الرئيسي في نمو الحضارة هو التحديات البيئية والجغرافية والبشرية المحيطة بالمجتمع .

4 - الفيلسوف والمؤرخ (هيغل) ، الذي يرى أن قيام الحضارة متوقف على الصراع القائم بين المتناقضات في نطاق المادة ووسائل الإنتاج . (91)

وقد عرض الأستاذ مالك بن نبي لكل النظريات التي درست لفلسفة قيام الحضارات ، ثم عرض لنظريته التي لا تخضع لأسباب طبيعية جبرية ، بقدر ما تخضع للإنسان نفسه . ملاحظا أن تطور الحياة الفكرية للمجتمع شبيهة بتطور الحياة الفكرية للإنسان في جميع مراحل نموه ، فهو كالطفل صغيرا ، وكالشاب يافعا ، وكالكهل رجلا ، وكالعجوز شيخا ، وكالإنسان ميت فانيا ، ونظريته في الحضارة تتأسس على الخطوات التالية :

1 - الطور الأموي : وهي مرحلة التعامل العشوائي مع عالم الأشياء المحيطة به ، دون إدراك لعالم الأشخاص عدا وجه وشخص أمه .

2 - الطور ما قبل الاجتماعي : وهي مرحلة التعامل مع عالم الأشخاص المحيطين به ، دون إدراك لعالم الأفكار .

3 - الطور الاجتماعي : وهو الطور المدرسي وما بعد المدرسي ، وفيه يحاول إقامة الصلة بين العوالم الثلاثة في داخله [أشياء . أشخاص . أفكار] .

وهكذا تتكون الحضارة : بدءا من الطور الطفولي البدائي ، ثم الطور الاجتماعي بارتباط الأفكار بعالم الأشخاص ، فالطور الراشد الواعي حيث يُعطي المجتمع القيمة للفكرة المجردة عن عالم الأشخاص والأشياء . وهكذا تكون الحضارة بداوة ، فتحضر ، فشيخوخة ، فانهيان . (92)

* المجتمع المتحضر في نظر مالك بن نبي :

إن المرحلة الأولى من مراحل الحضارة هي المرحلة التي تسودها القيم الروحية ، وميزة هذه المرحلة هو الالتزام بالمبدأ التعبدية الشخصي ، أو التعبدية الجمعي (العلاقات الاجتماعية) . فالمبدأ هو مركز الدوران الذي يحققه هدف نشاط الفرد والمجتمع ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أرادوا أن تكسر علاقة المبدأ في بعض جوانبها لفائدة علاقة العواطف : [والله لو سرت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها] . (93)

وكذلك قوله تعالى لمن أرادوا أن تكسر علاقة المبدأ في بعض جوانبها لفائدة الحسابات الظرفية : { ولا يخرج منكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون } (المائدة : 9) .

وقد نبه الأستاذ مالك بن نبي إلى أن مرحلة الروح تطبع المجتمع بطابعين هامين هما:

- 1 - خنوس الأنا الذاتية ، وانسجامها مع المسار العام للمجتمع .
- 2 - انسداد الفجوات الاجتماعية وغياب الفراغ الاجتماعي .

وفي هذه المرحلة تكون كل الملكات (الغرائز ، العقل) تحت سيطرة الروح ، فإذا ما أفلتت الروح ، وظهرت بوادر الفتور ، انتهت مرحلة التألق والإشعاع ، لتبدأ مرحلة لها ميزات الخاصة وهي مرحلة العقل ، حيث تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة العقل ، متجهة نحو المشكلة المادية . وتصبح مرحلة العقل مرادفة للحسابات الشخصية والأناوية والمصلحة ، وتمزق الجوانب الاجتماعية من خيوط شبكة العلاقات كما حدث في معركة صفين 36 هـ . (94)

ثم تحصل بعض التفككات الروحية في الفرد وفي روح الجماعة والمجتمع بانفصال الأساس المعرفي عن البعد الثقافي ، وبانفصال الأساس الإيماني عن البعد السلوكي ، وتبدأ مرحلة الغريزة المتحررة من وصاية الروح والعقل ، وفي هذه المرحلة يصبح النشاط الجمعي المشترك مستحيلا ، وتسود الفوضى والاضطراب ، ويسود المرض الاجتماعي، وتظهر آثاره هذا المرض في علاقات الأفراد وأخلاقهم ، فيكون تضخم الأنا وانتفاخها ، وتتحلل شبكة العلاقات الاجتماعية عندما يسترد استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي . وتميل الكفة في هذه المرحلة إلى الشبيئية ، ويسود قانون الكم والعدد .. ويسود المجتمع الانحطاط ، وينتهي المجتمع ، ويخرج عن الحضارة ، ويعود الإنسان إلى مستوى الحياة البدائية ، ولا يعود الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة ، بل تصبح عناصر خاملة لا صلة بينها .

وهذه الظاهرة الحضارية لا تمس الأمة الإسلامية فحسب ، بل تتعدها لكل الأمم والشعوب الأخرى لأن ((.. التجارب التاريخية العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه ، ولا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة ..)) . (95)

وانطلاقاً من نظرية الأطوار العمرية للإنسان عند مالك بن نبي فإن المجتمع المتحضر هو المجتمع الذي بلغ عمر الفكرة ، وتتمثل هذه الفكرة في جملة عوامل معنوية ومادية تتيح لهذا المجتمع أن يوفر لكل فرد من أفراده جميع الضمانات والضوابط الاجتماعية اللازمة لمواصلة عملية التحضير . لأن الحضارة هي : القدرة على القيام بوظيفة أو بمهمة معينة تخدم تقدم ونمو المجتمع . ووضع الأستاذ مالك بن نبي شروطاً أساسية لتحضر المجتمع ، وهي :

1 - انتصار عالم الأفكار السليمة على الأفكار الميئة والمشوشة .

2 - وضوح وأصالة المنهج المتبع في تنمية الفرد والجماعة .

3 - انعدام فاعلية عقدة القابلية للاستعمار .

4 - تفاعل مجموع الأشخاص مع ضروب التراب ومجموع الأزمنة في تفاعل معادلة الناتج الحضاري [إنسان + تراب + زمن = حضارة] .

وحتى يحقق المجتمع رقيه الحضاري لابد من حل إشكالات الحضارة الثلاث والسيطرة عليها ، وهي : [مشكلة الإنسان ، ومشكلة التراب ، ومشكلة الوقت] . ولحل مشكلة الإنسان يجب توجيه وضبط العوامل الثلاثة المنوطة بنجاحه ، وهي :

مشكلة الإنسان :

1 - توجيه الفكر والثقافة للإنسان المتحضر وذلك بتثبعه وريه بأبعادها الأربعة [الدين والخلق ، والتدوق الجمالي ، والعلم ، والتمكن الصناعي والتكنولوجي] .

2 - توجيه قيم العمل الجماعي في الإنسان لصناعة الإنسان الكائن المتحضر .

3 - توجيه ووضوح سياسة المال لخدمة الكائن المتحضر .

ولتبيين الفرق بين العلم الحقيقي القادر على نقل الإنسان لدائرة التحضر يبين الأستاذ مالك أن الإسلام وفر المناخ العقلي والنفسي والروحي والاجتماعي المناسب لنمو العلم وازدهاره . فالقرآن الكريم لم يحمل أسرار صناعة الذرة أو غزو الفضاء ، ولكنه بث في آياته روح وحركية العلم ، على العكس من التوراة التي ابتدأت في سفر التكوين على توضيح الظواهر المادية ، والإنجيل الذي استفتح على عملية تجسيد الأقانيم الثلاثة ، فإن القرآن الكريم بدأ بالعلم والحث عليه ، ويذكر أدواته ومناخه الملائم . (96)

مشكلة التراب : وهنا يبدو أثر وفاعلية الإنسان ككائن يسعى للتحضر لتحريك التراب الجامد وتحويله إلى منجزات حضارية .

مشكلة الوقت : وهنا يتجه الإنسان لتبيين تأثيره في الاستفادة من الوقت . وهكذا يصبح حل مشكلات الحضارة يعني دخول المجتمع في مرحلة التحضر . (97)

2 - مشكلات الثقافة :

عد الأستاذ مالك بن نبي الثقافة أساس الحضارة ، لأن الفعل الحضاري هو بالأساس فعل ثقافي ، وعليه فالحضارة قضية استراتيجية في فكره ، لأن : ((.. المسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري ، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية ، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان، إلا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعال ، يتيح له امتلاك منهج البحث عنها ، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة ، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الترقى الحضاري المنشود من جهة أخرى ..)) . (98)

مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي :

بعد أن ينتقد مفهوم الثقافة من المنظور الرأسمالي القائم على الفردانية ، ومن المنظور الشيوعي القائم على الجماعية ، ثم يبين خطأ تركيز بناء مفهوم الثقافة على الفرد أو الجماعة فقط يبين مفهومها في الإسلام ، القائم على تركيب أربعة عناصر رئيسة هي : [الأخلاق ، الجمال والذوق ، المنطق العلمي ، الصناعة والتكنولوجية] ، ومحصلة العلاقة القائمة بين هاته العناصر الأربعة في زمن فاعل يصنعه الإنسان السائر نحو التحضر هي الثقافة .

فالثقافة هي علاقة عضوية في سلوك الفرد ، وأسلوب الحياة الاجتماعية ، وهي نظرية في السلوك الاجتماعي ، وليست نظرية في المعرفة . (99)

وهي كما يعرفها : ((.. مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته ، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه ..)) . (100)

فمالك بن نبي يرى بأن الثقافة فلسفة وقيم خلقية فردية واجتماعية تؤثر في تكوين الفرد وصياغته منذ الطفولة ، بحيث تصبح نمطا لصيقا بحياته ، وعلامة مميزة لسلوكه ، يصنع بها كل دقائق حياته ، وفق الوعاء الذي تشكل فيه . فهي أشبه بالهواء الذي يستنشقه وبالماء الذي يشربه وبالطعام الذي يأكله ، ولا غنى لحياته عن هذه الضروريات ، وكذلك الثقافة بالنسبة له . ومن هنا فإن سلوكات وتصرفات وردود أبناء المجتمع الواحد متشابهة بالرغم من تباين مستوياتهم المادية والعلمية والاجتماعية والتعليمية واللغوية .. لأنهم تتسموا عبير نمط ثقافي وروحي متشابه ، وشربوا من نسق اجتماعي متجانس ومتناسق ، ومن ألوان وأزياء وحركات وأصوات وعادات وتقاليد ورموز وأشكال وصور .. صهرتهم جميعا في بوتقة الثقافة القومية . فهي : ((.. المحيط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياتنا .. وهي تتمثل بوظيفة الدم في جسم الإنسان، فهو يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء ، وكلاهما يسبح في سائل واحد هو - البلازما - ليغذي الجسد ، والثقافة هي ذلك الدم ، الذي في جسم المجتمع ، يغذي حضارته ، ويحمل أفكار الصفوة ، كما يحمل أفكار العامة والخاصة . وكل هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة

والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة ..)) . (101)

فالثقافة إذن هي : المحيط الفكري والنفسي والاجتماعي والأخلاقي والتربوي والروحي .. الذي يحتضن الوجود الإنساني في المجتمع ، ويدعمه بالخبرة المعرفية والسلوكية والأخلاقية والجمالية .. وفي هذا المحيط تتشكل طباع ، وشخصية ، وذوق الفرد الثقافي ، محكومة بالسنن النفسية والآفاقية . فالثقافة إذن : نظرية في المعرفة ، ومنهج في السلوك ، وطريقة في العمل والبناء . (102)

* مصطلحات المنظومة الثقافية :

يتكون مصطلح الثقافة عند الأستاذ مالك بن نبي من المفردات الأربعة التالية :

- 1 - التوجيه الأخلاقي لتكوين نمط الصلات الاجتماعية الراشدة .
 - 2 - التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام السليم .
 - 3 - المنطق العلمي لتحديد أشكال النشاط العام .
 - 4 - الصناعة أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع . (103)
- وسنبين هذه المكونات الاصطلاحية لمفهوم المنظومة الثقافية عند المرحوم مالك بن نبي .

1 - المبدأ الأخلاقي :

فطرية الاجتماع غريزة أصيلة في الإنسان ، والمجتمع المتحضر هو الذي يطبع ويهدي هذه الغريزة ويرفع من مستواها بالأخلاق ليتجنب الفوضى والاضطراب ، وأهدى القيم الأخلاقية المنتزلة مع الأنبياء ، لأنها تهدف إلى ربط الأفراد ببعضهم البعض ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى مخبرا عن مجتمع المهاجرين والأنصار : { وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بينهم ولكن الله ألفت بينهم إنه عزيز حكيم } (الأنفال : 63) . (104)

والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساس للحضارة ، وقد جاء رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ليتم مكارم الأخلاق ، ليعلوا ويسمو بها الإنسان إلى درجة يتميز فيها عن باقي المخلوقات . ولذا فالثقافة عند مالك بن نبي نظرية في السلوك والأخلاق أكثر منها من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة . (105)

وعليه فالعنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر مهم من عناصر الحضارة ، والإنسان الذي يتحكم في الأشياء والتراب في الزمن تنظمه الأخلاق ، فالجانب الأخلاقي هو الذي يحدد اتجاه ودوافع وغايات المجتمع العام .

2 - الذوق الجمالي :

إن الأفكار هي المحور الأساسي في بناء الحضارة ، والمجتمع المتحضر هو الذي ينتج الأفكار الحية البناءة المتمسمة بالجمال والذوقية ، لأن الصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها الفعال في صناعة فكره وأعماله ، لأنه لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال أو بالأفكار الكبيرة . فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقيح .. فالأفكار تنتج عليها الأعمال ، والأفكار تولد من روح الصور المشاهدة في محيط الإنسان وإطاره الاجتماعي . فالجمال

الموجود في المحيط من روائح وأصوات وألوان وحركات وأشكال .. توهي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكرام من العادات والممارسات ، وتبعده عما هو مستهجن قبيح ، ولذا يقرر الأستاذ مالك بن نبي أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال ، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة . (106)

وإن نظرة نلقها إلى تعاليم الإسلام تكشف لنا عن اهتمامه بالذوق الجمالي ، وبالنظام، وطهارة النفس والثياب والجسم والمحيط ، وإمارة الأذى عن الطريق ، والكلام الطيب ... نماذج من النزوع الإسلامي لتربية الذوق الجمالي وغرسه في الشخصية الإسلامية .

3 - المنطق العلمي :

وهو المنهج الذي يعرف به المجتمع طريقه للعمل ولمقاصده ولوسائله . فبالمنطق العلمي يستخرج المجتمع الوسائل الميسرة لعملية البناء الحضاري ، وإذا ما غاب المنطق العلمي عن المجتمع ضيقت الثروات ، وبيدت الطاقات والإمكانات في مشاريع لا تقدر الأمور بقدرها ، ولا ترسم الأهداف لأعمالها . والسبب يعود ((.. لافتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها ، وبين الأشياء وأهدافها ، فسياستنا تجهل وسائلها ، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا ، وفكرتنا لا تعرف التحقيق ..)) . (107)

فالمنطق العلمي يعني أن يكون المجتمع فاعليا ، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات ، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا ، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج .

4 - التوجيه الفني أو الصناعة :

وعملية تحويل العلوم النظرية إلى مهن وفنون وصناعات عملية يدوية وتقنية إلى حيزها العملي التطبيقي واستغلال الطاقات والقدرات والمواهب والإمكانات في العمل الصناعي ركن مهم في تكوين مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي ، لأن الصناعة وسيلة لكسب الأفراد ووسيلة للمحافظة على كيان المجتمع واستمراره ونموه . (108)

ومن هنا نتبين أن مشكلة الحضارة هي مشكلة ثقافة ، وإصلاح المنظومة الثقافية أساس لحلول مشكلات الحضارة . وإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سوية بين أفراد المجتمع ، وإذا ما تكون للمجتمع عبر التاريخ قيم أخلاقية تحافظ على تماسك وانسجام أفرادها معا ، فيعيش متسقا ضمن جو محكم من النظام والجمال والذوق ، بحيث تشكل لأفرادها منطلقا أدبيا وعمليا يتفاعلون من خلاله بفاعلية ما يملكونه من طاقات ومواهب وإمكانات فيبدعون أعلى وأقصى ما يمكن من الفوائد والوسائل المتاحة لهم ، فيحولون كل هذه القيم النظرية والأخلاقية والجمالية الذوقية إلى صناعات ومهن وإنتاج سلعي ، أمكنهم حل مشكلة الثقافة ، ومن ثم حل مشكلة الحضارة ، ومن ثم التوقيع على صفحات التاريخ وتأكيد الشهود الحضاري . (109)

وبمثل هذا البناء المحكم يشكل الأستاذ مالك بن نبي بدقة منظومته الثقافية عبر المكونات الأربعة لمفهوم الثقافة المكون من الخلق والذوق والعلم والصناعة .

3 - مشكلات الأفكار :

شغلت قضية الأفكار حيزا مهما من تفكير واهتمام الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله- وقد بين بدقة وعمق

فائدتها وأهميتها ووظيفتها وخطرها من الناحيتين النظرية والعملية ، لأنها تشكل قطبا مهما وأساسيا في حياة الأمم ، وعلامة صحة لتقدم الأمة أو تخلفها ، ومقياسا صحيحا لنضجها أو لتخلفها أو لتطورها الحضاري ذلك أن التفوق الفكري والنظري الواعي لدى أمة من الأمم سيصاحب حتميا بتفوق عملي تطبيقي في مختلف مجالات الحضارة الإنسانية، والدليل الأكيد على ذلك انتصار الفكرة الإسلامية القرآنية في الجزيرة العربية التي أعقبها انتصار حضاري شامل لتلك الأمة المتخلفة . (110)

والأفكار إما أن تكون ذات مصدر إلهي ديني تأتي عن طريق الوحي ، أو تكون من نتاج تأثر العقل البشري بالوحي ، فينتج فكرا دينيا ، أو تكون من إنتاج العقل البشري المحض الذي على تنوع مصدرها وظائف ومهام هي : يصل إلى الحقيقة عندما يسعى لتأكيد وظيفته في الحياة وهي عملية إنتاج الأفكار ، ولهذه الأفكار على تنوع مصدرها وظائف ومهام هي :

1 - اليقظة والنهوض والإقلاع :

كثيرا ما تعيش المجتمعات في حالة ركود وخمود وتخلف ، تسودها البدائية في التصرف وبحكمها الجمود في العلاقات ، حتى تتدarkerها العناية بنزول فكرة حية ناضجة بناءة تنهض وتقلع بها ((.. ذلك أن هناك مرحلة يكون فيها المجتمع بدائيا ، فقير الوسائل ، فإذا ما أدركته فكرة جوهرية تستقطب روحه ، اندمج في دورة التاريخ ، واندمج جهده اليومي نحو مثل أعلى ، يجعل لأفكاره دورا وظيفيا ..)) . (111)

ذلك لأن الأفكار تشكل حدودا واقية للمجتمعات ، فالأفكار الدينية تحد من خطر الغريزة ، وتربط الطاقة الحيوية بدور نبيل في المجتمع ، وفي حركية التاريخ ، والفكرة الإسلامية نجدها قد طوعت الطاقة الحيوية في المجتمع العربي الجاهلي ليصبح مجتمعا متحضرا . وهذه الإيديولوجية الشيوعية تمنح سكان مدينة (ستالينغراد) من بين ملايين القنابل المشتعلة وركام الأبنية المحطمة ووحشية وجاهزية الجيش الألماني .. ليوقفوا زحف الجيش النازي الزاحف على مدينتهم خلال الحرب العالمية الثانية ، بل شكلت نقطة محورية مهمة في تراجع المد النازي عن العالم بأسره . وهذه الفكرة المسيحية تخرج أوروبا إلى مسرح التاريخ في قرن البعث الحديث . (112)

لأن مهمة الفكرة الدينية هي تغيير الإنسان ، ووضع طاقته الحيوية الكامنة أو المبددة في برائن ومهاوي الجاهلية والضياع على عتبات النهوض والإقلاع الحضاري ، فتجعل من كل القيم الدينية قيما أخلاقية عملية تحكم المجتمع، وتحدد طبيعة علاقاته ببعض ، وهي بعملية التحول تلك تكون شبكة العلاقات الاجتماعية الأخلاقية المحكمة في النسيج الاجتماعي ، وقد بين الأستاذ مالك بن نبي عملية التحول في المجتمع بأنه ((.. على عتبة حضارة ما ، ليس هو عالم الأشياء الذي يتبدل ، بل بصورة أساسية عالم الأشخاص على أساس ميثاق جديد منزل كالقرآن الكريم ..)) . (113)

وحتى حينما تفقد هذه الأفكار الدينية فعاليتها في المجتمع ، فإنها تحتفظ بقوتها الدافعة، وهذا الوضع جسده الحضارة الإسلامية بعد عصر الموحدين ، وما رافقه من انحطاط وتخلف حضاري ، وقد مكنتها تلك الأفكار الكامنة من مقاومة العدوان وتحقيق الاستقلال ومعاودة السباق للنهضة والطموح الحضاري .

أما الأفكار التي تسعى لتغيير عالم الأشياء والمقتنيات ، فإنها غالبا ما تصدر عن العقل البشري الذي صممه

الله لمثل هذه المهمة ، وهي صنع وإبداع مثل هذه المنتجات وتطويع المادة، باستغلال وتوظيف كل الوسائل المتاحة في ذلك المجتمع . فدور مثل هذه الأفكار البشرية مترادفا مع الأفكار الدينية مهم في توجيه نشاط المجتمع نحو صنع حاجاته ووسائله الضرورية لمسيرته الحضاريه .

2 - مقياس الغنى أو الفقر الاجتماعي :

يؤكد الأستاذ مالك بن نبي على حقيقة اجتماعية مهمة ، لها علاقة حقيقية ووطيدة بغنى وفقير المجتمع فيقول : ((.. لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء ، بل بقدر ما فيه من أفكار ..)) (114) ، لأن القوة الحقيقية للأمة تكمن في امتلاكها للأفكار الحية والبناءة ، وبامتلاكها لهذه الأفكار البناءة الحية تسيطر على عالم الأشياء ، وتوظف مالها من وسائل متاحة بفضل تلك الأفكار الحية ، وتعتبر في الوقت نفسه الزاد الحي والمنقذ إذا ما تعرضت إلى النكبات الطبيعية أو التدافعية ، مؤكدا على هذه الحقيقة بقوله : ((.. ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة ، كأن يحدث فيضان ، أو تقع حرب فتمحو منه عالم الأشياء محوا كاملا ، أو تفقده إلى حين ميزة السيطرة عليه ، فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على عالم الأفكار كان الخراب ماحقا ، أما إذا استطاع أن ينفذ أفكاره فإنه قد أنقذ كل شيء ، إذ أنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء ..)) . (115)

لأن الزاد الحقيقي وثروة المجتمع هي في عالم الأفكار ، لا في عالم الأشياء المكدسة، ولو كانت حديثة الصنع ، والعالم الإسلامي منذ تعثره الحضاري يملك الأشياء والوسائل ، ولكنه يفتقر إلى عالم الأفكار ، ففقره إذن في فكره لا في وسائله ، لأن : ((.. المجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بنقص في الوسائل المادية ، وإنما بافتقاره للأفكار يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه الوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفاعلية ..)). (116) والملاحظ على العالم الإسلامي أنه يتمتع بأراض واسعة وخصبة جدا وهي أفضل وسيلة لإقلاع مجتمع متخلف من مرحلة البدائية إلى مرحلة أخرى ، والأمثلة على ذلك غنى السودان والعراق والجزائر ولكنهم لم يقلعوا من التخلف لأنهم فقراء في الأفكار. (117)

والأمر نفسه أيضا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية التي تمتلك ثروات طبيعية وباطنية ثرية ومتنوعة ، ولكنها تفتقر إلى الصناعة المتطورة ، ولذا فهي تبيع ثرواتها الباطنية مقابل استيراد منتجات المدنية الغربية التي تعكس عالم الأفكار المتطور لدى الإنسان الغربي المتمدن.

وهذا ما يبين ما للأفكار من قيمة كبرى في عملية الإقلاع الحضاري ، لأنها هي التي تقوم بتغيير الإنسان وتغيير عالم الأشياء ، بشرط أن تكون هذه الأفكار حية بناءة لا قاتلة مميتة ، أو ميتة لا روح ولا حياة فيها . فهي على العكس تعمل على تهديم وتخريب آثار الأفكار الحية ، وهذين النوعين من الأفكار هما :

1 - الأفكار الميئة .

2 - الأفكار المميئة أو الأفكار القاتلة .

أما الأفكار الميتة فهي الأفكار التي انحرفت عن مثلها العليا ، وهكذا أغلب أفكار إنسان ما بعد عصر الموحدين . (118)

لأن كل فكرة فقدت فعاليتها في عالم الأشخاص ، ولم تتجسد في عالم الأشياء تصبح بالضرورة فكرة ميتة لا قيمة لها ، والأفكار الميتة هي التي تجعل المجتمع لبنا هينا لانتعاش عقدة القابلية للاستعمار والخضوع لسيطرة الغير . وهي أشد خطر على المجتمع من الأفكار القاتلة ، لأن ((.. كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي سنتقله ، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي أفكارا ميتة تمثل خطرا أشد من خطر الأفكار القاتلة ، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل ، إنها تكون قاتلة ما لم نجر عليها عملية تصفية ، وهي التي تكون الجرائم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل ، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه ..)) . (119)

وعليه فإن العادات والتقاليد الرجعية والممارسات البالية ، والشخصيات الإقطاعية ، وكل الأمراض الاجتماعية التي نجدها حاضرة بقوة في صميم العالم الإسلامي إنما هي ممثل حقيقي للأفكار الميتة ، لأنها هي التي تجعل العالم الإسلامي خاضعا لعقدة القابلية للاستعمار .

أما الأفكار القاتلة المميتة فهي الأفكار المستوردة من المذنبات الأخرى ، أو من كل فكرة فقدت عمق هويتها ، ومقوماتها الثقافية ، بعدما فقدت جذورها . (120)

والمثقف الذي يحمل الأفكار الميتة تجعله أرضا خصبة لقبول الأفكار القاتلة أكثر من غيرها ، وهكذا عقلية فرد ما بعد عصر الموحدين ، فهي لا ترى غير الأفكار التافهة الحقيرة، ولا تستورد غير التافهة أيضا ، وتكون النتيجة الانحلال والانحراف والتحلل ، وعليه فمالك يقرر عن وضعية أفكار فرد ما بعد عصر الموحدين قائلا : ((.. فكذا مرقص ، وكذا مقهى ، وكذا كلية ، وكذا برلمان = تحللا تاما .. فأوربا إذن تعطينا عناصر تحلل الأخلاق والمجتمع .. لأننا بأفكارنا الميتة لا نرى أفكارها الحية المحيية ..)) . (121)

ولعل من باب الاعتراف وإنصاف المفكر المرحوم الأستاذ مالك بن نبي عن استشرافه الحلول لقضايا عصرنا مشروعته عن فكرة كومنوليث إسلامي .

*** مشروع التعايش الثقافي في العالم الإسلامي :**

يقترح الأستاذ مالك بن نبي مشروعا للتعايش الثقافي بين أجزاء العالم الإسلامي الممتد من محور جاكارتا طنجا كخطي عرض والجزائر ودار السلام كخطي طول ، يسميه بالكومنوليث الإسلامي ، الذي لا يرمي إلى تحقيق الوحدة السياسية والاقتصادية للعالم الإسلامي ، وإنما يسعى لتحقيق الوحدة الثقافية لها ، ويقترح مركزا يتمحور حوله هذا الكومنوليث ، بحيث يشكل له نقطة تمحور ، ويضم الوحدات الثقافية الإسلامية التالية :

- 1 - العالم الإسلامي الإفريقي الأسود [مسلمي قارة إفريقيا] .
- 2 - العالم الإسلامي الإيراني [فارس ، باكستان ، الهند ، جمهوريات أواسط آسيا الإسلامية]
- 3 - العالم الإسلامي الماليزي [إندونيسيا ، ماليزيا وسائر دول جنوب آسيا الإسلامية] .
- 4 - العالم الإسلامي الصيني المنغولي .

5 - العالم الإسلامي العربي .

6 - العالم الإسلامي الأوربي الأمريكي . (122)

خاتمة :

ولعلنا بهذه الخطرات الفكرية العابرة استطعنا أن نقدم لبعض القضايا المتعلقة بالأستاذ المفكر مالك بن نبي المفكر والفيلسوف الاجتماعي ، الذي يتميز عن معظم المفكرين المسلمين المعاصرين بالعالمية في التفكير ، لأن أفكاره صالحة لكل المجتمعات والأمم، فيستفيد منها الوثني والملحد والمسيحي ، لأن فكره سنني علمي ، والسنة والعلم تنتج قانونا يحكم الجميع ، والإسلام عند مالك بن نبي قانون عام يحل معضلات البشرية قاطبة ، وبالتالي فهو صاحب مدرسة مستقلة ووجهة نظر شمولية في الطرح السنني العلمي للمشروع الإسلامي الحضاري العالمي . (123)

ولكن ما جدوى هذه الكتابات والملتقيات من غير الاستفادة بعالم الأفكار الناضج ، إنها لعبة المسرحيات الهزلية والمكشوفة للأمم والكيانات المتخلفة ، فمتى نستيقظ ؟ ومتى نخرج من دائرة الاستهواء الأرعن ، والتعلق الميت بالأفكار الحية للأحياء بعد مماتهم ؟

مصدر الإحالات

- (1) أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930م ، ج 3 ، ص 71 .
- (2) لمزيد من الاطلاع راجع : جمال قنان ، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، ص 127 ، وص 134 ..
- (3) جورج كليمنصو (1841 - 1929) : سياسي فرنسي شهير ، تولى رئاسة الوزارة الفرنسية في نهاية الحرب سنة 1917م ، وكان أحد أقطاب معاهدة فرساي بباريس سنة 1919م ومن الموقعين عليها ، كان يدعى بعجز الاستعمار .
- (4) أحمد الخطيب ، حزب الشعب الجزائري ، ص 67 و 68 .
- (5) جمال قنان ، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، ص 180 و 181 ، بتصرف .
- (6) المرجع السابق ، ص 181 و 182 ، بتصرف .
- (7) يحي بوعزيز ، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية ، ص 17 وص 18 ، بتصرف .
- (8) أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930م ، ج 3 ، ص 71 ، بتصرف .
- (9) بوعزيز ، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية ، ص 18 ، بتصرف .
- (10) يحي بوعزيز ، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية ، ص 18 ، بتصرف .
- * لمزيد من الاطلاع على ايديولوجيات وبرامج الاتجاهات الحزبية في الجزائر يراجع ما يلي : محفوظ قداش ، حزب الشعب الجزائري ، ص 35 ، 36 . ويحي بوعزيز ، الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية ، ص 3 .. 16 . ينطلق الدكتور يحي بوعزيز في هيكله وتصنيف الحركة الوطنية الجزائرية من منظور منهجي ونظري غربي ، بحيث يعتمد مفاهيم ومصطلحات الأدبيات الفكرية الغربية اليمينية واليسار والوسط ، أقصى اليمين أقصى اليسار ..
- (11) أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945م ، ص 158 .

- (12) انظر : عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، ص 13 . وطه جابر العلواني ، مالك بن نبي وحركة التجديد الحضاري ، جريدة الشروق الثقافي ، عدد 15 ، 11/نوفمبر/1993م ، ص 5 . وبعض مؤلفات مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ميلاد مجتمع ، تأملات ، مشكلة الثقافة ، شروط النهضة ، شاهد القرن ..
- (13) انظر : حميد رواية ، مالك بن نبي الرجل الحضارة ، جريدة الشروق اليومي ، عدد 15 ، 11/نوفمبر/1993م ، ص 7 .
- (14) بدا ذلك واضحا في كتاباته : [شروط النهضة ، وجهة العالم الإسلامي ، ميلاد مجتمع ، مشكلة الثقافة ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .] .
- (15) مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص 36 .
- (16) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 114 .
- (17) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 288 .
- (18) مالك بن نبي ، في مهيب المعركة ، ص 8 .
- (19) انظر : عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، ص 29 .
- (20) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص 7 .
- (21) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 19 .
- (22) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 53 .
- (23) انظر : أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ص 14 .
- (24) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 48 .
- (25) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 66 .
- (26) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 66 و 67 .
- (27) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 99 .
- (28) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 153 .
- (29) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 174 .
- (30) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 175 .
- (31) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 211 .
- (32) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 219 .
- (33) انظر : مذكرات شاهد القرن ، ص 269 .
- (34) مسعود أحمد ، مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي ، ص 13 .
- (35) أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ص 17 .
- (36) مسعود أحمد ، مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي ، ص 14 .
- (37) المرجع نفسه ، ص 15 .
- (38) المرجع نفسه ، ص 15 .
- (39) انظر دراستنا المنشورة في مجلتي البلاغ الكويتية والتقوى اللبنانية عن مستقبل العمل الإسلامي الجزائر والتحديات الداخلية في قرن العولمة .
- (40) عبد الرزاق قسوم ، نقطة نظام ، جريدة الشروق اليومي ، عدد 945 ، الأربعاء 16/شوال/1424هـ الموافق 2003/12/10م ، ص 15 .
- (41) انظر : عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، ص 14 .
- (42) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 22 .
- (43) شاهد القرن ، ص 16 .
- (44) شاهد القرن ، ص 19 .
- (45) شاهد القرن ، ص 350 .
- (46) شاهد القرن ، ص 64 .
- (47) شاهد القرن ، ص 65 .
- (48) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 168 و 169 .
- (49) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 67 و 68 .
- (50) المصدر نفسه ، ص 68 .

- (51) المصدر نفسه ، ص 68 و 69 .
- (52) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 20 .
- (53) المصدر نفسه ، ص 228 .
- (54) انظر : جريدة الشروق اليومي ، عدد 15 ، 11/نوفمبر/1993م ، ص 23 .
- (55) الدراسات والأبحاث والرسائل التي كتبت ونوقشت حول فكر الأستاذ مالك بن نبي كثيرة وكثيرة جدا ، وهذه قائمة متواضعة عن أهم الدراسات والأبحاث والكتب التي استطعنا الوقوف عليها .
- (56) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 168 و 169 و 341 .
- * ورد في نص الأستاذ مالك بن نبي المصطلحات التالية :
- 1 - المقدم : هو شيخ الزاوية ، وهي درجة دينية يمنحها له شيخ الزاوية الكبرى الأم .
 - 2 - القايد : لقب إداري استعماري منحتة السلطات الاستعمارية لرؤساء القبائل ممن يوليها لتسهيل مهمتها فيهم .
 - 3 - سي سليمان بن طيار البيضاوي أول إمام مصلح بتبسة تخرج من مدرسة الأئمة بقسنطينة ، وهو من بلدة عين البيضاء .
 - 4 - سي الصادق بوزراع من رجال الإصلاح ، ويمخرنه الذي كان يبيع فيه القمح والقهوة . وهو كائن في قلب تبسة القديمة .
 - 5 - المسجد العتيق بتبسة أقدم مسجد بها ، وقد أسس على أنقاض قصر الحاكم الروماني .
 - 6 - الزاوية : حي كبير بتبسة تسكنه عامة الناس بني حول زاوية سيدي عبد الرحمان العيساوي، وقد ولد فيه أب وكل أعمامي
- (57) شاهد القرن ، ص 184 و 185 .
- (58) المصدر نفسه ، ص 185 .
- (59) لنا دراسة منشورة عن مدينة تبسة في مجلة الفيصل السعودية ، عدد 297 ، جوان 2001م ، وكتاب عن مدينة تبسة وأعلامها وسندرف مسرد الإحالات بتعريف موجز عن تبسة الحديثة ، به بعض التراجم للرجال والأعلام الذين وردوا في شاهد القرن .
- (60) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 27 و 79 و 80 ..
- (61) المصدر نفسه ، ص 80 .
- (62) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 80 و 81 .
- (63) المصدر نفسه ، ص 189 .
- (64) المصدر نفسه ، ص 262 .
- (65) المصدر نفسه ، ص 262 .
- (**) سيرد ملحق خاص بمدينة تبسة في آخر الدراسة تحت رقم نجمتين (**)
- (66) مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 185 ..
- (67) المصدر نفسه ، ص 100 .
- (68) المصدر نفسه ، ص 131 .
- (69) المصدر نفسه ، ص 131 .
- (70) مذكرات شاهد القرن ، ص 422 و 423 و 424 .
- (71) عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، ص 18 .
- (72) مذكرات شاهد القرن ، ص 252 .
- (73) عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، ص 19 .
- (74) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مقدمة الكتاب بقلم الأستاذ الدكتور عبد العزيز خالدي ، ص 6 .
- (75) نصر الدين عزوني ، منهج التفسير في فكر مالك بن نبي ، ص 28 .
- (76) عمر كامل مسقاوي ، حديث في البناء الجديد ، ص 10 .
- (77) نصر الدين عزوني ، منهج التفسير في فكر مالك بن نبي ، ص 28 .
- (78) الطيب برغوث ، دعوة إلى التواصل والتأصيل ، جريدة الشروق الثقافي ، عدد 15 ، 11/11/1993م ، ص 11 .
- (79) الطيب برغوث ، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عندمالك بن نبي ، ص 12 .
- (80) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص 12 .
- (81) مالك بن نبي ، النجدة ، ص 5 ، نقلا عن : أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ص 143 .
- (82) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 19 .

- (83) مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ، ص 43 .
- (84) الطيب برغوث ، موقع المسألة الثقافية في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي ، ص 10 .
- (85) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص 49 .
- (86) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 29 .
- (87) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 75 .
- (88) المصدر نفسه ، ص 98 و 99 .
- (89) أمنة تشيكو ، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي ، ص 111 .
- (90) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 73 .
- (91) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 54 . وشايف عكاشة ، الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ، ص 54 .
- (92) شايف عكاشة ، الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ، ص 54 .
- (93) حديث ((لو أن فاطمة ..)) رواه البخاري في كتاب الحدود ، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان ، حديث رقم 6788 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون طبعة وتاريخ ، ج 4 ، ص 329 . وأخرجه البخاري أيضا في باب آخر . وكذلك مسلم في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود ، حديث رقم 1688 ، دار إحياء الكتب العربية ، دون طبعة وتاريخ ، ج 3 ، ص 1315 . كما أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد .
- (94) يزيد رمرم ، نظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي ، جريدة الشروق الثقافي ، عدد 15 ، 11/11/1993م ، ص 13 .
- ومالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 40 .
- (95) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 79 .
- (96) انظر : مالك بن نبي ، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، ص 34 .
- (97) انظر: مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 79 .. 99 . ووجهة العالم الإسلامي ، ص 31 .. 40 . ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص 7 .. 18 . وشايف عكاشة ، الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ، ص 64 .. 72 .
- (98) الطيب برغوث ، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي ، ص 13 .
- (99) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ص 90 و 91 .
- (100) المصدر نفسه ، ص 74 .
- (101) المصدر نفسه ، ص 78 .
- (102) الطيب برغوث ، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي ، ص 14 .
- (103) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 132 .
- (104) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ص 79 .
- (105) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 124 .
- (106) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ص 81 و 85 .
- (107) المصدر نفسه ، ص 86 .
- (108) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص 88 .
- (109) أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ص 132 .
- (110) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص 8 .
- (111) مالك بني ، مشكلة الأفكار ، ص 40 .. 48 ، بتصرف .
- (112) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص 47 .
- (113) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 37 .
- (114) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 37 .
- (115) المصدر نفسه ، ص 36 .
- (116) المصدر نفسه ، ص 37 ، بتصرف .
- (117) انظر : مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 1979م ، ص 129 .
- (118) في مهب المعركة ، ص 131 .
- (119) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص 153 .

- (120) مالك بن نبي ، في مهيب المعركة ، ص 133 و 134 .
- (121) مالك بن نبي ، في مهيب المعركة ، ص 133 و 134 .
- (122) مالك بن نبي ، فكرة كومونوليث إسلامي ، ص 56 ..
- (123) انظر : الدكتورة نورة خالد السعد ، مالك بن نبي تجاوز ابن خلدون ، جريدة الشروق اليومي الجزائرية ، عدد 894 ، الثلاثاء 11/شعبان/1424هـ الموافق 2003/11/07م ، ص 10 .